تاريخ العرب والهند

من دخول الاستعمار الإنكليزي إلى الهند

في العدد القادم



تيتو :
تاريخ في رجل



المسلات المصرية
الفرعونية
في ساحات
أوروبا !

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثانية - العدد الثامن عشر - نيسان (ابريل) ١٩٨٠ الموافق جمادى الأولى ١٤٠٠

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ



المدير المسؤول : محمد مشموشي

الإنتاج : مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان :	٤ ل.ل.	سوريا :	٦ ل.س
العراق :	٧٠٠ فلس	ليبيا :	٨٠٠ درهم
السعودية :	٧ ريال	الكويت :	٥٠٠ فلس
الاردن :	٥٠٠ فلس	أبوظبي :	٨ درهم
دبي :	٨ درهم	قطر :	٧ ريال
البحرين :	٧٠٠ فلس	المغرب :	٥ درهم
مسقط :	٨٠٠ بيزة	بريطانيا :	جنيه استرليني

الإشتراكات

في لبنان	٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية	١٥٠ ل.ل
في الدول العربية	٧٥ ل.ل
في أفريقيا وأوروبا	١٠٠ ل.ل
دول العالم الأخرى	١٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية في العالم العربي	٢٠٠ ل.ل

ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان • بناية أبو هليل - شقة ١١ • شارع السادات - تلفون : ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

VOL 2, NO 18, APRIL 1980
ANNUAL SUBSCRIPTION
$75 (INCLUDING $25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
"HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD"

في هذا العدد

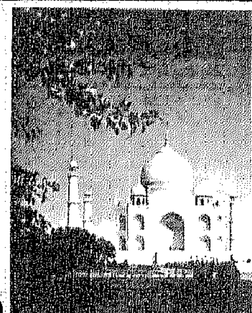
● المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط.

الموضوع	الصفحة

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص. ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تُنشَر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

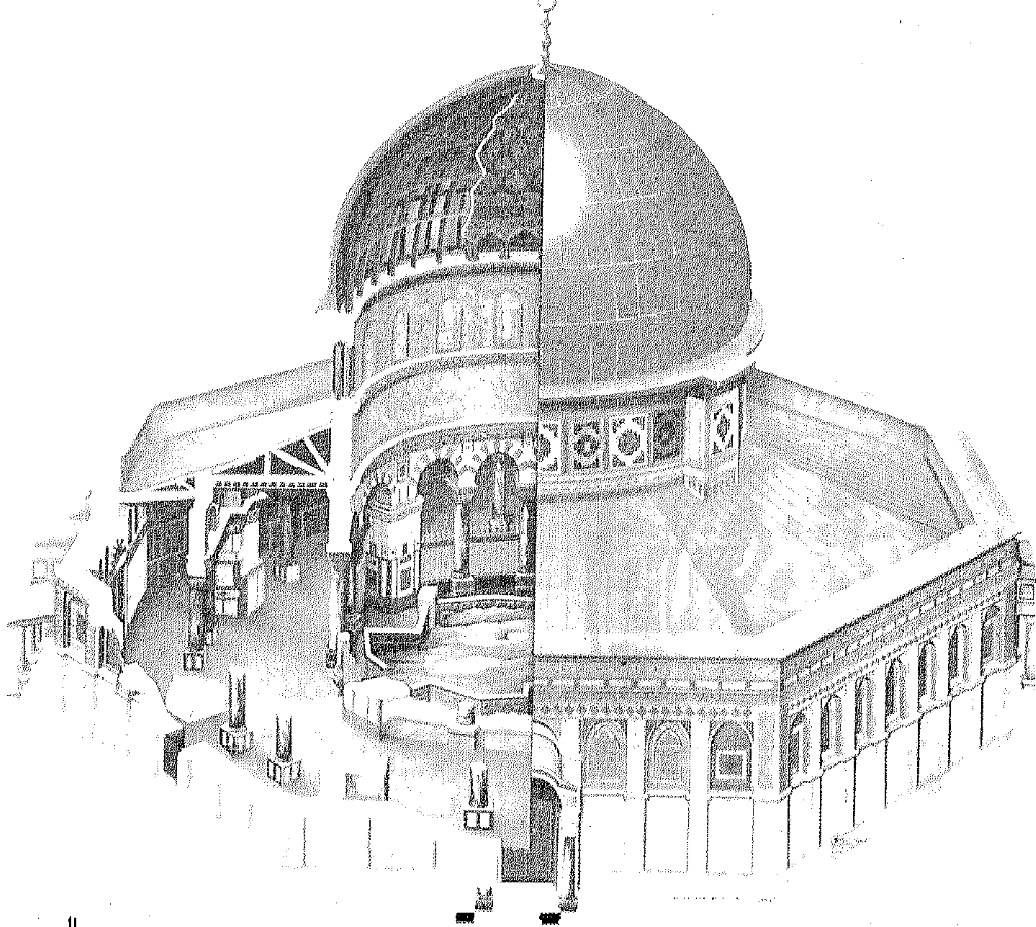
● المواد الواردة إلى المجلة لا تُردّ إذا لم تُنشَر.



(راجع المقالة ص ٥١)

الخلافة

د. يوسف ايبش



قبة الصخرة في القدس: مثل رائع للفن الاسلامي ايام الخلافة الاموية.

الصور من
J. Mitchell:
History & Culture

أ – حكومة الرسول في يثرب



كانت حكومة الرسول (صلعم) بعد هجرته الى يثرب عام ٦٢٢ م.، حكومة دينية دنياوية، تعتمد بالدرجة الأولى على شخصية الرسول بصفتيه النذير والبشير وعلى عقيدة الناس ان النبي انما يصدر في احكامه وتصرفاته، عن وحي الله وأمره. والنواة الاولى للمجتمع الاسلامي كانت امة محمد كما شكلها ونظمها الرسول في دار الهجرة. ففي هذه الأمة تقطع رباط الدم والعصبية القبلية وقام رباط الأخوة في الاسلام التي يفرضها الايمان بالله وبرسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر؛ مما سهل على القبائل المختلفة والمتنافرة طاعة الرسول والانضواء تحت لوائه. وهكذا جمع في شخصه النبوة والامامة والزعامة والقضاء وامارة الجيش. وأصبحت البلاد العربية بعد ثماني سنوات

استاذ الفكر الاسلامي في دائرة العلوم السياسية في الجامعة الاميركية – بيروت.

مضت على هجرته تأتمر بأمره وتنزل في كل شيء عند حكمه فحقق الاصلاح الاجتماعي على المبادىء السامية كالعدل والاخاء وتحرير المرأة والعبيد ومحاربة اسباب الشقاء والفقر بين ابناء الجزيرة العربية، حتى لقد بلغ من افتتان بعض اتباعه بشخصيته انهم لم يصدقوا بموته عام ٦٣٢ م.

ب - الازمة الدستورية الأولى

واجه المسلمون عند وفاة الرسول (صلعم) أزمة دستورية حادة: من يخلف الرسول؟ من يقود الأمة؟ وما هي النظم الاجتماعية والسياسية الكفيلة بحفظ وحدة الأمة؟ ولم يكن في كتاب الله ولا في حديث رسوله اي نور يضيء الطريق في هذه الناحية بالذات. ولكن الأمة قد حلت هذه الأزمة الدستورية عن طريق استعمال حازم وسريع لمبدأ «الاجماع» الذي يكمن في تركيب الأمة كجماعة متساوية الواجبات والحقوق امام الله من خلال الشريعة. وانتهى الأمر باستخلاف ابي بكر الصديق فولدت الخلافة.

ج - الخلافة

الخلافة في الاصطلاح هي رياسة عامة في امور الدين والدنيا نيابة عن النبي (صلعم)، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها، اذ احوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع الى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به». ولا خلاف بين أهل العلم ان الخلافة فرض كفاية اذا قام بها من هو اهل لها سقط فرضها عن كافة الناس. ويتفق الأشعري والباقلاني والبغدادي والماوردي وابو يعلى والغزالي وامام الحرمين والقلقشندي على ان الطرق التي تنعقد بها الخلافة هي:

الطريق الأول: البيعة:

وهي ان يجتمع اهل الحل والعقد ويعقدون الخلافة لمن يستجمع شرائطها، ويتأتى ذلك في حالتين:

١ - احداهما: ان يموت صاحب الأمر الذي كان منتصباً عن غير عهد الى احد يخلفه. وعلى ذلك كانت خلافة أبي بكر عقب وفاة الرسول، وكذلك كانت خلافة علي بن ابي طالب بعد اغتيال عثمان بن عفان.





مسكوكة ذهبية سكت في بغداد عام ٩٧٦م ذات وجهين يمثلان الخليفة الطائي ٩٧٤ - ٩٩١م والأمير البويهي عز الدولة ٩٦٨ - ٩٦٧.

٢ - والثانية: ان يخلع الخليفة نفسه من الخلافة او يخلعه اهل العقد لموجب اقتضى خلعه.

الطريق الثاني: العهد:

وهو ان يعهد الخليفة المستقر الى غيره ممن استجمع شروط الخلافة بالخلافة بعده، فاذا مات العاهد انتقلت الخلافة الى المعهود اليه ولا يحتاج الى تجديد بيعة اهل الحل والعقد، وعلى ذلك كانت خلافة عمر بن الخطاب حين عهد ابو بكر له بخلافته.

الطريق الثالث: الشورى:

وهو ان يجعلها الخليفة القائم شورى بين جماعة يستجمع كل واحد منهم شروط الخلافة، فيختار أهل الحل والعقد بعد موت العاهد واحداً من المعهود اليهم او يخرج الجميع انفسهم من العهد ويبقى واحد منهم. وعلى ذلك كانت خلافة عثمان بن عفان بعد اغتيال عمر بن الخطاب.

د - شروط الخلافة:

لصحة عقدها اربعة عشر شرطاً

١ - الاول **الذكورة:** فلا تنعقد امامة المرأة لأن الخليفة لا يستغنى عن الاختلاط بالرجال وقيادة الجيوش ومنازلة الاعداء.

٢ - الثاني **البلوغ:** فلا تنعقد امامة الصبي لأنه مولى عليه فكيف يجوز ان يكون ناظراً في امور الأمة.

٣ - الثالث **العقل:** فلا تنعقد امامة المجنون لأن العقل آلة التدبير فاذا ذهب العقل ذهب التدبير.

٤ - الرابع **البصر:** فلا تنعقد امامة الاعمى لأنه لا يتولى القضاء.

٥ - الخامس **السمع:** فلا تنعقد امامة الأصم لأنه يتعذر عليه سماع مصالح المسلمين.

٦ - السادس **النطق:** فلا تنعقد امامة الأخرس لأنه يتعذر عليه الأمر والنهي.

٧ - السابع **الحرية:** فلا تنعقد امامة من فيه رق لأن الرقيق محجور للسيد.

٨ - الثامن **سلامة الأعضاء:** فلا تنعقد امامة من ذهبت يداه او رجلاه لعجزه عن القيام باعباء منصبه.

٩ - التاسع **الاسلام:** فلا تنعقد خلافة الكافر لأن المقصود من الامام مراعاة امور المسلمين واقامة الحد ونصرة الدين.

١٠ - العاشر **العدالة:** فلا تنعقد خلافة الفاسق المتابع لشهوته ومرتكب المحظورات.

١١ - الحادي عشر **الشجاعة والنجدة:** فلا تنعقد خلافة الجبان لأنه محتاج الى الشجاعة لحماية البيضة وجهاد الاعداء اللذين هما جل المطلوب من نصب الخليفة.

١٢ - الثاني عشر **العلم:** المؤدي الى الاجتهاد في النوازل والاحكام. فلا تنعقد خلافة غير العالم بذلك.

١٣ - الثالث عشر **صحة الرأي والتدين:** فلا تنعقد خلافة ضعيف الرأي غير المتدين.

١٤ - الرابع عشر **النسب:** وهو ان يكون من قريش لقول النبي (صلعم): «الأئمة من قريش».

هـ - واجبات الخليفة:

يتوجب على الخليفة مهام تنحصر في اربع دوائر:

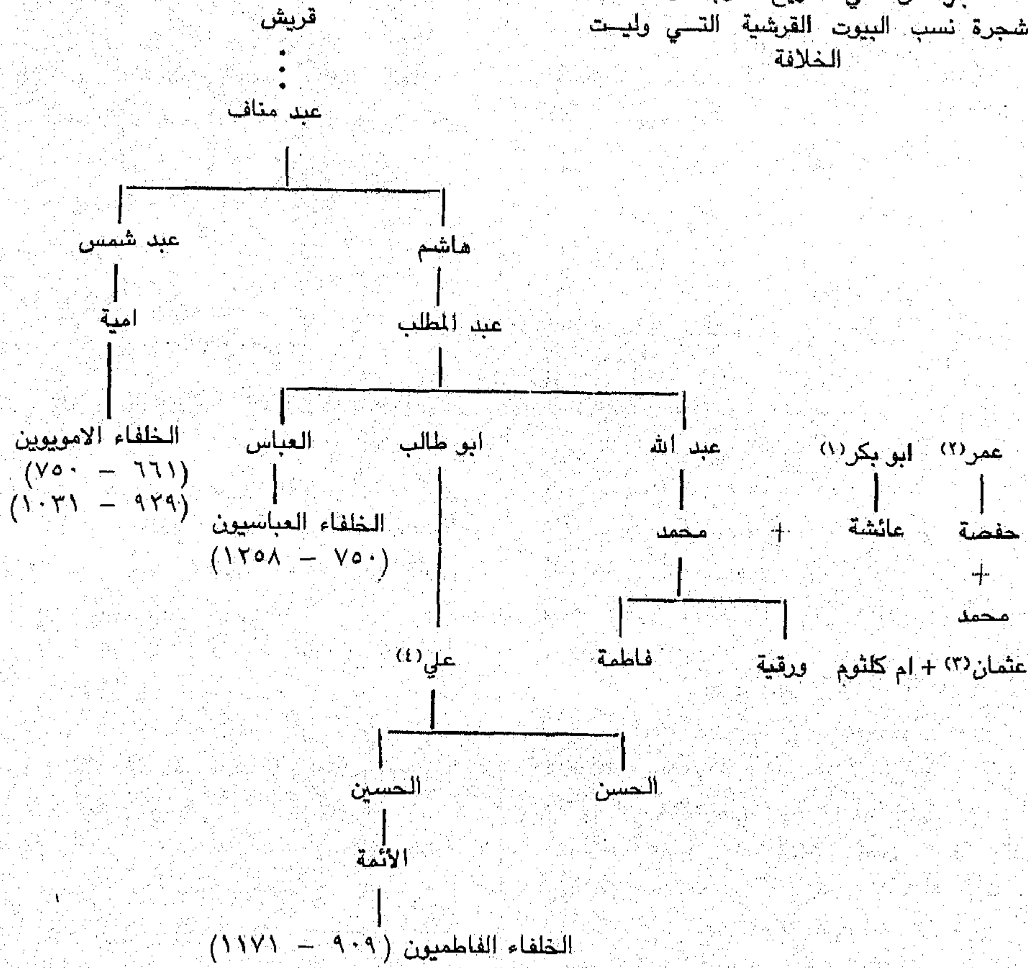
١ - **الدينية:** حفظ الدين على اصوله وما اجمع عليه سلف الأمة، ليكون الدين محروساً وحال الأمة فيه مضبوطاً. ثم النظر على اقامة الصلوات الخمس والجمعة، وصيام شهر رمضان، وتيسير الحج الى مكة المكرمة وتدبير امر الحجيج للقيام بمناسكه وأحكامه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وجاء في الصحيحين ان رسول الله (صلعم) قال: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته. فالامام راع ومسؤول عن رعيته».

٢ - **القضائية:** اقامة الحدود الشرعية لتتوقى المحارم وتصان الأنفس والاموال، وتنفيذ الاحكام وقطع الخصومات حتى لا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم، والمشارفة على الأمور العامة بنفسه قياساً على قوله تعالى: «يا داود انا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله». (سورة ص الآية ٢٦).

٣ - **التنفيذية والادارية:** تنفيذ الاحكام وقود المتظالمين الى التناصف بالرهبة، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة. ثم اختيار الوزراء الامناء، وأمراء الجيش الأكفاء، وتقليد الولايات للثقات، وتعيين القضاة النصحاء، لتنضبط الاعمال الادارية العامة بالكفاة، وتحفظ الأموال بالامانة. وكذلك جباية الضرائب الشرعية من زكاة وخراج وغيرها من اموال الفيء والصدقات بدون حيف ولا تعسف، وصرفها من بيت المال على ما توجب من المصالح العامة من غير اسراف ولا تقتير.

٤ - **العسكرية:** تجهيز وقيادة الجيوش، وتحصين الثغور بالعدد والعدة، وبناء الحصون والقلاع والجسور والطرقات، وتدريب المقاتلة وتسليحهم، تعيين امراء الجيش الاكفاء، ومحاربة المعاندين للاسلام في الخارج واهل الردة والبغي وقطاع الطرق والعصاة في الداخل. وبالجملة حماية بيضة الاسلام والذب

الشجرة من حتي: تاريخ العرب ص ٢٤٣.
شجرة نسب البيوت القرشية التي وليت الخلافة



الخلفاء الراشدون

(١) ابو بكر الصديق ٦٣٢ – ٦٣٤
(٢) عمر بن الخطاب ٦٣٤ – ٦٤٤
(٣) عثمان بن عفان ٦٤٤ – ٦٥٦
(٤) علي بن ابي طالب ٦٥٦ – ٦٦١

الشرط الرابع عشر: لصحة عقد الخلافة شرط اساسي هوالنسب القرشي، لقول النبي (صلعم)؛ «الائمة من قريش». وتدل هذه الشجرة على ان جميع الخلفاء من ابي بكر الصديق الى المستعصم اخر خلفاء بني عباس كانوا من صميم قريش.

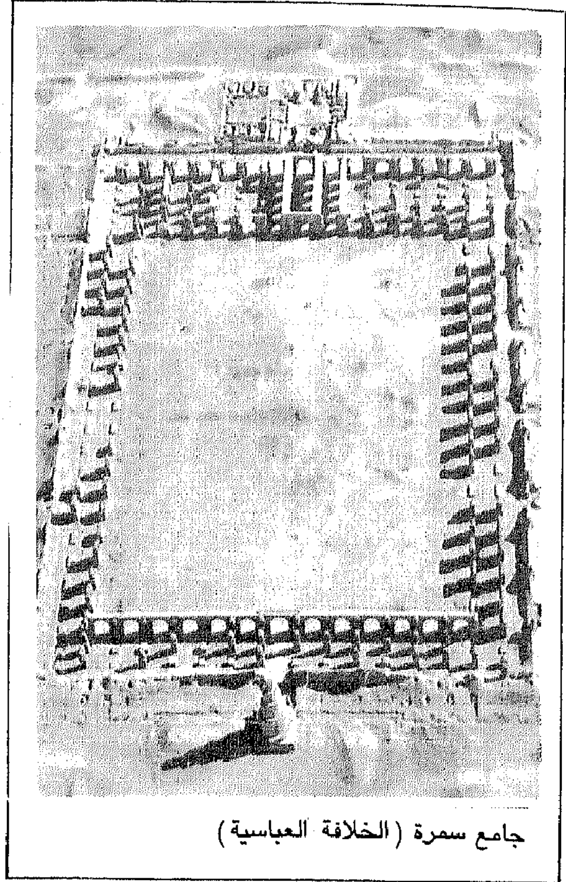
عنها، ليتصرف الناس في معايشهم، وينتشروا في اسفارهم، آمنين على انفسهم وعيالهم واموالهم.

و – واجبات الأمة للخليفة.

يتوجب على الأمة ما يلي:

١ – **الطاعة:** قال الله تعالى: «واطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم» (سورة النساء: الآية ٥٩). فأمر بطاعة اولى الأمر، وهم ولاة الامور اي الخلفاء، على ما ذهب اليه كثير من المفسرين. على ان الانقياد لأوامر الخليفة ونواهيه واجبة شرط ان يطيع الله ولا يخالف امرالشرع. ففي الصحيحين ان الرسول (صلعم) قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما احب او كره الا ان يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».

٢ – **المعاضدة والمناصرة في امور الدين وجهاد العدو:** قال تعالى: «وتعاونوا على البر


جامع سمرة (الخلافة العباسية)

والتقوى» (سورة المائدة: الآية ٢). ولا اسمى من معاونة الخليفة على اقامة الدين ونصرته. وفي صحيح مسلم عن ابي هريرة ان الرسول (صلعم) قال: «من خرج من طاعة وفارق الجماعة، مات ميتة جاهلية».

ز - فيما ينعزل به الخليفة:

ينعزل الخليفة وتسقط طاعته في الحالات التالية:

١ - الحالة الاولى: ان يتنازل عن خلافته لعجز من القيام باعباء منصبه لمرض او هرم ونحوهما.

٢ - الحالة الثانية: ان يخلعه اهل الحل والعقد لأمور منها: (أ) كفر بعد ايمان. (ب) تركه اقامة الصلاة والدعوة الى ذلك. (ج) فسق. (د) زوال العقل والجنون المطبق. (هـ) عاهات جسدية كالعمى اوالصمماو الخرس او فقدان الاعضاء وكل ما يمنعه من القيام بواجباته على أكمل وجه. (و) فقدان الحرية اما بأسر من الاعداء او من اهل البغي الى مدة يخاف معها على مصالح الامة. كل هذه الحالات توجب خلع الخليفة وعقد الخلافة لمن هو اهل لها.

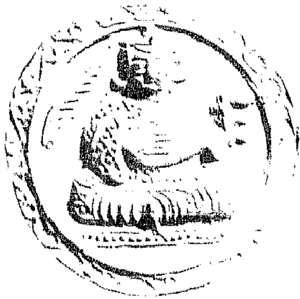
* ملاحظة هامة: ان حق الجماعة في خلع الحاكم الفاسق لم يكن له اي معنى عملي. لأن أحداً من اهل العلم لم يعين، وهو يسرد حق الناس في خلع الخليفة الجائر، الوسيلة القانونية، التي بها يتم الخلع. ويقول ابن جماعة: «فان خلا الوقت عن امام فتصدى لها من هو ليس من اهلها وقهر الناس بشوكته وجنوده بغير بيعة او استخلاف انعقدت بيعته ولزمت طاعته لينظم شغل المسلمين وتجمع كلمتهم ولا يقدح في ذلك كونه جاهلا او فاسقاً..» ويقول ابن تيمية: «ستون سنة من امام جائر اصلح من ليلة بلا سلطان».

ح - ذكر من ولي الخلافة:

تولى الخلافة من وفاة الرسول (صلعم) الى سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة ١٢٥٨ اربع طبقات:

١ - الطبقة الاولى: الخلفاء الراشدون. وكانت مدة حكمهم من سنة ٦٣٢م - ٦٦١م في المدينة المنورة والكوفة.

٢ - الطبقة الثانية: خلفاء بني امية. وكانت مدة حكمهم من سنة ٦٦١م - ٧٥٠م في دمشق، والى سنة ١٠٣١م في الأندلس.



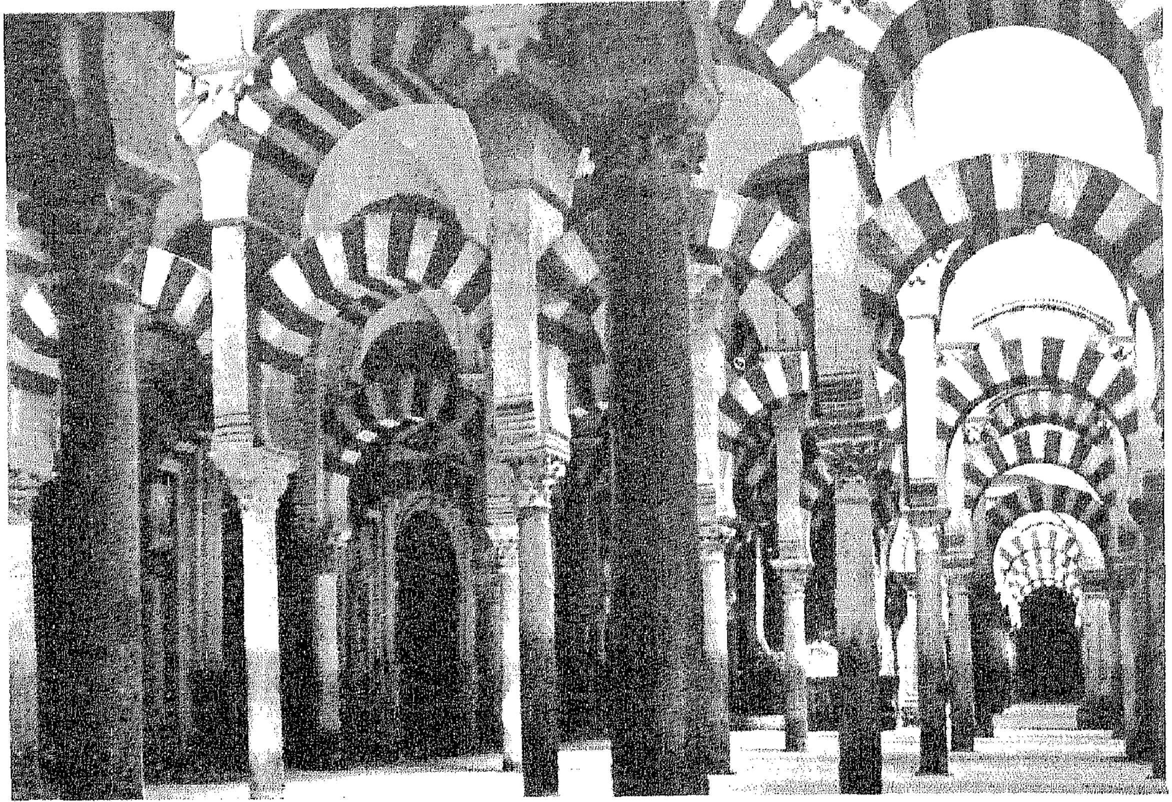

مسكوكة ذهبية ذات وجهين تمثل الخليفة العباسي المقتدر ٩٠٨ - ٩٣٢.

– الخليفة هارون الرشيد ٧٨٦ – ٨٠٩ الذي نقل الخلافة فعليا من الشام الى العراق والذي تميز عهده بالازدهار والرقي.





من رسم على جدران في تدمر تمثل احد افراد سلاح الفرسان العرب في ساحة القتال.



جامع قرطبا (الأندلس).

٣ – الطبقة الثالثة: الخلفاء الفاطميون من سنة ٩٠٩م – ١١٧١م في شمال افريقيا والقاهرة.

٤ – الطبقة الرابعة: الخلفاء العباسيون من سنة ٧٥٠م – ١٢٥٨م في العراق وبغداد.

ط – سقوط الخلافة.

هاجم هولاكو بغداد عام ١٢٥٨ ودخلها، ويقول ابن طقطقى: «فجرى من القتل الذريع، والنهب العظيم، والتمثيل البليغ، ما يعظم سماعه» واستشهد المستعصم اخر خلفاء بني العباس، بينما فر بعض ذوي قرباه الى مصر حيث نصب السلطان بيبرس احدهم خليفة صوري واطلق عليه اسم المستنصر بالله، رغبة منه ان يضفي على حكم المماليك صفة شرعية. ظلت هذه الخلافة الوهمية قائمة في مصر حتى زوال دولة المماليك عقب الفتح العثماني سنة ١٥١٦ – ١٥١٧.

حاول سلاطين آل عثمان ادعاء لقب «خليفة» ولكن دون جدوى اذ لم يعترف لهم بهذا اللقب معظم الذين كتبوا تاريخ هذه الحقبة امثال الغزي والمحبي والمرادي والجبرتي والبيطار. وبعد سقوط السلطنة العثمانية واعلان اتاتورك الجمهورية عام ١٩٢٢ قال الشيخ رشيد رضا: «ان دولة سلاطين بني عثمان لم تكن خلافة شرعية بحيث يعد الواحد منهم امام المسلمين كما ادعوا هم بذلك».

جرت محاولة اخيرة للنظر في مسألة الخلافة في مؤتمر عام عقد في القاهرة عام ١٩٢٦، ولكن المؤتمر لم يسفر عن نتائج عملية وتطبيقية فذهبت المجهودات النبيلة ادراج الرياح. ■




دينار عباسي
اصبح في ايامه اساس العملة في البحر الأبيض المتوسط.



دكتوراه في العلوم الاسلامية من جامعة القاهرة. درس وحقق الاعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ورفاعة الطهطاوي ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وقاسم أمين وعلي مبارك وغيرهم. وألف خمسة وعشرين كتاباً في الفكر السياسي والاجتماعي والتاريخ والفلسفة. وله عشرات البحوث في المجلات الفكرية المختصة في مصر ولبنان والعراق والكويت وقطر وليبيا.

قبل ظهور الاسلام كان الخطر والتحدي يحيطان بالعرب من كل الجهات ويتقدمان شيئاً فشيئاً ليهددان حريتهم واستقلالهم، بل ووجودهم بالزوال !..

ففي الشرق: كانت الامبراطورية الفارسية تسيطر على عرب العراق والخليج، وفي بعض الفترات امتدت سيطرتها إلى اليمن في الجنوب..

وفي الغرب والشمال: كان الروم البيزنطيون يفرضون سيطرتهم على عرب الشام..

وفي الجنوب: احتلت الحبشة، لفترات طويلة، جنوب شبه الجزيرة العربية – (اليمن)

ولم يبق حراً ومستقلا من بلاد العرب سوى وسط شبه الجزيرة، الذي كان وعراً وفقيراً وصحراوياً، تسكنه قبائل شديدة المراس في الحرب، عاشقة للحرية، رافضة لأية قيود تفرضها أية حكومة من الحكومات، خصوصاً اذا كانت هذه الحكومة غير عربية.. ومع ذلك.. فلقد حاولت الحبشة في سنة ٥٧١م – عام الفيل – أن تغزو وسط شبه الجزيرة، وتحتل مكة.. ولولا هزيمتها يومئذ لسيطر الأعداء على بلاد العرب كلها.

لكن هذا الخطر وذلك التحدي قد نبه في الأمة العربية عوامل اليقظة وروح المقاومة ونمى بين ابنائها صلات التضامن وروابط الاتحاد.. وفي فترة وجيزة شهدت بلاد العرب هذه الأحداث:

■هزيمة جيش أبرهة الحبشي وغزوة الفيل سنة ٥٧١ م. وهو العام نفسه الذي ولد فيه الرسول محمد، عليه الصلاة والسلام؟!..

■وتحرير اليمن من الاحتلال الحبشي بقيادة البطل العربي سيف بن ذى يزن (٥١٦ – ٥٧٤ م).

■ وقيام روابط التضامن بين حكومة مكة، بزعامة عبد المطلب بن هاشم (٥٠٠ – ٥٧٩م) وبين حكومة اليمن..

■ونمو الروابط والعلاقات السلمية بين قبائل العرب في وسط شبه الجزيرة، وخاصة بعد الاتفاق على وقف الحروب والمنازعات والغارات أربعة أشهر من كل عام، هي الأشهر الحرم: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. وفي هذه الأشهر كانت تقام المعارض والأسواق، ويتم الحج إلى الكعبة، وتعقد المسابقات بين الشعراء والحكماء في الأسواق الشهيرة: عكاظ، ومجنة، وذي المجاز.. الأمر الذي ساعد على تبلور الشخصية العربية الموحدة، وزاد من روابط التضامن والتقارب والاتحاد..

■وكان أول انتصار للعرب على الفرس في يوم ذي قار سنة ٦١٠ م.. وهو العام نفسه الذي ظهر فيه الاسلام؟ ويومها استبشر الرسول خيراً، وتنبأ بأن هذا النصر سيكون فاتحة انتصارات أكبر، تحرر العرب من الفرس، وتنتقم لتاريخ طويل سيطر فيه الفرس على عرب الشرق والجنوب.

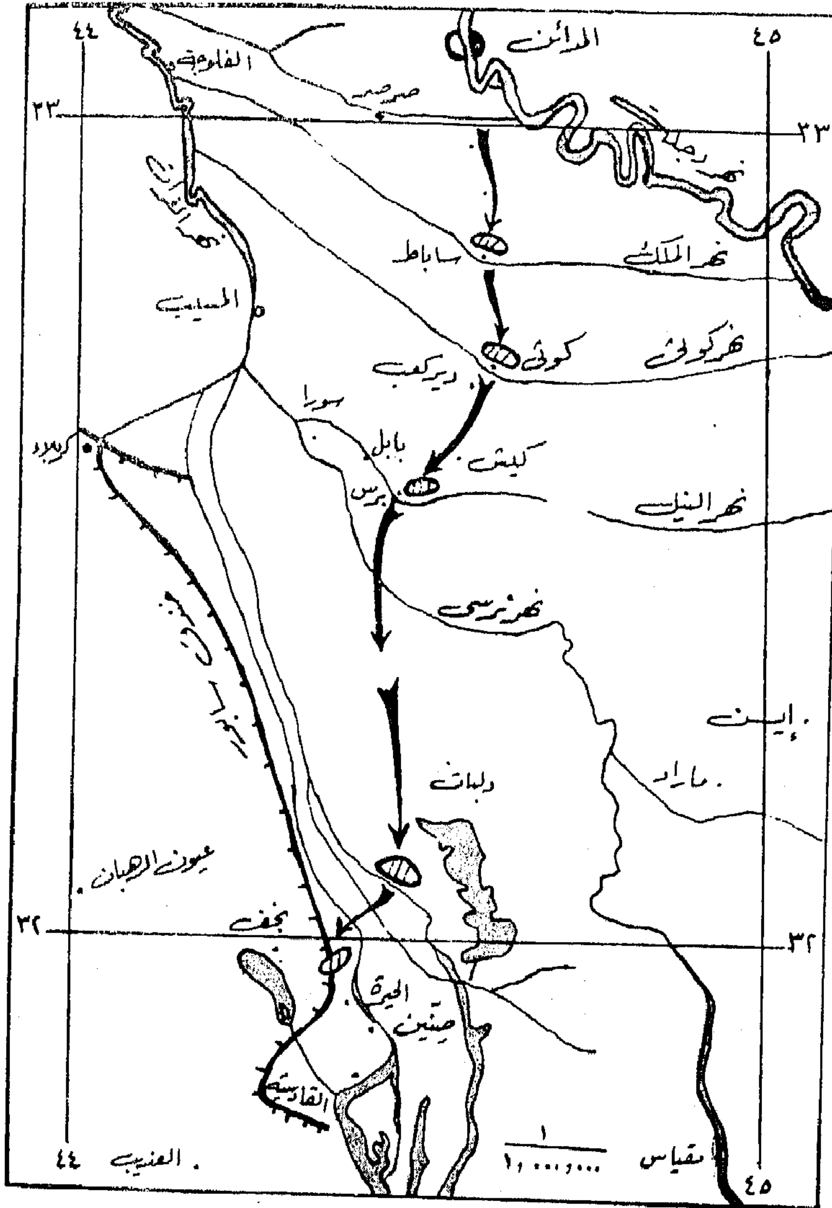
■ثم.. كانت الدولة العربية الاسلامية التي أقامها المسلمون بالمدينة، بعد الهجرة، هي سلاح العرب الأول الذي استطاعوا به مواجهة الخطر والتحدي، بل ومطاردة مصادر هذا الخطر وذلك التحدي، ومن ثم: فتح صفحة جديدة في تاريخ الشرق، أصبحت القيادة فيها للعرب، وليس للفرس أو الروم!..

فلقد توحدت القبائل العربية خلف قيادة هذه الدولة.. وبعد أن تأكدت هذه الوحدة على عهد أبي بكر الصديق (١١ – ١٣ هـ ٦٣٢ – ٦٣٤ م) أصبح في استطاعة الدولة العربية الاسلامية أن تتطلع إلى تحرير الأرض العربية الواقعة تحت سيطرة كل من الفرس والروم منذ قرون: العراق العربي في المشرق، والشام العربي في الغرب والشمال.. ولقد نهضت الدولة بهذه المهمة التحريرية على عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (١٣ – ٢٣ هـ ٦٣٤ – ٦٤٤م)..

■فمنذ أواخر عهد أبي بكر كانت المناوشات والمعارك قائمة بين العرب وبين الفرس والروم، ولقد استطاع الجيش العربي أن يحرز عدداً من الانتصارات في عدد من المواقع بجنوبي العراق – في الحيرة، والبويب – بقيادة البطل العربي المسلم المثنى بن حارثة الشيباني (١٤هـ ٦٣٥م).. وأن يحرز كذلك عدداً من الانتصارات، في فلسطين، أهمها الانتصار في أجنادين.

■لكن عهد عمر بن الخطاب هو الذي شهد الانتصارات الحاسمة، التي حررت العرب من الفرس والروم، وثأرت لتاريخ طويل أذلوا فيه العرب قبل ظهور الاسلام، وجددت شباب المنطقة، سياسياً وحضارياً، بفكر الاسلام.. ففي الوقت الذي فتح فيه انتصار العرب على الروم في موقعة اليرموك (١٥هـ ٦٣٦م) الباب لزحف عربي شامل حرر كل الشام، كان العراق

تحرك رستم



ينتظر هو الآخر معركته الحاسمة التي تقرر: لمن الغلبة؟ للفرس؟ أم للعرب المسلمين؟!..

فعرش فارس كان قد تولاه ملك جديد، هو يزد جرد بن شهريار (٦٣٢ – ٦٤٢م) وكان يدرك خطر اليقظة العربية القادمة لانتـزاع العراق من الفارسيين، فجمع كلمة الفرس على الاستعداد لاخماد هذه اليقظة قبل أن تحقق انتصارها الحاسم.. ومن ثم بدأت حشود الفرس العسكرية تضغط على الجيش العربي الذي يقوده المثنى بن حارثة الشيباني فارسل المثنى إلى عمر بن الخطاب يخبره ان كفة الفرس قد رجحت، ويطلب الامدادات.. وأضيف إلى الموقف عامل جديد، وهو مرض المثنى بن حارثة، مرضاً بدا أنه مرض الموت!.. وأدرك عمر بن الخطاب خطر المواجهة المنتظرة، والوشيكة، وأيقن أنها حاسمة في تاريخ طويل لصراع طويل!.. فعزم على أن يخرج بنفسه لقيادة المعركة التي وضح أن مكانها سيكون (القادسية) – (غربي النجف، وعلى بعد ثمانية عشر ميلاً ونصف الميل من مكان الكوفة)، فهي معركة حاسمة، يزيد من أهميتها أنها ستدور في مكان حاكم، فاما أن يفتح نصر العرب فيها الباب لتحرير كل العراق ومطاردة اركان النظام الفارسي الاقطاعي واما ان تفتح

هزيمتهم فيها الباب لاسترداد الفرس السيطرة على جنوبي العراق ومنطقة الخليج .. فالقادسية - كما قال الخليفة عمر - : «باب فارس في الجاهلية ، وهي أجمع تلك الأبواب .. وهي منزل رغيب خصيب حصين ، دونه قناطر وأنهار ممتنعة ! » ..

وبالفعل ، خرج الخليفة إلى موضع يسمى «صرار» ، على بعد ثلاثة أميال من المدينة ، في الطريق إلى العراق ، فأقام معسكراً ، وشرع يجري الاستعداد لتأليف جيش القادسية .. ولكن الصحابة أشاروا عليه بمخاطر قيادته المباشرة للجيش في ميدان القتال ، وطلبوا اليه البقاء في العاصمة وأن يقود المعركة أحد الصحابة من أبطال الغزوات والفتوحات المشهورين .. ورشحوا له سعد بن أبي وقاص (٢٣ق. م هـ - ٥٥هـ ٦٠٣ - ٦٧٥م) فهو أسد من أسود الحرب وعلم من أعلام الفتوحات ..

تحضير الجيشين :

ولقد نهض عمر ، ومعه ولاة الأقاليم ، وقادة الحاميات ، ورؤساء القبائل بتوجيه كل الطاقات لتجهيز الجيش .. فالفرس قد جمعوا جموعهم ، حتى بلغ تعداد جيشهم هناك مائة وعشرين ألف مقاتل ، اذا أضيف اليهم أتباعهم وخدمهم ومعاونوهم بلغوا مائتي ألف ! .. وهم قد حشدوا في هذا الجيش ملوكهم وحكام أقاليمهم وأبرز الأساورة وأمهر المقاتلين .. واستعانوا في هذا الجيش بثلاثة وثلاثين فيلا ، كي تفسد على الخيل العربية يقظتها وصمودها عندما يشتد القتال ! .. وجعلوا قيادة هذا الجيش الجرار لأبرز قوادهم : رستم بن الفرخزاد ، قائد الجيش الامبراطوري .. ورفعوا رايتهم الشهيرة (درفش كابيان) ، وكانت من جلد النمر مرصعة بالجواهر ، يستبشر بها الفرس ، ولا يرفعونها الا في الأمر الشديد ! .. ومن خلف هذا الجيش قامت المدن تقيم الحصون ، وتؤلف الجيوش ، وتجمع الامدادات ..

وأمام هذا التحدي اتخذ عمر بن الخطاب قراره ، فقال : «والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب ! » - فهي ، إذن ، مواجهة بين امتين وحضارتين ! .. وكل يستجمع لها أقصى مالديه من امكانيات .. وبعث عمر إلى مختلف أقاليم الدولة وولاتها أن «ينتخبوا ويختاروا جيش القادسية من خيار العرب » .. فكل قبيلة تقدم أبرز رؤسائها وأمهر مقاتليها وفرسانها وخير خيولها وأمضى سيوفها ، وكذلك تصنع القرى والمدن في مختلف الأنحاء .. بل لقد احتشد في هذا الجيش ، أيضاً ، أصحاب الرأي ، والشرف ، والسلطة ، والخطباء ، والشعراء ، والحكماء ! .. وضم عمر اليه أكثر من سبعين مقاتلا من الذين شهدوا غزوة بدر ! .. وأكثر من ثلثمائة من صحابة الرسول ! .. وسبعمائة من أبنائهم وثلثمائة من الأبطال الذين شهدوا مع الرسول فتح مكة ! .. حتى لقد أصبح هذا الجيش خلاصة الأمة العربية المسلمة .. وكتب الذين شهدوا جنوده عن المزايا التي تحلوابها ، فقالوا انهم لم يروا فيه من يتصف بصفة من ثلاث : الجبن ، أو الغدر ، أو الغلول - (اختلاس الغنائم والأموال) - ! ..

ولقد استغرقت عملية الحشد والانتخاب والاستعداد هذه ثلاثة أشهر ، عسكر أثناءها سعد بن أبي وقاص في (الثعلبية) على طريق مكة .. وعندما اكتمل له الاستعداد أوصاه الخليفة بأن يتبع سنة الرسول في المساواة بين الناس ، والوفاء بالأمان لمن طلبه من العجم ، وحذرهم من الغدر وعدم الوفاء بعهود الأمان .

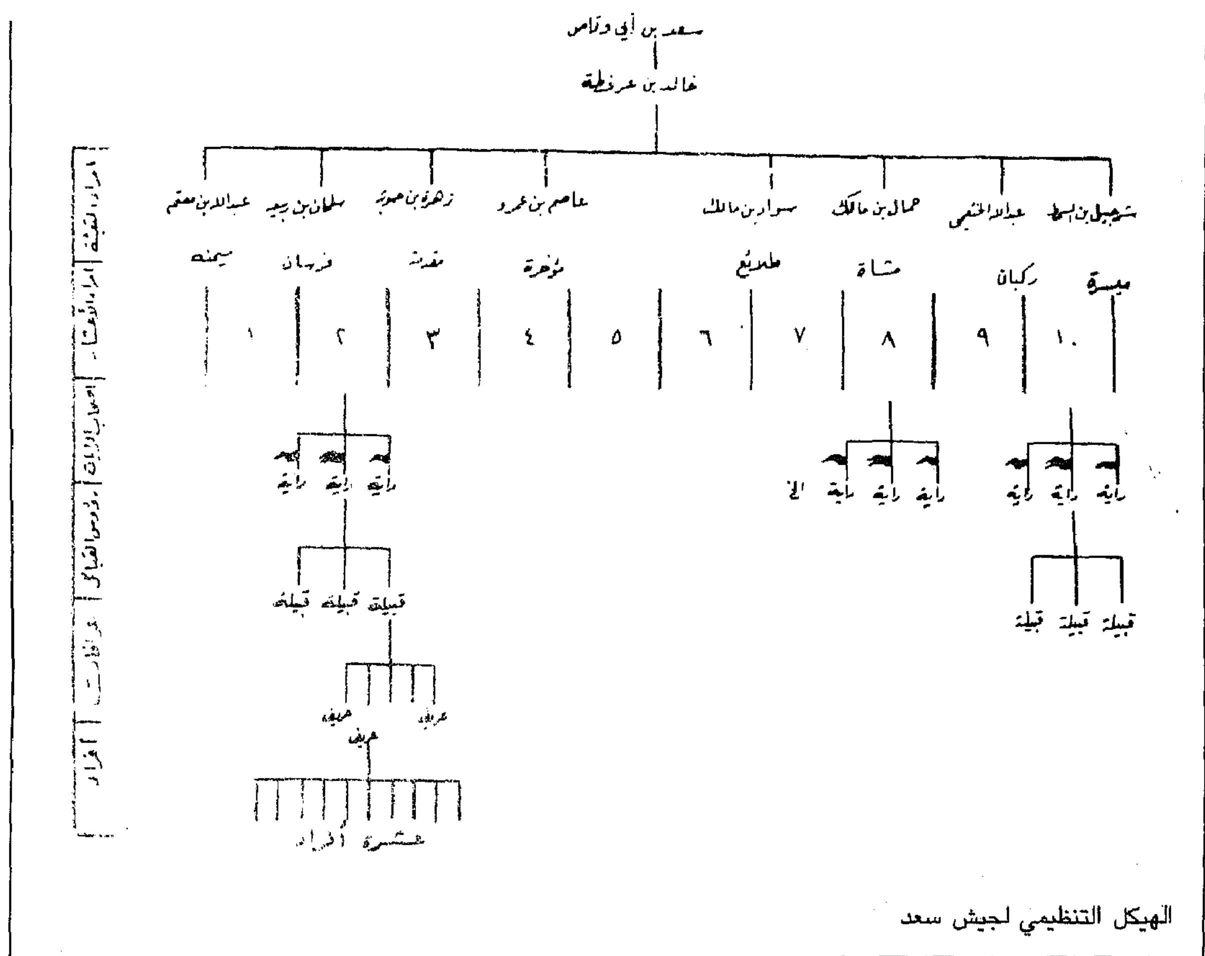
وزحف الجيش ، بقيادة سعد بن أبي وقاص ، إلى العراق ..

تنظيم الجيش العربي وقياداته :

وعندما اقترب الجيش العربي من مواقع الفرس ، كان المرض قد اشتد على المثنى بن حارثة الشيباني وقبل أن ينقلوه إلى منازل أهله حرص على أن يكتب إلى سعد بن إبي وقاص بخبرته في قتال الفرس ، ويقدم له مشورته حول المعركة المنتظرة ، ورشح له المكان الواقع بين القادسية ونهر العذيب معسكراً لجند المسلمين ..

وانضم جيش المثنى الى جيش سعد ، واصبح في هذا الجيش كثيرون من الأبطال الذين شهدوا ايام العرب ومواقعهم ضد الفرس حتى قبل ظهور الاسلام ! .. وانضم اليه كذلك عديد من فقراء الفرس ، دون ان يدخلوا في الاسلام ، وقبائل عربية كثيرة ، كانت ديانتها المسيحية ، فاصبح الجيش المسلم ، جيشا للعرب بأديانهم المتعددة ، بل وجيشاً لكل الثائرين على ظلم الفرس واستبدادهم واقطاعهم ونظامهم الطبقي القاسي والرهيب ! ...

وفي مواجهة المائتي ألف فارسي ، عسكر ، عند القادسية ، أكثر قليلا من ثلاثين ألفا ،



الهيكل التنظيمي لجيش سعد

تمثلت فيهم خلاصة العرب يومئذ، يقودهم سعد بن أبي وقاص !..

لكن الخليفة الذي كان يود أن يقود المعركة بنفسه، لم يكتف بما بذل في الاعداد لها من جهود في المدينة !.. فكان يخصص وقته من الصباح حتى منتصف النهار لجمع الأخبار عن جيش القادسية، وتحليلها ودراستها مع الصحابة والمشيرين.. وكان يتوق إلى الاسهام بالرأي في تفاصيل الاعداد للقاء الفرس وقتالهم مع قائد الجيش سعد بن أبي وقاص، لكن طبيعة ميدان المعركة وتضاريس أرض القتال ومواقع العدو وأنواع الأسلحة لم تكن معلوماتها متوفرة لديه، فكتب إلى سعد بن أبي وقاص يطلب منه أن يكتب له بكل مالديه من التفاصيل، حتى يضع أمامه صورة خريطة للميدان ومن فيه وما فيه، كي يتيسر له الاسهام بالرأي والتوجيه !.. وجاء في رسالة عمر إلى سعد: «.. أنه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به اليك: قلة علمي بما هجمتم عليه، والذي استقر عليه أمر عدوكم.. فأكتب إلى: أين بلغك جمعهم؟ ومن رأسهم (قائدهم) — الذي يلي مصادمتكم؟ وصف لنا منازل — (مواقع) — المسلمين والبلد الذي بينكم وبين (المدائن) صفة كأني أنظر اليها ! واجعلني من أمركم على جلية — (بينة) — ..» ... فكتب سعد إلى الخليفة بكل التفاصيل، وصف له المدن، والخنادق، والطرق، والجبال، والأنهار، والقادة، والناس، والسلاح.. الخ.. الخ..

وكانت المراسلات تتم يوميا بين الخليفة وسعد.. حتى لنستطيع أن نقول: أن عمر بن الخطاب قد أقام بالمدينة «غرفة عمليات»، ووضع أمامه فيها خريطة لأرض معركة القادسية، وجعل يضيف إلى هذه الخريطة يوماً بيوم كل ما يحدث على واقعها من تغيرات، وبذلك استطاع أن يسهم اسهاماً حقيقياً في قيادة القتال وهو على مسافة شاسعة من ميدان هذا القتال !..

فهو يكتب إلى سعد لينظم المقاتلين: عشرة، عشرة.. ولكل عشرة قائد.. وأن يعين الأمراء على: المقدمات، والميامن، والمياسر، والمجنبات، والساقات — (المؤخرة) — ، والطلائع، والمشاة، والفرسان الخ.. الخ.. ويحدد له ترتيب المقاتلين: فالأمير، يليه أمراء الجماعات

— (المقدمات، والميامن، والمياسر، .. الخ)، يليهم أمراء العشرة، يليهم أصحاب الرايات، يليهم رؤساء القبائل .. الخ .. الخ ..

وعندما تأتيه أنباء القتال بأسماء الذين أبلوا فيه بلاء حسناً، يرسل الجوائز: خيلا وسيوفاً إلى الفرسان المبرزين! .. فيشعر المقاتلون أن أمير المؤمنين معهم في الميدان! ..

ولم يكن الخليفة وحده هو الذي يعيش بكيانه وطاقاته تلك المواجهة الحاسمة بين العرب والفرس في القادسية، بل كانت معه في ذلك الأمة كلها .. حتى ليحكى المؤرخون أن الناس قد علقوا ثبات الدولة وزوالها على نتائج تلك المعركة، وأصبحت في كل بلد جماعة تخصصت في جمع أخبار القادسية وابلاغها إلى عامة الناس! .. بل لقد علق الناس الكثير من أمور حياتهم عليها «حتى أن الرجل كان يريد الأمر فيقول: لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية!» — كما يقول المؤرخون —:

كانت معركة مصيرية، حشدت لها الأمة خير ما عندها .. وتعلقت بنتائجها الآمال والأفكار والمصائر والمشاعر والقلوب! ..

قبل المعركة

وقبل ان يبدأ الصراع بأدوات القتال، بدأ بأدوات الفكر .. فلقد كانت للاسلام تقاليد مرعية: أن يبدأ المسلمون بدعوة عدوهم الى الاسلام او المسالمة، اولا ... فان ابى فالقتال .. وطلب الخليفة من سعد بن أبي وقاص رعاية هذه السنة، فبعث وفدا الى ملك الفرس يزدجرد، فلما دعوه الى الاسلام، غضب، وأمرهم بالانصراف، قائلا: لولا انكم رسل لقتلناكم! ... لكن رستم، قائد جيش الفرس، أرسل الى سعد يطلب منه ان يبعث اليه من يحاوره .. فذهب المغيرة بن ابي شعبة الى حيث يجلس رستم في خيمته على سريره الذهبي، وتقدم ليجلس الى جواره على السرير، فاستنكر الفرس ذلك، لمنافاته لنظامهم الطبقي الذي يجعل لكل طبقة مكانا محددا لا تتعداه! .. ومنعوا المغيرة من الجلوس على السرير، فحدثهم حديثا جذب الى العرب قلوب الطبقات الفارسية الفقيرة، واغضب الأثرياء والاقطاعيين والمستغلين .. قال لهم: «انا، معشر العرب سواء — (متساوون) — لا يستعبد بعضنا بعضا .. ولقد ظننت انكم تتساوون مع قومكم، كما نتساوى .. ولقد كان الأحسن — بدلا من ان تمنعوني الجلوس على سرير قائدكم — ان تخبروني أن بعضكم ارباب بعض؟! ان هذا الأمر لا يستقيم، ونحن لا نصنعه .. ولقد تيقنت الآن ان امركم مضمحل، فليس يقوم ملك على هذه السيرة، ولا على هذه العقول؟! ..» .. ولما سمع الفرس قول المغيرة، قال فقراؤهم: «صدق هذا العربي»! أما الأغنياء فتوجسوا خيفة من هذه البذرة الثورية التي بذرها في ارضهم، وقالوا: «والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون اليه! قاتل الله اسلافنا، ما كان احمقهم حين كانوا يصغرون من امر هذه الأمة العربية؟!» ..

ثم تحدث رستم الى المغيرة بمنطق ملوك الفرس مع عرب العراق قديما قبل ظهور الاسلام، فحدثه عن ان الفقر والحاجة هما سبب خروج العرب للقتال، وان باستطاعتهم ان يأخذوا لأنفسهم طعاما ولدوابهم اعلافا ويعودوا الى وسط شبه الجزيرة تاركين العراق في ايدي الفارسيين .. لكن المغيرة حدثه عن الاسلام، وما أحدثه في العرب من انقلاب، واسمعه كلمات القائد سعد بن ابي وقاص: «ان الله تعالى احيانا بالاسلام، وأحيا به قلوبا كانت ميتة، وأمات به قلوبا كانت حية!» ودعاه الى ان يكون مع الأحياء، فأبى، وتوعد المغيرة والعرب بالابادة عندما يرتفع ضحى الغد، وأقسم على ذلك بالشمس والقمر! .. فانصرف المغيرة وهو يقول: لا حول ولا قوة الا بالله! ..

ولقد تكرر الحوار بين الأمتين والحضارتين مرة اخرى، عندما خرج رستم يتفقد جنوده، وأرسل الى واحد من سادات العرب واشرافهم في الجاهلية، هو زهرة بن عبد الله بن الجوية التميمي — وكان قد لقى الرسول واسلم وجاء اليوم ليقاتل الفرس تحت قيادة سعد بن ابي وقاص — ارسل اليه رستم ليحاوره، فلقيه، ودار بينهما حوار تأكد للفرس من خلاله ان اخطر ما يهدد نظامهم ليس التوحيد الديني الذي جاء به الاسلام، ولكن: المساواة بين الناس! .. بدأ رستم الحوار:

— انتم جيراننا، وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا .. وكان لهم في ذلك معاش!.

— صدقت، لكن امرنا اليوم ليس كأمر اسلافنا، لقد بعث الله الينا رسولا، فدعانا فأجبناه .. وقال لنبيه، اني قد سلطت هذه الامة على من لم يؤمن بديني.

— وما هو هذا الدين؟

- شهادة ان لا اله الا الله، وان محمدا رسول الله، والاقرار بما جاء من عند الله.
- حسن! . وأي شيء أيضا؟
- والناس، بنو آدم وحواء، سواء. اخوة لأب وام!
- اما هذه فان اهل فارس منذ ان تولى عليهم الملك أردشير وحتى اليوم لا يتركون احدا من طبقة السفلة يخرج من نطاق طبقته، وذلك حتى لا يعادوا الأشراف!..
- لكننا لا نستطيع ان نكون كما تقولون!..

وهنا دعا رستم رجالات فارس، فعرض عليهم الفكر الاجتماعي الذي يبشر به الاسلام في المساواة بين الناس، فهاجوا وماجوا.. وصمموا على القتال!..

وكما عبأ رستم أشراف الفرس وأغنياءهم عندما خوفهم من فكر الاسلام الاجتماعي.. أخذ سعد بن أبي وقاص في تعبئة جنده، بتذكيرهم بتاريخ قومهم مع الفرس فيما قبل الاسلام، وبما لهم من ثأر، وبما للعرب من تقاليد في الشجاعة والفداء لا يرقى اليها الفرس مهما حشدوا وأعدوا.. ولقد ألف للتعبئة فريقا ضم أهل الرأي والنجدة والشعراء والخطباء.. فحدثوا الناس عن الاسلام الذي وحد العرب بعد التمزق ووالعداوات.. وعن المهمة التي تنتظرهم بفتح فارس كما فتح إخوانهم الشام.. وعن أن التنافس الحق والمشروع انما يكون في الجهاد.. وتحدث المؤرخون عن أن فريق التعبئة هذا كان يقرأ على الجند افكارا صاغها وسماها «سورة الجهاد»! .. ففعلت فعلها في قلوب المقاتلين حتى زاد شوقهم للقاء الأعداء!..

«أيام» المعركة:

واشتعل القتال بين الفريقين في معركة ندر أن سجل مثيلا لها تاريخ العرب في الحروب والفتوحات.. ودام اشتعال القتل والقتال عدة أيام:

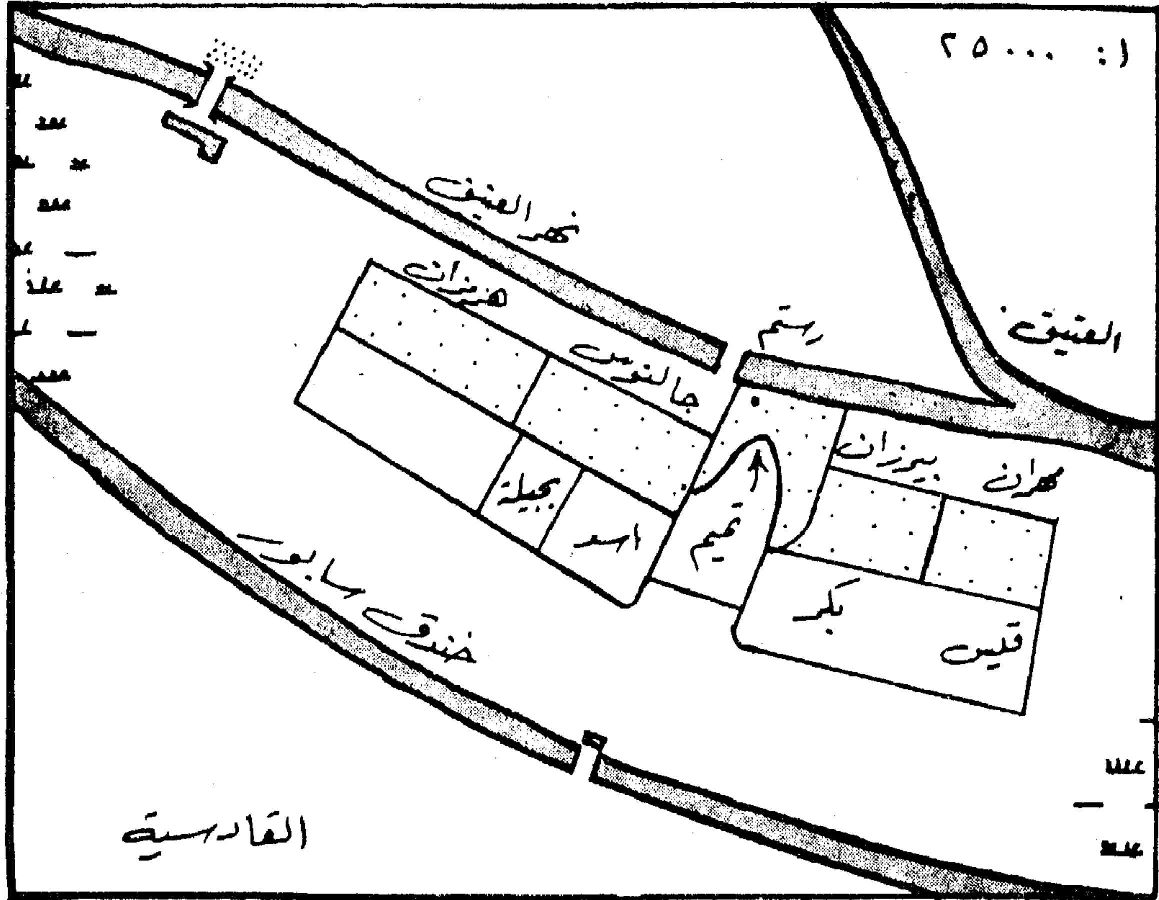
* ففي اليوم الأول - ويسميه المؤرخون (يوم أرماث) - هيأ سعد بن أبي وقاص جنده للقتال، بعد صلاة الظهر بنداء (الله أكبر).. كبر أربع مرات، وهم يرددون بعده التكبير.. وفي كل مرة يرفعون من درجة استعدادهم للقتال.. ولقد قال لهم: «إذا كبرت الرابعة شدوا النواجز على الأضراس، واحملوا وازحفوا جميعا حتى تخالطوا الأعداء»!.. ففعلوا، وبدأت المبارزة بين أبطال الفرسان..

وفي هذا اليوم لقى المسلمون من الفرس مكائد لم يتعودوها في القتال، وواجهتهم أسلحة لم تواجههم من قبل.. فالفرس قد زرعوا تحت أقدام خيل المسلمين المسامير!.. وربطوا خيلهم هم بعضها إلى بعض كي يمنعوها من الفرار!.. ثم دخلت الفيلة المعركة، على كل فيل تابوت به عشرون رجلا.. والخيل إذا رأت الفيلة، وقد توحشت من منظر الميدان وجو الحرب، أحجمت، ونفرت.. مما أدى إلى تفرق كتائب العرب الفرسان، حتى كادت بعض القبائل العربية - مثل بجيلة - أن تفني.. لكن سعد إبن أبي وقاص أسرع فأرسل من يتعلق بأذناب الفيلة، ويقطع أحزمة توابيتها، فسقطت التوابيت بمن فيها من الرجال، الأمر الذي أربك حركتها، وجعل يوم القتال الأول يمضي بخسارة في الصف العربي من الممكن تعويضها باستخلاص العبر والدروس!..

وحل الظلام، فتوقف القتال.. وكانت الليلة الأولى التي سماها المؤرخون (ليلة الهدأة) لهدوئها وخلوها من القتال!..

* وفي اليوم الثاني - ويسميه المؤرخون (يوم أغواث) - بدأ القتال منذ الصباح.. وكانت معركة للفرسان دامت حتى منتصف النهار، ثم زحف المشاة فالتحموا في القتال من منتصف النهار حتى منتصف الليل!.. وفي هذا اليوم دارت الدائرة على الفرس.. فالفيلة لم تشارك في القتال، لأنهم كانوا لا يزالون يصلحون لها التوابيت التي حطمها العرب بالأمس.. وأكثر من هذا فلقد ابتكر العرب سلاحا يشبه الفيلة! وذلك عندما صنعوا «هوادج» حملوها على ظهور الابل، وألبسوها كسوة مجللة مبرقعة، وحملوا على كل واحد منها عشرة رجال، وانطلقت هذه الابل بين صفوف الخيل الفارسية، فكانت تنفر منها الخيل، وتحاول الهرب من السلاح، فتحدث في صفوف فرسان الفرس من الارتباك أعظم مما أحدثته بالأمس الفيلة في صفوف الفرسان المسلمين!.

ولم تكن ليلة ذلك اليوم هادئة كيوم أرماث، بل كانت حافلة بالقتال.. ولذلك سماها المؤرخون «ليلة السواد»!.. وكانت حصيلة (يوم أغواث) قتل جمهور كبير من أعلام المقاتلين والفرسان في الجيش الفارسي.. حتى لقد بلغ



القادسية

قتلاهم وجرحاهم فيه عشرة آلاف !..

* وفي اليوم الثالث - ويسميه المؤرخون (يوم عماس) - استعد الفريقان للقتال، وكانت الأرض بين الصفين المتحفزين قد اصطبغت بالدم في مسافة بلغت الميل في الطول! وقال المؤرخون عن لونها أنه « كالرجلة الحمراء » !..

وبدأ القتال.. وأبصر المسلمون مدداً يأتيهم من إخوانهم الذين انتصروا على الروم في الشام.. وكان المدد يصل إلى أرض المعركة على دفعات.. مائة بعد مائة، فيشتد أزرهم، وتقوى عزيمتهم، وتزيد في النصر الآمال..

وكان الفرس قد أصلحوا توابيت الفيلة، وجاءوا بها إلى ساحة القتال، لكنهم أحاطوها بالحراس الذين يحرسون أحزمة توابيتها، ولقد أدى وجود هؤلاء الحراس من حول الفيلة إلى شل غرائزها المتوحشة لحرمانها من الانفراد والانطلاق، فضعفت فاعليتها في إرباك فرسان المسلمين.. وكان سعد بن أبي وقاص قد استعلم من الفرس الذين أسلموا وانضموا إلى الجيش العربي عن أنجح السبل في كسر شوكة الفيلة في القتال، فأخبروه أن مقاتل الفيلة في العيون والأشفار، فاختار من المقاتلين المهرة من اقتحم الميدان، فطعن الفيلين اللذين كانا يقودان باقي الفيلة في عيونهما وقطع مشافرهما، ففرا مسرعين، واخترقا صفوف الفرس، ومن خلفهما كل الفيلة، فأحدثوا ارتباكاً شديداً في صفوف الأعداء !.. ولم تتوقف الفيلة الهاربة إلا في عاصمة الفرس : (المدائن) !.

وانتهى (يوم عماس) بتكافؤ الفريقين في نتائج القتال.

* ثم كانت (ليلة الهرير).. وهي التي أعقبت (يوم عماس) - وفيها تصاعد القتال إلى ذروة لم يصل إليها من قبل.. حتى ليحكي المؤرخون أن صليل حديد آلات القتال وسيوفه

قد حاكى صوت صناع الأدوات الحديدية – (القيون – الحدادين) ! – وقاتل الجيشان حتى الصباح .. واستغرق الجنود في القتال حتى لقد منعهم عن الكلام ، وحل محل الكلام عندهم : الصوت الزاجر الذي يحاكي زئير الأسود .. والعرب تسميه « الهرير » ، ولذلك سموها (ليلة الهرير) ! .. ولقد بلغ تلاحم الجيشين في القتال إلى الحد الذي خفيت فيه معالم سير المعركة عن كل من رستم وسعد بن أبي وقاص .. حتى كان الصباح فعلم سعد أن كفة المسلمين كانت الأرجح على كفة الأعداء ! ..

* وأخيراً .. كان (يوم القادسية) .. ولم يفصل بين بدء القتال فيه وانتهائه في (ليلة الهرير) سوى ساعة ، استراح فيها المقاتلون ، وتهيأوا لاستئناف القتال ! .. فلما كانت ساعة الظهر من هذا اليوم أصبح النصر في متناول العرب ، فشقوا قلب الجيش الفارسي ، ووصل فرسانهم إلى حيث خيمة القائد رستم ، وكانت الريح العاصفة قد دخلت الحرب هي الأخرى ، فهبت واقتلعت الخيمة ! .. وحاول رستم الفرار ، فألقى بنفسه في نهر العتيق ، فطارده الفارس العربي هلال بن علفة ، فأمسك به ، وقتله .. ثم صعد على سريره الذهبي وصاح : قتلت رستم ورب الكعبة ! .. فكبر المسلمون ، شكراً لله وفرحا بالنصر ، وحملوا السرير وطافوا بفارسهم الذي قتل قائد الجيش الامبراطوري ، بينما كانت فلول الجيش الفارسي تعبر النهر هرباً ، يقودها ملك من ملوكهم اسمه « الجالينوس » ، مخلفة وراءها عشرة آلاف قتيل جديد ! ..

وكان يوم القادسية هذا يوم الحسم في المواجهة التي دارت على تلك الأرض بين دولة اقطاعية ذات نظام طبقي ظالم وفكر مثقل بالكهنوت والاستغلال ، وبين أمة شابة ، خرجت جيوشها لتحرر الأرض والانسان ، ولتجدد شباب الدنيا بعدالة الاسلام ومساواته وفكره الديني المتسامح والبسيط .

وبعد نصر القادسية هذا انفتحت أبواب فارس ، مدينة بعد مدينة وحصنا وراء حصن ، أمام العرب ، فتحوا (حلوان) .. و (المدائن) – عاصمة الفرس – ثم (جلولاء) .. وكلها مدن عربية ، في العراق العربي .. حرروها بعد أن ظلت في الأسر الفارسي عدة قرون ! ..

ولقد تغيرت بهذا النصر في القادسية – ومن قبله بنصر « اليرموك » في الشام – صورة الأمم ومراكز الشعوب في الشرق .. فمن قبلهما كان العرب مستضعفين تفترسهم المخاطر والتحديات ، وكانوا يقولون – كما يحكي المؤرخون – عن فارس : « فارس الأسد » وعن الروم : « الروم الأسد » ! أما بعد هذا النصر فلقد قالوا عن عرب ربيعة – الذين أبلوا في القادسية أحسن البلاء – : « ربيعة الأسد » ؟! .. فحدث التحول في مكانة العرب في التاريخ ، وأصبحت لهم القيادة في الشرق بدلا من الفرس والروم ! ..

صور خالدة من المعارك :

ولقد كانت ليوم القاسية صوره التي ذهبت نماذج في البطولات والفداء ..

* فالفارس العربي « أبو محجن الثقفي » كان معدوداً ومبرزاً بين الفرسان .. ولكنه كان عاشقاً للخمر ، يشربها ، رغم تحريمها في الاسلام ! .. ولقد نفاه عمر بن الخطاب من المدينة لشربه الخمر .. ثم التحق بجيش القادسية كي يشارك في القتال .. ولكنه عاد فشرب الخمر هناك ، فغضب منه سعد بن أبي وقاص ، وضربه ، وحبسه في قصره – « قصر العذيب » – فلما اشتعل القتال ، وحميت المعركة ، أبصر أبو محجن ، من محبسه ، ما يلاقي المسلمون من تفوق الفرس في العدة والعتاد ، فتاقت نفسه للجهاد ، فتوسل إلى « زبراء » زوجة سعد بن أبي وقاص أن تطلق سراحه ، وتعطيه فرس سعد كي يشارك في القتال ، وأقسم لها أنه سيعود بعد أداء دوره كي يضع قدميه في الحديد من جديد ! .. واستجابت « زبراء » لطلبه ، فاخترق أبو محجن صفوف الفرس ، وقاتل قتال الأبطال ، وحطم الفيل الأبيض الذي كان يقود الفيلة التي تحدث الارتباك في صفوف الفرسان المسلمين .. ورآه سعد بن أبي وقاص من موقع قيادته ، وتساءل ، حائراً : من هذا الفارس ؟ ثم قال : أما الفرس ففرسي ، وأما الحملة فحملة أبي محجن ؟! .. وبعد المعركة وجد سعد أبا محجن في محبسه وقيده ، لكن زوجته قصت عليه القصة ، فقال لأبي محجن : والله لا ضربتك في الخمر ، بعد ما رأيت منك ، أبداً ! .. فأجابه أبو محجن : وأنا ، والله لن أشربها أبد ؟! ..

* وشهدت ساحة القتال كثيراً من المقاتلين والفرسان يعرضون نفوسهم على الموت ، ويلحون الحاحا شديداً في طلب الشهادة ، وهم في خلال

ذلك ينجزون أخطر المهام ويصنعون في الحرب المعجزات !.. فأكثر من فارس قد اخترق صفوف الفرس وحواجزهم طالبا خيمة القائد رستم كي يجهز عليه .. و « علياء بن جحش العجلي » يتقدم كي يبارز من أبطال الفرس ، فيصيب كل منهما الآخر .. ويموت الفارسي من فوره ، لأن الطعنة قد أصابت رئته .. ويجاهد البطل ليدخل أمعاءه إلى بطنه فلا يستطيع ، فيستعين على ذلك بأحد المسلمين !، ثم يمسك جلد بطنه باحدى يديه وسيفه بالأخرى ، وبدلا من أن يرجع إلى صفوف المسلمين يتقدم كي يقاتل الأعداء !.. ثم يموت وهو ينشد متحدثاً عن الطعنة التي يعاني منها :

أرجو بها من ربنا ثوابا
قد كنت ممن أحسن الضرابا !..

* والمؤذن .. يقف على مرتفع من الأرض ليؤذن لصلاة الظهر فتصيبه الأعداء !.. لكن المسلمين ، بدلا من أن يستخفوا بالأذان ، يتسابقون كل منهم يريد أن يصعد إلى المكان المرتفع كي يتحدى سهام الفرس ويؤذن للصلاة !. حتى لقد أوشكوا ، من التنافس على ذلك ، أن يقتتلوا بالسيوف !.. ولم يجد سعد بن أبي وقاص غير « القرعة » سبيلا يختار بها من بينهم من له شرف الأذان للصلاة ، تحت مرمى سهام الأعداء !..

* والمرأة العربية .. لقد كان لها في القادسية دور كبير .. فسلمى بنت خصفة كانت زوجة للقائد المثنى بن حارثة الشيباني .. فلما مات تزوجها سعد بن أبي وقاص .. فوقفت إلى جواره وهو يقود المعركة .. وعندما رأت كفة الفرس قد رجحت - في بعض مراحل القتال - أخذت تستفز سعداً ، وتحرضه ، بل وتتحدث عن شجاعة المثنى التي تفتقدها فيه ؟!..

وهذه المرأة العجوز ، من بني النخع ، خرجت مع أبنائها الأربعة إلى ساحة القتال .. فحدثتهم عن اسلامهم الصادق ، وهجرتهم المخلصة .. وقالت لهم : إنهم خرجوا للجهاد ، ولم يخرجوا لجمع المال كما يفعل الجياع ، وأنهم بعد أن وضعوها - وهي العجوز - بين يدي أهل فارس ، فلا بد أن يقاتلوا قتال الأبطال الجديرين بأمومتها : « .. ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم !.. انطلقوا فاشهدوا القتال وشاركوا فيه من أوله حتى آخره !..»..

وعندما كان يغيب عنها أولادها لم تكن تجزع ، وإنما كانت تتوجه إلى الله بالدعاء : « اللهم ادفع الخطر عن بني ! » .. وكان الفرسان الأربعة يعودون إلى أمهم بنصيبهم من الغنائم فيلقونه في حجرها ، فتقسمه بينهم على نحو يرضي عنه ويسعد به الجميع !..

وبين جولات القتال ، وفي فترات الهدوء على ساحته كانت النساء العربيات ، ومعهن الصبيان يشدون الأحزمة على الثياب ، وتحمل النساء الهراوات ، ويحمل الصبيان أواني الجلد الصغيرة - (الأداوي) - المليئة بالمياه ، ثم ينزلون جميعاً إلى ساحة المعركة .. الصبية يسقون جرحى المسلمين ، والنساء ينقلن هؤلاء الجرحى لتمريضهم ومداواة جراحهم .. ثم يجمعون جثث الشهداء ويحفرون لها القبور ويوارونها التراب .

* * *

وأخيراً وصل البشير بأخبار نصر القادسية إلى عمر بن الخطاب فحمد الله على أن فتح للعرب باب فارس المنيع الخصيب !..

ووصلت الاخبار نفسها إلى يزدجرد بن شهريار ، في (المدائن) ، فقرر الهرب ، فدلوه من قصره ، سراً ، في « زبيل » - (قفة) - حتى سماه الناس « برزبيلا » ! - فهرب ومعه أمواله وأهله وكبار رجالات دولته !.. ذلك أن باب القادسية قد فتح أمام العرب كل الأبواب .. حتى لقد قال الفرس بعضهم لبعض عندما أبصروا خيل العرب تسبح الأنهار وتصعد الجبال : « والله ما تقاتلون إلا جنا ! » فانهزموا - بالرعب - بعد أن انهزموا بالقتال !..

وكان لا بد أن ينهزموا بعد أن واجهوا في القادسية فرساناً ومقاتلين أصبحت الشهادة عندهم أحب من الحياة ، حتى لقد غدوا يلحون في السعي للاستشهاد ، بل ويودون أن لو كانت لهم أجنحة الطيور لتسرع بهم إلى لقاء الأعداء ..

تحن بباب القادسية ناقتي
وسعد بن وقاص على أمير
تذكر ، هداك الله ، وقع سيوفنا
بباب قديس والمكر عسير
عشية ود القوم لو أن بعضهم
يعار جناحي طائر فيطير !

■



تأسيس بغداد

د. سهيل زكار

استاذ التاريخ الاسلامي في جامعة دمشق.

تاريخ العرب والعالم – ٢٠

تاريخ الاسلام: تاريخ المدن:



يخيل لكثير من النـــاس ان الدين الاسلامي - بمحكم قيامه في شمال شبه جزيرة العـرب هو دين بدوي، يصلح لحياة البداوة، وان الرسـول محمدا كان نصف بدوي. إن هذا الكلام ليس له اية قيمة علمية، لأن الاسلام نشأ أولا في مدينة مكة حيث ولد الرسول وعاش حياتــه الأولى إنسانا عاديا ثم نبيا، وحين ترك مكة هاجر إلى المدينة «يثـرب» وهنــاك أقـام نواة الأمــة الاسلامية، وأسس أول دولة في تاريخ الاسلام، كانت أول دولة ذات نظام مركزي في تاريخ عرب شمال شبه الجزيرة، كما أن الذين تحملوا اعباء نشر الاسلام وتوسيع رقعة دولته كانوا جميعاً من أهل العراقة في سكنى المدن، ومن ينظر إلى العبادات وما يرتبط بها في الاسلام، يحكم بان هذا الدين دين مجتمعات مستقرة، وحين يتفحص المرء تاريخ الاسلام يجد ان هذا التاريخ قد صنع داخل عدد من المدن، وكانت صلاته بالأرياف ضعيفة، وربما كانــت هذه احدى الثغرات الكبيرة فيه، فتاريخ بني أمية مثلا يجعلنا مربوطين إلى عدة مدن: كالكوفة والبصرة، والفسطاط والقيروان ودمشق، وتاريخ الدولة العباسية هو في كثير من جوانبه تاريخ لمدينة بغداد، وحــين انحـل عقـد الدولــة العباسية، صار تاريخ الدول التي انفصلت عنها هو تاريخ المدن التي صارت مراكز لها، مثل غزنة والقاهرة وحلب والموصل.

وفي المدن وجدت مراكز الادارة والأسواق والمصانع وفيها وجدت ايضا المساجـد ودور الثقافة والتعليم.

وقد كان للفتوحات الاسلامية، نتائج هامة على أحوال المدن، فقد رفعت هذه الفتوحات من شأن عدد من المدن القديمة، بينما انخفضت قيمة بعض المدن الأخرى، ففي بلاد الشام على سبيل المثال - علا شأن دمشق وقلت قيمة القدس وأنطاكية، كما تحولت حلب من مدينة ثانوية إلى مدينة بالغة الأهمية.

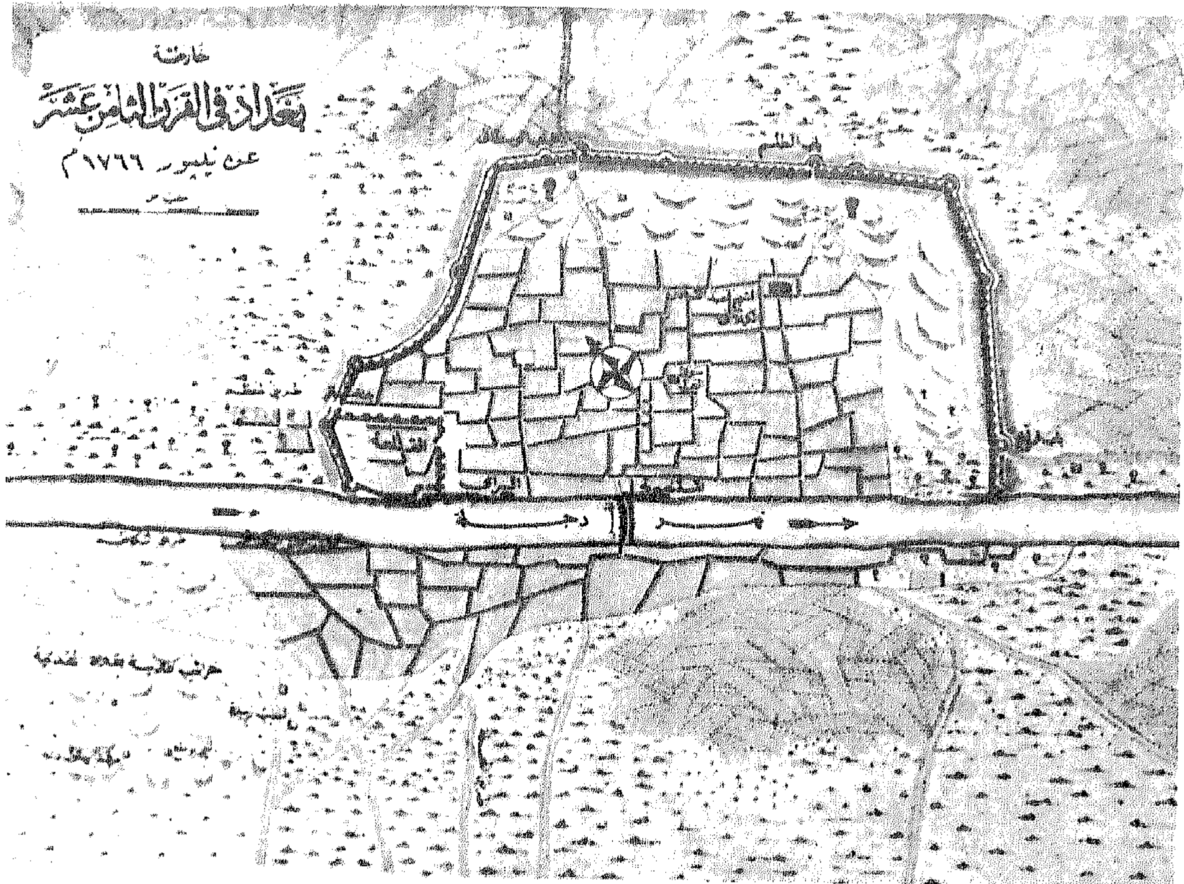
وحــين سكن المسلمــون في بعض المدن القديمة، فعلوا ذلك مع مواشيهم وخيولهم، هذا ولا نعلم بشكل مؤكد كيف تمت سكنى العرب الفاتحين في المدن القديمة: هل نزلـوا على السكان القدامى وشاركوهم بيوتهم، ام اتخذوا احياء خاصة بهم أخليت لهم، أم الحالتين معاً؟

لكن مهما كان الحال فان سكناهم واستمرار هجرتهم من شبه الجزيرة سبب اكتظاظاً شديداً في المدن، ذلك أن المدن القديمة كانت محدودة الرقعة لأنها كانت محاطة بالأسوار، وفي هذه المدن لا نعرف هل توفرت أنواع من الخدمات البلدية أم انعدمت، لكن الذي نعرفــه من المصادر أن أحوال المدن الصحية كانت رديئة، وتاريخ بلاد الشام في العصر الأموي فيه الكثير من أخبار موجات الأوبئة، وقد ظلت الأوبئة تجتاح المدن والأقاليم الاسلامية لفترات طويلة.

ونظراً لاكتظاظ المدن، ولأن معظم السكان من العرب كانوا جنداً يتغيبون في المغــازي ولأسباب أخرى بشرية وعقائدية فقد تعرضت المدن الى مشاكل اجتماعية كثيرة كان يصعب حل بعضها، ومما تجدر ملاحظتــه في هذا الصــدد ان الدراســات الاجتماعيــة، وكذا الاقتصادية لم تأخذ مكانها بعد بشكل مخصص ومتعمق في نتاج الدراسات التاريخية القائمة لماضي الاسلام والعرب. وعلى الرغم من بالغ اهمية دور المدينة في صنع التاريخ الاسلامي، لم يعرف العرب ولا المسلمون شرائع وقوانين خاصة تتعلق بسكنى المدن، كما لم يعرفوا حقوق المدينة، ولم يقم في تاريخ العرب حكم دول المدن، كما حدث في تاريخ روما ومدن اليونان.

وكانت المدينة في تاريخ الاســلام ثكنــة للجيش، ومقراً للحكومــة، ومـركزاً للنشــاط الاقتصادي، ورغم أن عدد المدن التي أقيمت في تاريخ الاسلام كبيرة فنادراً ما حملت إحداها اسم بانيها، كما انها لم تحو مراكز عامة كالمسارح والساحات العامة، وأمــاكن اللهــو والنزهة، أو الشوارع العريضــة المستقيمــة، وكانت البيوت متلاصقة في البناء، لذلك كان وقوع اي حريق في بيت من البيوت يسبب كوارث كبيرة ذلك أن الحريق كان ينتقل من مكان إلى آخر بسهولة.

وتم انشاء المدن الجديــدة في البدايــة كمعسكرات للجند الذين كانوا ينتسبون إلى عدد من العشائر والقبائل، وكانت هندســة هذه المعسكرات تشابه مضارب البدو مربعة الشكل ومتلاصقــة البيــوت، وحــين تحولــت هذه المعسكرات إلى مدن تحولت بيوت الشعر والخيم إلى بيوت في غاية البساطة، وكانت البيوت بلا ابواب، مسقوفة بجذوع النخل أو القصــب،



خارطة بغداد القديمة في القرن الثامن عشر مأخوذة من نيبهور

مفروشة الأرض بالرمال، وكان سكان المدن الجديدة من المقاتلة، غالبيتهم أهل ديوان يأخذون رواتب سنوية بين ٢٠٠ – ٢٥٠٠ درهم.

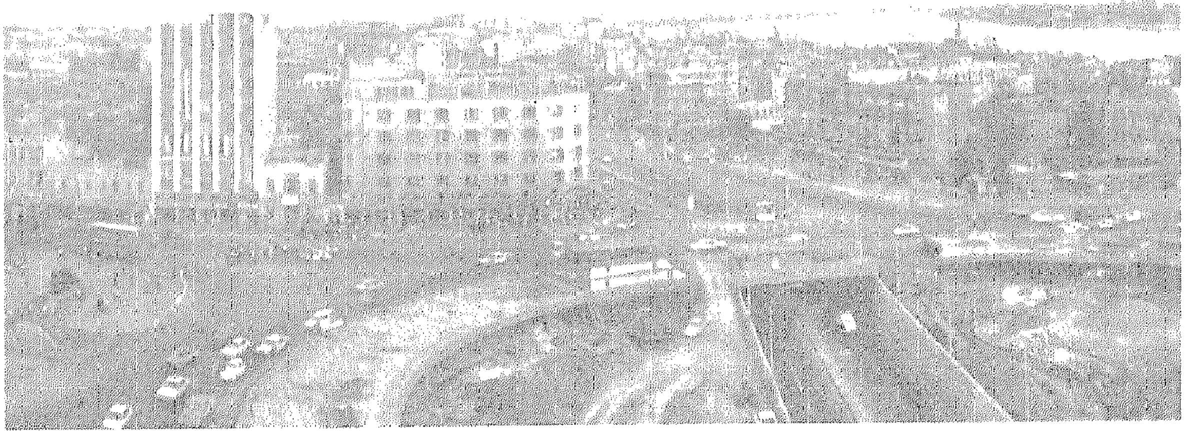
بناء بغداد:

والآن بعد هذه المقدمة الموجزة، التي كان لا بد منها سنشرع في الحديث عن بناء بغداد:

قيل لرجل: كيف رأيت بغداد؟ قال: الأرض كلها بادية، وبغداد حاضرها، ووصف بعض الأدباء بغداد فقال: هي سهلية جبلية برية بحرية، صيدها غزير، وخيرها كثير، طيب هواؤها، دائم رخاؤها وفضلها على سائر البلدان كفضل ماء الأنهار على ماء البحار... هي محل الخلفاء ومسكن الوزراء، ومأوى بني هاشم والأبناء، ومقرهم ودارهم في الشدائد والرخاء، الواسعة الدور، الكثيرة القصور، الغزيرة الأنهار، المرية العيون، صحيحة البناء، رحبة الفناء، نزهة الهواء، رفيقة بالغرباء، مواتية لكل من أتاها، مغيثة لمن استغاث بها، قديمة الصحبة، طيبة التربة، مسكن من تغنى، ومعقل من تنسك، بناها المنصور، وسكنها المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون، جنة من جنات الدنيا، دجلة في وسطها، الفرات عن يمينها، ونهر الملك أمامها، ونهر عيسى مفترق لها، ونهر كرخايا يتخلل طرقاتها، ونهر الخندق دائر بها، قد جمع الله فيها ما فرقه في غيرها من البلدان من أنواع التجارات وأصناف الصناعات.

* * *

حين اتخذ العباسيون من العراق مقراً لدولتهم أخذوا يبحثون عن عاصمة لهذه الدولة، رغم ان العراق كان فيه عدد كبير من المدن مثل الكوفة، والمدائن والبصرة والأنبار فلقد رأى العباسيون ان أيا من هذه المدن لا يصلح ان يكون مقراً لدولتهم وعاصمة، ذلك ان البصرة، لا تملك الموقع المناسب، وهي منذ معركة الجمل قد أخذت صفة الانحياز للعثمانية – عثمان بن عفان – والكوفة كانت مقراً لعلي بن أبي طالب



بغداد الحديثة

وعاصمة له، وصبغت دائماً بالصبغة الشيعية، فهي على هذا معادية للعباسيين وريثة لعدد لا يحصى من المشاكل، وكانت المدائن عاصمة الامبراطورية الساسانية قبل سقوطها، وقد أنقص الفتح العربي من قيمتها، ثم ان سكانها كانوا من الفرس، ولقد اتخذ العباسيون في البداية الأنبار عاصمة لكن لفترة قصيرة حيث تبين أنها غير صالحة لتكون عاصمة دائمة.

ويلاحظ أن العباسيين منذ ان قامت دولتهم أخذوا في البحث عن موقع مناسب لاتخاذه عاصمة، فهذا السفاح يختار لفترة من الزمن موقعاً قرب واسط عاصمة العراق منذ أيام الحجاج، وقد بنى في هذا الموقع مدينة دعاها بالهاشمية، لكن رغم هذه التسمية ظلت المنطقة تحمل اسم واسط القصب، أو واسط الحجاج.

وفكرة التدوير في البناء والمدن ليست جديدة في حد ذاتها، إنما هي جديدة في تاريخ الاسلام، والحقيقة ان بغداد لا تنفرد بخطتها في التدوير، إنما تمتاز بكونها أول مدينة تنشأ في الاسلام حسب خطة مدروسة مسبقة، خلافاً للمدن التي أسست قبلها، والتي كانت بداياتها معسكرات جند ثم تحولت إلى مدن ثابتة.

أمر المنصور بجمع مواد البناء من كافة مناطق دولته، كما أمر بحشر رجال البناء والمهندسين وذوي الشهرة من شخصيات دولته حتى يقوموا بالاشراف على العمل ويشاركوا فيه، ويروى بأن أبا حنيفة الفقيه المشهور، مؤسس المذهب الحنفي كان بين هؤلاء، وأمر المنصور بتسوية الأرض التي اختارها، ثم وقف في وسطها «وأمر أن يوتد هناك وتد، وأخذ حبلاً فمده على المقدار الذي اراد أن تكون استدارتها، ثم أمر بطرح الرماد فطرح، ثم نقص من مقداره أربعين ذراعاً ثم أدار خطاً آخر، وجعل بين الخطين الخندق، وجعل فتحته أربعين ذراعاً، ثم عمل السور الذي خلف الفصيل وعرضه من أسفله ثمانية عشر ذراعاً وعرض أعلاه ستة أذرع، وجعل على ذراع منه مما يلي الخندق الشرفات، فصار الباقي خمسة أذرع، ويمشي عليه الناس»

وهذا يعني ان المنصور خطط أولاً الخندق

وعندما فرغ من رسم العلامات على الأرض بذر الرماد، أمر بالنفط فصب على الرماد، وعندما حل المساء، أمر بالنار فطرحت، وعندما التهبت جميع الأماكن استطاع المنصور أن يتخيل مدينته وهي مبنية وقبل ان يضع حجر الأساس، أمر فأخذ له طالع المدينة، وكان مشجعاً للغاية.

وحين ننظر إلى خطة المنصور، نجدانها كانت خالية من الأسواق والأماكن العامة والحدائق وغير ذلك، وسيكون لهذا أثره على تطور المدينة فيما بعد.

وجعل المنصور لمدينته أربع بوابات كانت: باب خراسان، وباب الكوفة، وباب الشام، وباب البصرة، وشرع في العمل في بناء المدينة سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢ م، لكنه اضطر إلى ايقاف العمل فيها بسبب خروج محمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم عليه، وبعدما قضى على ثورتيهما، استأنف العمل في المدينة، وبعد سنة وثمانية أشهر أنجزت أعمال البناء، ويروى انه أنفق عليها ١٨ مليون درهم.

وبعدما وصل المنصور إلى سدة الخلافة قرر بناء عاصمة جديدة للدولة في موقع ينبغي ان تتوفر فيه الصفات التالية:

١ – الشروط الصحية

٢ – الصفات الاستراتيجية العسكرية والاقتصادية والزراعية والتجارية.

٣ – اتساع الرقعة وانبساطها.

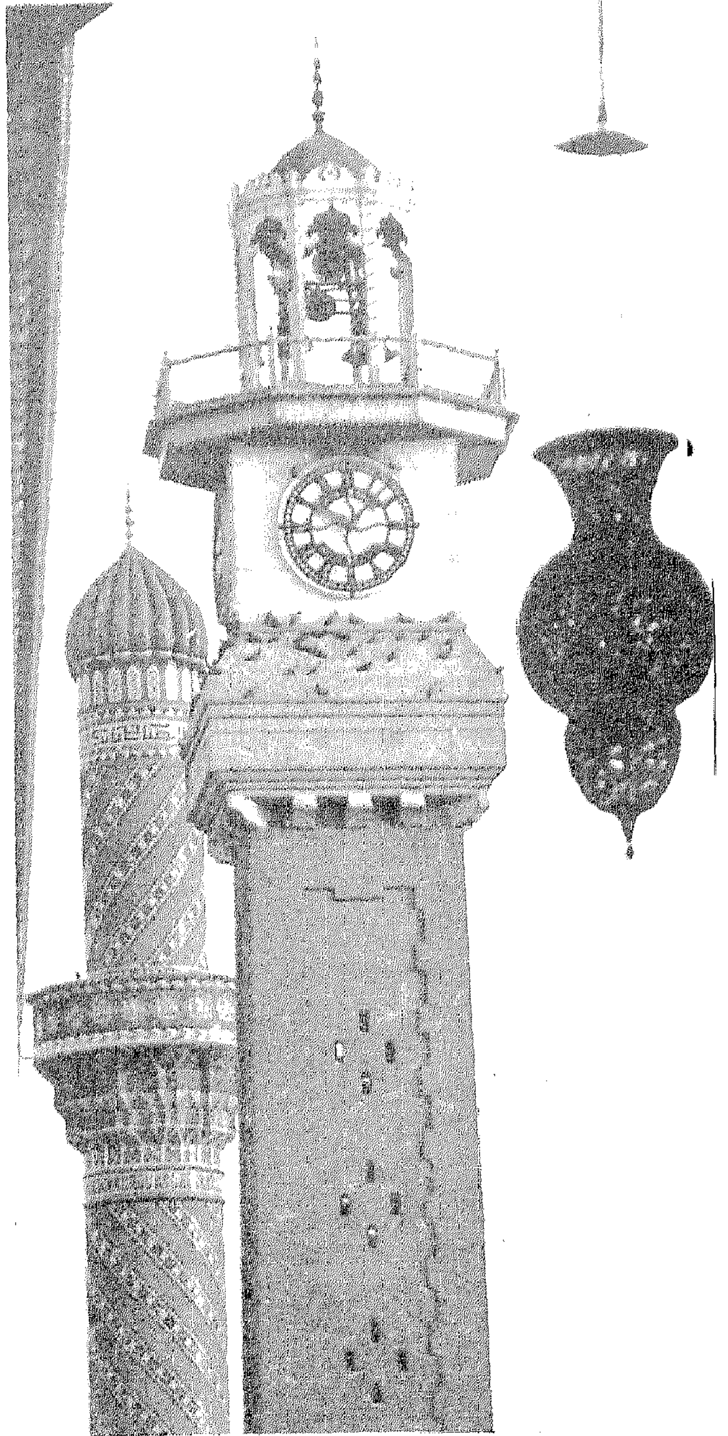
٤ – القرب من الماء.

٥ – سكان كثر وموارد كافية.

٦ – يمكن الوصول إليه بالبر والماء

٧ – صالحاً لاقامة نواة الأمة العباسية الاسلامية، وذلك بان يكون جديداً غير مسكون من قبل.

وأخذ المنصور يرتاد المواقع في العراق، وينتقل من مكان إلى آخر، وأخيراً وفق بالوصول إلى مبتغاه فحين كان مسافراً بين الكوفة والمدائن، بات ليلته في أحد المواقع فأعجبه، وسأل عنه، وسأل عن الأرض وهوائها ومناخها فتلقى من الأجوبة ما شجعه، وجعل يعزم على اختيار ذلك الموقع، فقرر اقامة مدينته الجديدة هناك، وكان ذلك الموقع يعرف باسم بغداد، أي «هبة الله» كما جاء عند ابن الفقيه الهمذاني، وهذا الموقع كان معروفاً منذ ما قبل الاسلام، حيث وجدت فيه بعض القرى والديارات، وقد ورد ذكره في



المئذنة والجرس ... معاً

عرضه اربعون ذراعاً، وجاء على طرف الخندق سور، ثم جعل خلف السور فيصل، اي سور عريض قليل الارتفاع، ثم سور ثالث، ثم خطط لأبنية المدينة، وخطط في الساحة الباقية لقصره ومسجده، وترك حولهما ساحة فارغة تفصل بينهما وبين أبنية المدينة الأخرى.

أخبار الفتوح، حيث هاجمه المثنى بن حارثة الشيباني أيام أبي بكر الصديق.

وبعدما قرر المنصور بناء مدينته في موقع بغداد رأى من الضرورة الشروع أولا بوضع خطة لبناء المدينة وبعد اعتماد الخطة استجلاب المهندسين ورجال البناء والعمال ومواد البناء والأثاث.

يبدو أن المنصور هو الذي وضع خطة مدينته وقام المهندسون بتنفيذ ارادته، ولعل هذه القاعدة قد قامت أثناء بناء غالبية المدن الاسلامية، اي ان وظيفة المهندسين كانت تنفيذية ولم تكن تخطيطية.

لقد أراد المنصور مدينته أن تكون مدورة، وذلك ليسهل الدفاع عنها، فهو كان يخطط لبناء مدينة يسكنها هو ورجال ادارة دولته وقيل أن مرد ذلك إلى وراثة عن الساسانيين، وقيل ايضا غير ذلك، وإنما ذلك كله غير مقنع تماما، ويبدو أن سبب التدوير كان سببا عقائديا دينيا بحتا، فالمنصور كان يرى نفسه خليفة الله في أرضه وظله، وإماما للمسلمين، تدور حوله أمور حياتهم ودينهم ودنياهم، كما كان من السائد في عصره أفكار جغرافية فيها أن الأرض تقسم إلى سبعة اقاليم أفضلها الاقليم الرابع والعراق ليس من الاقليم الرابع فقط، بل أرض بابل منه، حيث موقع بغداد، في القلب، وأرض بابل بالنسبة للأرض مثل السرة بالنسبة للجسد.

وجاءت مدينة المنصور هذه على الطرف الغربي لنهر دجلة لكن بعيدا عن شاطئ النهر نفسه، وجعل المنصور لقصره قبة عالية خضراء كانت تشاهد من بعد وجعل في أعلاها فارسا بيده رمح يشير به إلى اتجاه الرياح، وقد انهارت هذه القبة مع انهيار حكم الخلفاء، فانهار بانهيارها مجد بني العباس.

لا شك ان أعمال البناء قد استغرقت وقتا طويلا، كما ان عدد العمال الذين استخدموا جاوز المئة ألف عامل، ولا شك أن المواد الأولية التي استخدمت كانت كثيرة، كما أنه قد أقيمت معامل لانتاج مواد البناء. وكان هناك حاجة إلى مساكن للعمال وأسواق، كما وجدت حاجة لوجود رجال ادارة مع حامية كبيرة من الجند تسهر على الأمن وتقوم بحراسة المواد الأولية، وتشرف على تنفيذ أعمال البناء، وطبعا كان هناك معسكر لهذه الحامية.

ومن هنا نلاحظ انه في الوقت الذي كانت تبنى فيه مدينة رسمية للمنصور بني على الأقل مدينتان غير رسميتان، واحدة للعمال والثانية للجند، ويبدو ان العمال سكنوا في منطقة عرفت بالكرخ، كما سكن الجند في منطقة أكثر رقيا عرفت بالحربية، هذا وعندما تتطور بغداد سيكون للكرخ دور كبير في تاريخ الحركات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية المتطرفة في بغداد. ولم يمنح المنصور المدينة الجديدة اسمه بل سماها دار السلام، وهي تسمية مشتقة من أسماء الجنة وصفاتها، لكن رغم هذا فقد غلب عليها اسمها القديم «بغداد» وبعد فترة من الزمن اضطر المنصور إلى جلب المياه إلى مدينته، كما أخذ الناس يبنون على طرف النهر الغربي ثم قطعوه إلى الطرف الشرقي. هذا ومن يتتبع تطور بغداد يجد أن هذا التطور قد خالف السنن المعروفة في توسع المدن وتطورها، فالمدن تتوسع من الداخل إلى الخارج، أو من المركز إلى الأطراف، أما بغداد فقد توسعت من الخارج نحو الداخل.

لقد سكنت بغداد حين أقيمت من قبل عناصر من مختلف مناطق الدولة، وعلى هذا تم في بغداد صنع نواة مجتمع جديد طالما نشد العباسيون إقامته أثناء إعدادهم لثورتهم، ولا شك أن نجاح المنصور في إقامة مدينته بسرعة وجدارة يدل على ضخامة طاقات دولته، وعلى انها ملكت ادارة راقية وذات كفاءة. ■

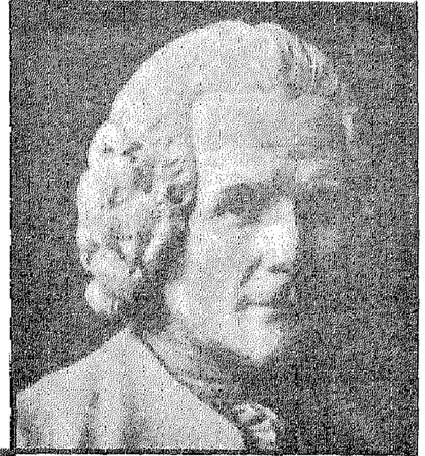


● دعني اضع للبلاد أغانيها ولا يهمني بعد ذلك من يضع لها قوانينها.

حكمة قديمة

فلسفة التنوير

تحديد شروط العلاقة بين الحاكم والمحكوم في القرن الثامن عشر


روسو

د. محمد مخزوم

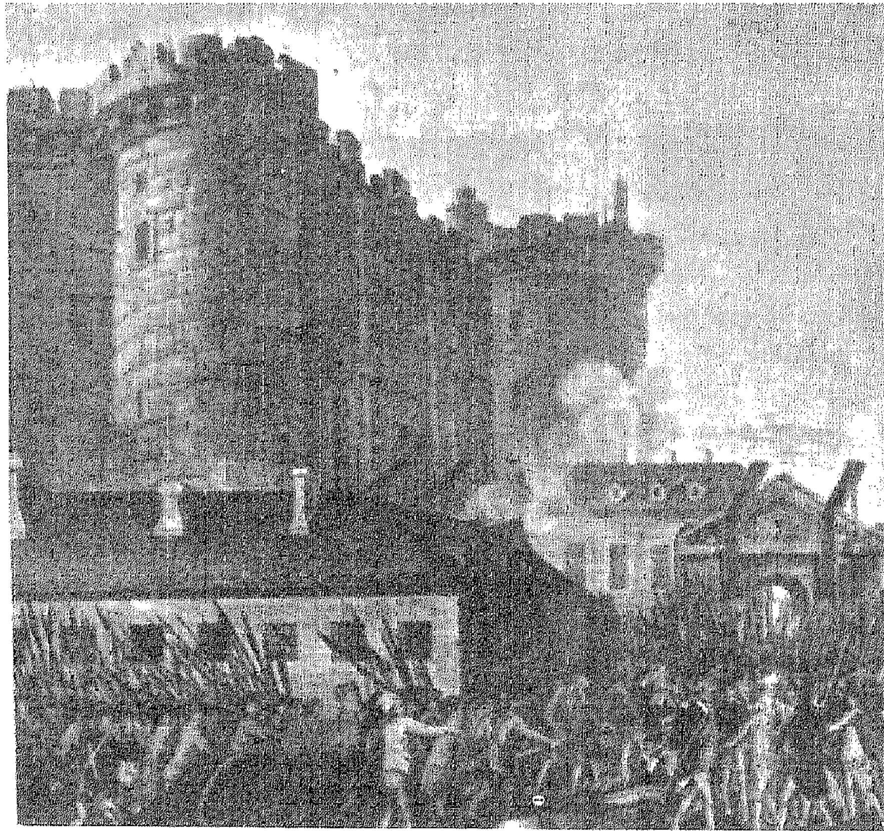

فولتير

ديديرو


مونتسكيو



تاريخ العرب والعالم – ٢٦



سقوط الباستيل في ١٤ تموز ١٧٨٩ يحقق آمال فلاسفة التنوير

تبوأت فرنسا في القرن الثامن عشر مكانة عظيمة في عالم الفكر بفضل عدد من الفلاسفة مثلت فلسفتهم مصالح ومتطلبات الأغلبية العظمى من المجتمع الفرنسي. اذ ان انتقادات هؤلاء الفلاسفة لم تقتصر على المسائل الدينية فقط، بل شملت النظام القديم الذي يقوم على نظرية الحق الالهي واستبداد الملكية ومؤسساتها السياسية. فطالبوا بالتسامح الديني والمساواة الاجتماعية واقامة العدل والمحافظة على حقوق الانسان الطبيعية المتجسدة في الحرية وحق التملك المقدس، كما طالبوا باحلال سيادة العقل محل التسلط والتقليد وميتافيزياء القرن السابع عشر، معتبرين العصر الوسيط مرحلة انقطاع حضاري للبشرية. وهكذا خاض فلاسفة القرن الثامن عشر الفرنسيون معاركهم ضد السلطة على أرضية سياسية بحتة بعد ان تجاوزوا الصراع الديني الذي اتخذوه في القرن السادس عشر سلاحا لهم ضد الاقطاعية الدينية والارستقراطية(١).

وان كانت فلسفة التنوير قد تحدرت من الفلسفة الديكارتية الا انها تدين بمنهجها وجوهرها الى فلسفة لوك وواقع الحياة الانكليزية ايضاً. فبينما تنتمي فلسفة لوك الى القرن السابع عشر في انكلترا فانها تنتمي في فرنسا الى القرن الثامن عشر. وفي حين مثلت في فرنسا، ما قبل الثورة، هجوما على المصالح الاقطاعية نراها في انكلترا، بعد الثورة المجيدة، تنتصب دفاعا عنها(٢). ومع ذلك فقد تجاوز الفلاسفة الفرنسيون معلمهم لوك وجعلوا من القرن الثامن عشر قرنا فرنسيا لا جدال فيه.
«وثمة اسباب اجتماعية، فضلا عن السياسية، اعطت الفلسفة السياسية الفرنسية نغمة من المرارة ليس لها نظير في فلسفة لوك. كان المجتمع الفرنسي نسيجا من امتيازات جعلت الانقسام بين الطبقات اشد وعيا، وأكثر استفزازا ان لم يكن اكثر واقعية، منه في انكلترا. وكان رجال الدين لا يزالون يملكون نحو خمس اراضي فرنسا بالاضافة الى دخل طائل وامتيازات واعفاءات جوهرية، ولكن بلا تفوق اخلاقي أو فكري يبرر مركزهم، وكذلك كانت طبقة النبلاء تتمتع بامتيازات بلا سلطة سياسية او زعامة(٣)».

امتازت فلسفة التنوير هذه بعدة مميزات رئيسية اهمها:

١ – انها كانت عالمية النزعة، تخطت الحدود الجغرافية لانطلاقتها، فتجاوزت بذلك التعصب القومي والتزمت الاقليمي اللذين سادا اوروبا في تلك الحقبة.

٢ – انها مجدت الانسان وكانت ذات نزعة فردية خالصة باعتبارها الفرد محور المجتمع المدني .

٣ – انها كانت معادية لهيمنة الكنيسة ومفاسد بعض رجال الدين .

٤ – انها كانت ذات منهج تجريبي جدلي . مجدت العقل ونبذت الخرافات والترهات .

واهم هؤلاء الفلاسفة في فرنسا واعظمهم اثراً : فولتير، مونتسكيو، روسو .



نابوليون بونابرت ابن الثورة البار (وتلميذ) روسو



فولتير

١ – فولتير (Voltaire) ١٦٩٤ – ١٧٧٨

اعتبر فولتير من اكثر فلاسفة القرن الثامن عشر نفوذاً وتأثيراً على قرائه لأسلوبه الذي اتصف بالسخرية اللاذعة والتهكم الفاضح على الأنظمة القديمة المستبدة وطغيان وجهالة العصر . هاجم فولتير في كتاباته التعصب الديني الذي كان يسود عصره ودعا الى حرية التعبير وحرية العقيدة والتسامح والغفران . وندد بالملكية المستبدة والاقطاع والمؤسسة الكنسية ومفاسد رجال الدين(٤) معتقداً ان الكنيسة مسؤولة عن ظلامة العصور الوسطى وانها لم تفعل سوى الشر منذ سبعة عشر قرناً . فرمته الكنيسة بالهرطقة واعدمت كتبه كما امرت بسجنه . فهاجر وعذب وسجن عدة مرات .

لم ينسب لفولتير اراء سياسية واضحة على غرار « روح القانون » لمونتسكيو و« العقد الاجتماعي » لروسو الا انه لم يقل عنهما اثراً في محاربة الفساد والاستبداد ، ووجوب

الاعتماد على المحسوس والعقل. ففي رسائله الفلسفية» يهاجم الامتيازات الاجتماعية لفئة دون اخرى كما يهاجم نظام الضرائب الذي يسود فرنسا. بينما تنعم انكلترا في الحرية والمساواة. «ولا يعفى احد من دفـع بعض الضرائب بسبب كونه شريفاً او قسيساً، فجميع الضرائب تعين من قبل مجلس النواب الذي يعد الاول اعتبارا مع كونه الثاني في مرتبته»(٥) كما يذكر «لا يدفع احد وفق لقبه بل وفق دخله، ولا توجـد هنـاك جزيـة او جبايـة مراديـة، (Arbitraire) بل ضريبة حقيقية مفروضة على الارضين، وقد خمنت الأرضون كلها في عهد وليم الثالث الشهير وقد جعلت دون ثمنها.»(٦) ويذكر فولتير عند تهكمه على رجال الدين قائلا «فجميع رجال الدين في انكلترا متحفظـون، وكلهم متحذلقون، وهم اذا ما علموا وجود شباب في فرنسا عرفوا بالفجور وارتقوا الى الحبرية بمكايد النساء فيقومون بأمور الغرام جهراً وانهم يبتهجون بتأليف اناشيد ناعمـة وانهم يقيمون في كل يوم ولائم عشاء لذيذة طويلة وانهم يذهبون من هنالك لالتماس الانوار من الروح القدس، وانهم يكونون من الوقاحة ما يتسمون معه بورثة الرسل، حمدوا الله على بروتستانتيتهم، بيـد انهـم ملاحـدة خبثـاء يستحقون ان يحرقوا مع الشيطان كما قال المعلم فرانسوا رابله، ولذا فانني لا اعنـى بأمورهم.»(٧)

ويظهر لنا اخيرا فولتير في سائر كتاباته المختلفة ثائراً ومعلماً في نفس الوقت. ثائراً على الطبقة العليا في المجتمع الفرنسي معتبراً الطبقة الثالثة انها وحدها التي تشكل الأمة بكاملها. ومعلما يطلب من الناس عدم الأخذ بالتقاليد باللجوء الى التفكير النقدي في اتخاذ المواقف. وهكذا فهو في اسلوبه التحليلي «يجعل المجرد حسيا ملموساً عن طريقة تفكيكه.»(٨).

٢ – مونتسكيـــو Montesquieu (١٦٨٩ – ١٧٥٥)

يرتكز الفكر السياسي عند مونتسكيو على فكرتين اساسيتين: تمجيد الحرية باعتبارها حقا طبيعيا، واحتقار الاستبداد الذي يقـوم على الخوف والرهبة. ولهذا كان هدفه في جميع كتاباته اكتشاف الوسائل التي يضمن فيها الفرد حريته السياسية في ظل القوانين التي لا يخاف



مونتسكيو

في ظلها المواطن مواطناً آخر، وفي ان يفعل المرء ما يريده ضمن الحدود التي تسمح بها هذه القوانين «وتقوم حرية المواطن السياسية على راحة النفس التي تنشأ عن رأي كل واحد حول سلامته، ويجب لنيل هذه الحرية ان تكون الحكومة من الوضع ما لا يمكن المواطن معه ان يخشى مواطناً آخر»(٩).

يعتبر «ورح الشرائع» (L'esprit de lois) من اهم كتب مونتسكيو التي عالج فيها نظريته عن الحرية السياسية وعلاقة القوانين بالحرية والأمن والدفاع ووسائل الادارة كالضرائـب ومقدار الدخل العام. كما عالج علاقة القوانين بالسلوك والطبائع واوضاع الأمة والتجارة والنقد وعدد السكان والدين. كما تعرض ايضا لتاريخ القوانين وصلتها بالنظام الكلي عند الفرنج.

ويحـــاول مونتسكيـــو من خلال هذه الموضوعات التي بحثها في «روح الشرائع» ان يجد افضل الحكومات والوسائل للابتعاد عن الاستبداد. فالحكم الفردي بنظره لا يمكن ان يحقق السلم الاجتماعي عند البشر لكونه حكما مستبداً. كما انه لم يكن يثق بالديموقراطية الصرفة لخوفه ان تغالي في المساواة، او ان تؤدي الى فرد مستبد او الى الفناء كما حدث للديموقراطيات القديمـة. «اذن للديموقراطيـة حدان مفرطان يجب اجتنابهما وهمـا: روح التفاوت التي تسوقها الارستقراطية او الى حكومة الفرد، ورح المساواة المتناهية التي تسوقها الى استبداد الفرد، كما ان استبداد الفرد ينتهي

بغزو البلاد»[١٠]. ومع انه كان يرى في الارستقراطية الاعتدال والاستقرار الا انه تخوف ان تتركز في النهاية بيد فرد واحد فتؤدي الى الاستبداد لكونها وراثية محصورة بفئة معينة من الناس. «ويقع اقصى الفساد عندما يصبح الاشراف وراثيين، لما لا يكون لديهم اعتدال بذلك، واذا كان عددهم قليلا عظم سلطانهم ونقص امنهم، واذا كان عددهم كثيرا قل سلطانهم وعظم امنهم. ويزيد السلطان ويتناقص الأمن حتى يكون المستبد الذي يتجلى فيه فرط السلطان والخطر.»[١١]. اما الملكية المطلقة فهي بنظر مونتسكيو تجنح نحو الاستبداد لانها تتشكل من جماعات يتولد من تنافسها الامتيازات التي ينفرد بها فئة دون فئة من المواطنين «كما ان الديموقراطيات تزول عندما ينزع الشعب في السنات والحكام والقضاة وظائفهم تفسد الملكيات عندما تنزع امتيازات الهيئات أو المدن مقدارا فمقدارا، ويصار في الحال الأول الى استبداد الجميع ويصار في الحال الثانية الى استبداد الفرد.»[١٢]. وهكذا لم يجد مونتسكيو ضالته الا في حكومة مختلطة تضم الى جانب الملك الذي تتحقق فيه القوة طبقتي النبلاء ورجال الدين ومدن وهيئات مختلفة المصالح والامتيازات كما يجب ان يقوم بين الملك وهذه المؤسسات هيئات نيابية امينة على القوانين تتمتع بالاستقلال الا اذا حاول الملك ازالة سلطة الوسطاء. فتنقلب عندها الى حكم فردي مستبد «تزول الملكية حين يرد الامير كل شيء اليه فقط، فيدعو الدولة الى عاصمته والعاصمة الى بلاطه والبلاط الى شخصه وحده. ثم تزول الملكية حينما يجهل الأمير سلطانه وحاله وحبه لشعوبه، وحينما لا يشعر جيدا بان على الملك ان يحسب نفسه في مأمن كما يحسب المستبد نفسه في خطر»[١٣].

وما يشار اليه باهتمام بالغ هو تأكيد مونتسكيو على مبدأ فصل السلطات الذي توخى منه دعم حكومته المختلطة التي اقترحها، ضمانا للعدالة، وصونا لحرية المواطن السياسية وحمايتها من الاستبداد. فليست ثمة حرية بنظره اذا اجتمعت السلطتان التشريعية والتنفيذية بيد شخص واحد. «ولا تكون الحرية مطلقا اذا ما اجتمعت السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية في شخص واحد او في هيئة حاكمه واحدة. وذلك لأنه يخشى ان يضع الملك نفسه او السنات نفسه قوانين جائرة لينفذها تنفيذا جائرا.»[١٤] كما يتمثل سر بقاء الدولة عنده بوجود التوازن بين السلطات او ما يسمى بتعادل القوى (Contre-forces) وذلك حتى لا يصبح بامكان شخص واحد او هيئة معينة وضع قوانين يعتمد على القوة في تنفيذها.

ومن المؤكد ان مونتسكيو قد تأثر في معالجته لفصل السلطات بالواقع الانكليزي من جهة ونظرية لوك السياسية من جهة ثانية، مع انه اضاف الى سلطتي لوك التشريعية والتنفيذية سلطة ثالثة مستقلة عنهما هي السلطة القضائية. «وكذلك لا تكون الحرية اذا لم تفصل سلطة القضاء عن السلطة الاشتراعية والسلطة التنفيذية، واذا كانت متحدة بالسلطة الاشتراعية كان السلطان على الحياة وحرية الاهلين امرا مراديا، وذلك لأن القاضي يصير مشترعا واذا كانت متحدة بالسلطة التنفيذية امكن القاضي ان يصبح صاحبا لقدرة الباغي.»[١٥] بالاضافة الى ان مونتسكيو كان متأثرا الى حد بعيد ايضا بالوضع السياسي الذي كان يسود فرنسا في تلك الحقبة. حيث قوضت الملكية المطلقة اركان الدستور، ورسخت معها الاستبداد الذي يمقته بشدة.

واخيرا فقد تمتع مونتسكيو ولا شك باسلوب ساخر مرير وسعة اطلاع عظيمة حتى اعتبر بحق انه مفكر سياسي اصيل مع كونه لم يكن يمتاز بالواقعية التي امتاز بها كل من مكيافللي وبودان. وما يؤخذ عليه برأي غروتويزن ان «قوانينه ليس لها اساس ولا هدف حقوقيان، وهذا ما ظل يؤخذ على مونتسكيو اثناء الثورة الفرنسية، فلم يكن مقبولا منه ان ينطلق من الواقع الى القانون، والا يعني بما هو كائن والا يعبأ بما يجب ان يكون.»[١٦] كما انه كان اكثر اهتماما بالبحث عن اسباب ما هو كائن وليس عما يجب ان يكون. « On dit ce qui est et non pas cequi doit etre ». وعلى الرغم من ذلك فقد كان مونتسكيو متحمسا للحرية صادقا في دعواه لها مما كان لكتاباته ابلغ الأثر على صياغة دستور الولايات المتحدة الاميركية وفي نفوس رجال الثورة الفرنسية.

روسو (Rousseau) (١٧١٢ – ١٧٧٨)

حاول روسو في كتابه «العقد الاجتماعي» الذي نشره عام ١٧٦٢ ان يدرس الناس كما

هم، وان يضع قانونا ثابتا لمجتمع مدني يؤكد فيه حقوق الانسان الطبيعية في الحرية والمساواة ضمن قوانين عامة تخيلها لتكون اصلح ما يحكم به البشر. «يولد الانسان حراً الا انه مكبل في كل مكان بالاغلال. كيف حدث هذا التغيير؟ اجهل ذلك. وما الذي يمكنه ان يجعله شرعياً؟»(١٧). هكذا يبدأ روسو كتابه العقد الاجتماعي باحتجاج صارخ وشديد على طغيان وفساد عصره. فالأغلال التي تكبل الانسان هي «السلطة» التي لا تستند الى الارادة العامة بل تمارس القوة التي تصنع حقا. ولما كانت القوة لا تصنع حقا فتصبح اذن العقود هي اساس كل سلطة شرعية بين البشر. وبهذا فلا يمكن ان يتنازل الانسان عن حريته بلا مقابل، لأنه يعتبر قد تخلى عن كونه انساناً وعن حقوقه في الانسانية اذ ان حق الاستعباد باطل وغير شرعي ومستحيل لأن «استعباد وحق لفظان متناقضان احدهما ينفي الآخر»(١٨).

والعقد الاجتماعي بنظر روسو يجب ان يتم بين الافراد انفسهم وليس بينهم وبين الحاكم او الحكومة. وهو التزام طوعي غير مبني على اية سلطة يرتبط به الفرد بمحض ارادته ويتمتع به بنفس الحرية التي كان يتمتع بها قبل العقد. فيتساوى الجميع في الشروط التي يضمنها العقد. ويصبح بموجبه كل عضو في المجتمع السياسي محكوماً بطاعته للقوانين التي يشرعها المجتمع كله وحاكماً لكونه مشاركاً في هذا المجتمع الذي يتمتع بصفته السيادية على الجميع. «ومع ان كل فرد يتحد مع الجميع الا انه لا يطيع الا نفسه ويبقى حرا كما كان من قبل.»(١٩) ينتقل انسان روسو بقبوله للعقد الاجتماعي من حاله الطبيعية الى الحالة المدنية ويستبدل الغريزة في ملكه بالعدالة ويحل الحق محل الجشع. «ان ما يفقده الانسان بالعقد الاجتماعي هو حريته الطبيعية وحقا لا محدوداً في كل ما يغريه وما يستطيع بلوغه، اما ما يكسبه فهو الحرية المدنية وملكية كل ما هو في حيازته»(٢٠) وللمحافظة على شرعية التحالف يجب ان يلتزم الجميع ضمنا باطاعة الارادة العامة. لأن حرية الفرد هي في اطاعة المجموع كما ان هذه الحرية لا تتعارض مع القسر الذي تنزله ارادة المجموع بها. حيث لا يعني القسر هنا بنظره الا اجبار الفرد على ان يكون حراً. لأن الحرية الحقيقية لا تتأتى الا من طاعة القانون. وان الافراد يكسبون فائدة كبيرة في المجتمع تفوق الفائدة من بقائهم منعزلين.

الارادة العامة والسيادة عند روسو

ليست الارادة العامة عند روسو ارادة الجميع او مجموع الارادات الخاصة، هي الروح العامة التي لا تراعي سوى المصلحة المشتركة والخير العام. اذ لما كان الفرد جزءاً من الجماعة فان ارادته والارادة العامة هي واحدة بذاتها. فالتصويت وقرارات الاكثرية لا تعني سوى مجرد وسيلتين لتمثيل الارادة العامة. وهكذا فان روسو يعتبر الارادة العامة جوهر العقد الاجتماعي «يسهم كل منا في المجتمع بشخصه وبكل قدرته تحت ادارة الارادة العامة العليا، ونتلقى على شكل هيئة كل عضو كجزء لا يتجزأ من الكل.»(٢١).

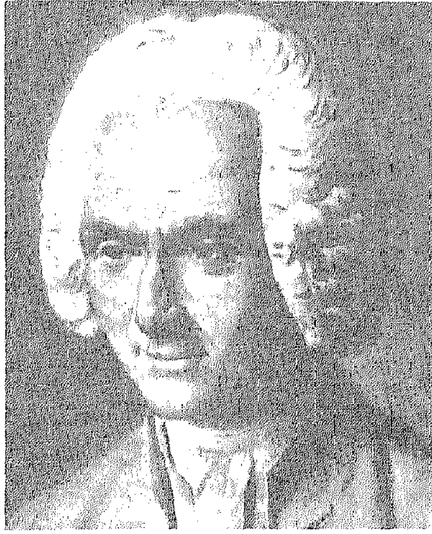
اما السيادة عند روسو فهي تتمثل في ممارسة الارادة العامة. ويعتبر الشعب صاحب السيادة الوحيد الذي يملك القوة التشريعية ووضع القوانين التي تعتبر افعالا حقيقية للارادة العامة. ولما كان صاحب السيادة يستمد كيانه من قدسية العقد فلا يحق له ان يتنازل عن جزء من نفسه او ان يخضع لصاحب سيادة اخر «لأن انتهاكه لحرمة العقد الذي يوجد بمقتضاه يعني تدمير نفسه، ومن لا يكون شيئاً لا ينتج شيئاً»(٢١). وهكذا فان السيادة غير قابلة للتنازل (Inalienable) لأي فرد او هيئة من الهيئات. كما انها لا تتجزأ (Indivisible) ولا تخطىء (Infaillible) لأن ارادتها عامة وبذلك فهي لا يمكن ان تمثل كما يجري في الانظمة البرلمانية «ان السيادة لا يمكن ان تمثل لنفس السبب الذي يجعلها غير قابلة للتنازل، فهي بصفة اساسية قوام الارادة العامة. والارادة العامة لا تمثل مطلقا: فهي اما ان تكون هي نفسها، او تكون شيئاً اخر، ليس هناك من وسط. ان نواب الشعب ليسوا اذ ممثليه ولا يمكن ان يكونوا كذلك فما هم الا مفوضون عنه، ليس في وسعهم ان يبتوا نهائيا في شيء. كل قانون لم يوافق عليه الشعب يكون باطلا، اي لا يكون قانونا مطلقا. فالشعب الانجليزي يظن انه حر لكنه مخطىء جداً، فهو لا يكون حرا الا اثناء انتخاب اعضاء البرلمان، وبمجرد ان يتم انتخابهم يصير هو عبداً، بل لا يكون شيئاً.

ان طريقة استعماله لحريته في فترات حريته القصيرة ثمينة بأن يفقدها»[٢٣].

ولما كانت السيادة عند روسو هي سيادة الشعب (الكل)، فحق التشريع ووضع القوانين اذن يجب ان يكونا من عمل الشعب وحده. اما تنفيذ القوانين فيجب ان يحصر بهيئة تسمى «الحكومة» ومهمتها تنفيذ القوانين والمحافظة على الحرية الفردية. «فما هي الحكومة اذن؟ انها هيئة وسيطة بين الرعايا وصاحب السيادة من اجل الاتصال المتبادل بينهما، مكلفة بتنفيذ القوانين وبالمحافظة على الحرية المدنية والسياسية على السواء»[٢٤] ويسمى اعضاء هذه الهيئة ولاة او ملوكا، او حكاماً بينما تسمى الهيئة ككل اسم الأمير (Prince). وهذه الهيئة (الحكومة) ليست سوى وظيفة يشغلها موظفون من قبل صاحب السيادة لممارسة السلطة التنفيذية حيث يحق له استردادها عندما يريد. اذ لا يوجد اي عقد بينهما وبين الشعب، لأنه ليس في الدولة الا عقد واحد، هو عقد الاتحاد الذي ينشأ بموجبه المجتمع. وهذا العقد يسقط كل ما عداه من العقود «ان التصرف الذي يؤسس الحكومة ليس عقداً قط وانما قانونا، وان من يؤتمنون على السلطة التنفيذية ليسوا مطلقا سادة الشعب بل هم موظفوه، وانه يستطيع اقامتهم وعزلهم متى شاء، وان المسألة بالنسبة لهم ليست قط مسألة تعاقد وانما طاعة»[٢٥] وهكذا يكون روسو قد خالف كلا من هوبز ولوك اللذين اعتبرا ان العقد الاجتماعي عقد مبرم بين الحاكم والمحكوم اذا اخل احد الطرفين في بعض شروطه اصبح الآخر في حل من التزاماته المقيد بها في العقد.

تقسيم روسو للحكومات

لقد قسم روسو الحكومات الى ثلاثة انواع. فالحكومة الديموقراطية هي التي يمارس فيها الشعب كله او الجزء الأكبر منه الحكم. ويكون عدد المواطنين الحكام فيها اكثر من المواطنين المحكومين. وبهذا تتحد السلطتان التنفيذية والتشريعية. لذلك فهي حكومة سيئة اذ لا يمكن وليس من الحكمة ان يكون واضع القوانين هو منفذها. كما انه من المستحيل ان يبقى الشعب فيها مجتمعاً للنظر في الشؤون العامة. والحكومة على هذا الشكل تتطلب بنظره دولة صغيرة جدا يتصف فيها الشعب ببساطة كبيرة



الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو

في الطباع كما يتطلب الحال كثيرا من التساوي في المراتب والثروات. ومع ان روسو يرى في الديموقراطية الصرفة احسن انواع الحكومات الا انها «لم توجد ولن توجد ابداً... فلو كان هناك شعب من الآله لحكم نفسه ديموقراطيا، فان حكومة على هذا المستوى من الكمال لا تصلح للبشر.»[٢٦].

اما في الحكومة الارستقراطية فيتميز فيها صاحب السيادة عن الحكومة ويتولى الحكم فيها عدد قليل من الناس. وهي ثلاثة انواع: الارستقراطية الطبيعية التي لا تصلح الا لشعوب بدائية، والوراثية التي يعتبرها اسوأ انواع الحكومات، ثم الانتخابية التي تعد احسنها.

اما الحكومة الملكية فهي تعني بنظره تركيز الحكم بيد حاكم واحد يستمد الآخرون سلطتهم منه. فتستجيب ارادة الشعب وارادة الأمير وقوة الدولة العامة وقوة الحكومة الخاصة لباعث واحد. كما يسير كل شيء فيها لهدف واحد. ولو ان روسو لم يتخوف من ان يتحول الحكم الملكي الى حكم مطلق لكانت الحكومة الملكية بنظره احسن النظم السياسية وخاصة اذا كانت السلطة فيها مستمدة من حب الشعب. ولكنه كان يرى ان النظام الملكي يناسب الدول الكبرى مع بعض الاستثناءات كما انه لا يلائم سوى الأمم الغنية، بينما الحكم الارستقراطي يناسب الدول القليلة الثروة والاتساع، اما الحكم الديموقراطي فيصلح للدول الصغيرة

والفقيرة.

والواقع ان روسو لا يهتم كثيرا بشكل الحكومة ديموقراطية كانت ام ارستقراطية ام ملكية اذ انه قد يكون شكلا معينا لحكومة ما، افضل في حالات معينة واسوأ في حالات اخرى، وما يزيد في فساد حكومة معينة هو اساءة استخدام السلطة فيها، والجنوح الى الاستبداد. وبدلا من ان يحكم الحاكم الرعايا ليجعلهم سعداء فانه يجعلهم بؤساء من اجل ان يحكمهم.

ويعتبر روسو بحق انه من اهم المفكرين الذي وضعوا اسس النظم السياسية التي تدين لها جميع الحكومات الديموقراطية في العالم. امتاز بدقة الملاحظة بحيوية فائقة، واسلوب تحريضي ضد مخلفات الماضي من منطلق الواقع الذي كانت تعيشه شعوب اوروبا في منتصف القرن الثامن عشر. كما اعتبر داعيه الى التطور الاجتماعي من منطلق شعبي. ولما كان شر المجتمع بنظره يكمن بوجود اسياد وعبيد، فقد جعل القانون فوق البشر لتضعف تبعيتهم للأسياد اذ ان شر القوانين خير من افضل الاسياد.

وكان للغموض الذي اتصفت به كتابات روسو احيانا، ثم للتناقض احيانا اخرى ان ادى الى اختلاف النقاد بشأنه. فمنهم من رآه عدوا للطغيان يمجد الديموقراطية. ومنهم من عده حليفا للاستبداد والدكتاتورية القيصرية، او طوباويا وقع اسير المبادئ المجردة. ومع ذلك فان روسو لم يفكر قط كمكيافللي في استغلال الناس المضللين، ولا كهوبز وغيره من اصحاب نظريات الحد الطبيعي الذين اهتموا بتبرير ما هو كائن انطلاقا من الوقائع اكثر مما اهتموا بالبحث عما يجب ان يكون، ولا على طريقة مونتسكيو الذي كان رجل قانون وعالم اجتماع بينما كان روسو يهتم بالطبيعة وسعادة الانسان والحب الاجتماعي.(٢٧). ■

هوامش البحث

١ – SOBOUL. A: La Revolution francaise t,1 P 69 (Gallimard 1962)
٢ – سباين: تطور الفكر السياسي ص ٧٤٤ (ترجمة علي ابراهيم السيد، دار المعارف بمصر ١٩٧١)
٣ – المرجع السابق، ص ٧٤٤
٤ – فولتير: الرسائل الفلسفية ص ٤٤ (ترجمة عادل زعيتر. دار المعارف بمصر ١٩٥٩)
٥ – المرجع السابق ص ٥٠
٦ – المرجع السابق ص ٥٠
٧ – المرجع السابق ص ٣٣
٨ – غروتويزن: فلسفة الثورة الفرنسية ص ٨٠ (ترجمة عيسى عصفور، وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٠)
٩ – مونتسكيو: روح الشرائع الجزء الأول ص ٢٢٨ (ترجمة عادل زعيتر القاهرة ١٩٥٣ دار المعارف)
١٠ – المرجع نفسه ص ١٦٨
١١ – المرجع نفسه ص ١٧١
١٢ – المرجع نفسه ص ١٧٢
١٣ – المرجع نفسه ص ١٧٣
١٤ – المرجع نفسه ٢٢٨
١٥ – المرجع نفسه ص ٢٢٨
١٦ – غروتويزن: فلسفة الثورة الفرنسية ص ٧٥
١٧ – روسو: في العقد الاجتماعي ص ٢٥ (ترجمة ذوقان قرقوط. دار القلم – بيروت ١٩٧٣)
١٨ – المرجع السابق ص ٤٥
١٩ – المرجع السباق ص ٤٩.
٢٠ – المرجع السابق ص ٥٥
٢١ – المرجع السباق ص ٥٠
٢٢ – المرجع السابق ص ٣٥
٢٣ – المرجع السابق ص ١٥٥
٢٤ – المرجع السابق ص ١٠٦
٢٥ – المرجع السابق ص ١٦٣
٢٦ – المرجع السابق ص ١١٨
٢٧ – روسو: في العقد الاجتماعي، مقدمة بقلم بيير بورجلان ص ١٥.



الذكرى المئوية لميلاد ساطع الحصري

د. عبد العزيز شرف

■ «قال الزعيم الايطالي «ماتزيني» في القرن الماضي وهو يدعو الشباب إلى الوحدة الايطالية: «انكم تبحثون عن وطن وهي فطرة غرسها الله في قلوبكم، ويدعوكم صوت أبطالكم.. إنكم إخوة»..

وحين يذكر الوطن العربي المفكر العربي الكبير ساطع الحصري أو «أبو خلدون» فانما يذكر المفكر الذي أصل مفهوم الشخصية القومية، حين قال: «ما أسعد الأمم التي حققت وحدتها القومية، واستكملت شخصيتها السياسية، فاستطاعت ان تجعل حدودها الدولية منطبقة على حدودها القومية»[١]

ذلك أن كل امرئ ينزع بطبيعته الانسانية إلى أن يعرف نفسه المفردة، ولم يبدأ هذا النزوع بتلك العبارة التي نقشت على أحد المعابد اليونانية في العصر القديم، تدعو الآحاد إلى أن يتعرفوا على أنفسهم بأنفسهم، ذلك لأن هذا النزوع – على حد تعبير الدكتور يونس[٢] – سمة من سمات الانسانية، بدأت معها وارتقت برقيها، وتعقدت بتعقد الحياة في العصر الأخير. وهذه المعرفة – أو لعل الأصح أن نقول مع الدكتور يونس – «وهذا النزوع إلى المعرفة هو الذي يحقق شخصية الفرد، ويجعل له «الخصوصية» التي يمتاز بها عن سائر الأفراد في مجتمعه الكبير، ومجتمعه الصغير على السواء. ولولاها لأصبح الأفراد آحاداً يعرفون بنوعهم وجنسهم فحسب. كما تعرف الآحاد في الأشياء والنبات والحيوان، بصفات عامة مشتركة. إن تميزت فانما تتميز بظواهر تقاس بالأشكال والألوان والأحجام وما قد يكون بين أجزائها من نسب تختلف بها عن غيرها من الأجزاء الموجودة في جنس أو نوع أو صنف. أما أفراد النوع الانساني، فلهم قسماتهم التي تدل على كل واحد منهم، وهي ليست مجرد القسمات الظاهرة على الوجوه فقط، فهذه إمارات خارجية، ولكنها قسمات نفسية تحققها شخصية الفرد، ويظهرها اتجاهه الخاص في التخلق والسلوك.

«وأنه ليقال بحق في ان اكتشاف

« الشخصية » في مطلع القرن الماضي كان أعظم كشف حصلت الانسانية عليه، وهو كشف لا يمكن ان يقاس به كشف قطر غير مأهول أو قارة مجهولة، ولا يمكن أن يقاس به كذلك كشف قوة كامنة أو طاقة مكنونة في عنصر من عناصر الأشياء التي ندرج بينها، بل إنه كشف يعظم حتى على ما يفاخر به عصر النهضة الأوروبية من أنه عرف العقل الانساني، وحرره، أو حاول أن يحرره، من رواسب الخرافة، وشوائب التخليط. ومن أجل هذا كله كان لزاماً علينا أن نعرف أنفسنا المفردة، معرفتنا لنفسيتنا الجماعية، فالفرد يستمد وجوده من جماعته الخاصة وجماعته العامة معاً، وهو لن يستطيع أن يعرف ذاته إلا إذا عرف مجتمعه الذي يعيش فيه وله، ويأخذ منه أكثر مما يعطيه. وإذا كان نزوع الفرد إلى معرفة نفسه، قد انتهى به إلى أن يجعل لهذه النفس علماً قائماً بنفسه، له أصوله ومناهجه وتجاربه أيضاً، فان نزوع الجماعة المتبلورة المتجانسة إلى معرفة نفسها العامة، قد انتهى بها آخر الأمر إلى أن تجعل في مجال علم النفس شعبة قائمة لوجدان الجماعة »[٣].

أبو خلدون والشخصية العربية

تمثل ساطع الحصري هذا المفهوم القومي الذي يمثل مفتاح شخصيته وفكره على السواء، وأشاع هذا المفهوم، ودعا اليه، وقضى حياته أسيراً له، مناضلا من أجله. يقول: « إذا قدر لي أن أدرك اليوم الذي تتحقق فيه الوحدة العربية فسأعد نفسي أسعد الناس جميعاً، وسأنسى كل ما تكبدته من مشاق وآلام، وسأترك هذه الحياة راضياً مرتاحاً، كأنني لم أتعب أبداً، ولم أشعر بذرة من الألم »[٤].

فالدور الذي كرس الحصري حياته من أجله يتلخص في تأصيل مفهوم الشخصية العربية القومية، فأشبع بذلك النزوع إلى معرفة ذاتيتنا الجامعة، كان ينظر إلى دوره على أنه فرض عين لا فرض كفاية.

لقد عاش « أبو خلدون » حياته منذ ميلاده في صنعاء اليمن عام ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠ م) لأبوين عربيين من حلب، حفيداً لأجداد حجازيين، إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى في عام ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨ م). عاش لهذه الفكرة القومية، التي جسدتها حياته الفردية والجماعية على السواء. فقد تنقل ابو خلدون مع أبيه القاضي محمد بن هلال الحصري في البلاد العثمانية، العربية منها وغير العربية، ودرس في استنبول، ليتخرج من المدرسة الملكية الشاهانية عام ١٩٠٠ م، واشتغل بعد تخرجه في التعليم وفي الادارة ببلاد البلقان ثماني سنوات، تعرف فيها على مشكلات الحياة ومعاناة البشر، وشهد عن كثب الحركات القومية التي كانت تمور بها أرض البلقان، وتأمل في حوافزها ودوافعها، واستجابة مختلف الجماعات البلقانية لها[٥]. ولما قامت حركة الاتحاد والترقي أيدها أبو خلدون، وشارك في مباهجها يوم أعلن الدستور عام ١٩٠٨، ثم تكشفت الحركة عن برق خلب، فحاد عنها لينصرف إلى تجربته في التربية ويخلص لاتجاهه العلمي. ذلك أن ايمانه بالشخصية العربية في المفهوم القومي هو الذي دفع به إلى أن يستجيب للدولة العربية في دمشق، فيرسي دعائم تعليم عربي قومي، يلبي متطلبات دولة عربية عصرية، ولكنه لم يلبث أن هاجر من دمشق بعد واقعة ميسلون ليلحق بالعراق يجاهد فيه عشرين عاماً، ثم يعود إلى دمشق ليصنع الثورة الثقافية التي استوحت مبادئ القومية العربية وروح التقدم وليصدر « صك الاستقلال الثقافي »[٦].

التاريخ دواء للتشاؤم

ودعوة الحصري إلى تأصيل الشخصية القومية، دعوة علمية، لذلك لم يأبه بتشاؤم المتشائمين أو يأس القانطين، فكتب يقول عام ١٩٤٧:

« وأما الذين يستسلمون إلى القنوط والتشاؤم من كثرة المشاكل والمساوئ التي يلحظونها، فاني أدعوهم إلى التوسع والتعمق في درس تواريخ النهضات القومية الحديثة، لأني أجد فيها أحسن الأدوية الشافية من داء التشاؤم والقنوط، وأقوى المؤثرات الموقظة للايمان القومي ».

فالحصري يتوسل التاريخ كوسيلة علمية لتحرير الشخصية العربية من الكبت، ومن الخوف، ومن الاستغلال والتسخير، حتى تنمو الشخصية الفردية والجماعية على السواء، يقول:

« لا شك في أن سبيل النهضة والوحدة محفوفة بأنواع المشاكل والعقبات، ولا شك في أن الموانع التي يجب علينا أن نقتحمها قبل أن

نصل إلى غايتنا المنشودة كثيرة وكبيرة جداً، غير أن هذه المشاكل، مهما كانت عويصة، وهذه العقبات، مهما كانت عظيمة، يجب ألا تثنينا عن عزمنا، وألا تزعزع ايماننا.

لا يجوز لنا أن نرتاع من كثرة المشاكل وأن نفزع من هول العقبات، بل يجب علينا أن نؤمن ايماناً راسخاً بأن تلك المشاكل والعقبات ستتلاشى أمام نهضتنا القومية، وستزول أمام حقنا في الوحدة والحياة».

وحدة اللغة والتاريخ

وتأسيساً على هذا الفهم يتحدد مفهوم الشخصية القومية عند الحصري على أساس من وحدة اللغة ووحدة التاريخ، وعنهما «تتولد وحدة المشاعر والمنازع، ووحدة الآلام والآمال، ووحدة الثقافة».

وحين يذهب الحصري هذا المذهب، فانه يؤكد ما يذهب اليه علماء اللغة المحدثون[٧] من **أنه اذا كان للقومية وجود حقيقي او مفهوم محدود فانه يجب** أن نتلمسه في تلك الرابطة الوثقى التي تؤلف بين أفراد المجتمع، وتوحد بين أفكارهم وأحاسيسهم وعواطفهم، والتي تسمى باللغة أو اللسان. فالقومية في حقيقة أمرها ليست إلا الشعور بما يجذب أفراد المجتمع بعضهم إلى بعض لتتألف منهم وحدة متميزة، وقد دلت الملاحظة الحديثة على أنه حين تقوى الصلة بين مناطق مجتمع من المجتمعات، وتسهل بينها وسائل الاتصال، تتكون لها مع الزمن «لغة مشتركة» تقرب بينهم، وتعين أهلها على تفاهم أسرع وأيسر، وتقضي لهم مصالحهم الدنيوية.

واللغة المشتركة – هي كما يقول الدكتور أنيس – تعبير آخر لما يسميه السياسيون بالقومية، ولذلك لم يكن من المصادفة أن القومية حين بدأت تتخذ شكلها في القرن الثامن عشر لم يكن روادها من العسكريين أو السياسيين، وإنما كانوا من العلماء والشعراء والكتاب الذين حاولوا جهدهم أن يلتمسوا روح الشعب في الأساطير القديمة، والأغاني مجهولة الأصل. وكانت اللغة في أعمال هؤلاء المفكرين أداة هذه الذكريات والتجارب المشتركة، والسجل التاريخي[٨].

لا غرابة بعد ذلك أن نرى ساطع الحصري يقف في مصاف المفكرين الألمان حين يؤمن معهم بأثر اللغة في تكوين القومية. ولعل هردر العالم اللغوي في أواخر القرن الثامن عشر كان أول من نبه الأذهان في كتبه إلى علاقة اللغة بنفسية الأمة وشخصيتها إذ يقول: «إن اللغة القومية بمنزلة الوعاء الذي تتشكل به، وتحفظ فيه، وتنتقل بوساطته أفكار الشعب. واللغة سواء قلنا أنها خلقت دفعة واحدة من قبل الله أم ذهبنا إلى أنها تكونت تدريجياً بعمل العقل، لا يمكن أن نشك في أنها الآن تخلق العقل، أو على الأقل تؤثر في التفكير تأثيراً عميقاً، وتسدده وتوجهه توجيهاً خاصاً. والأدب الذي يسود بين الطبقات العليا من الأمة يعكس تأثيرات خارجية أو أجنبية، ولكن لغة الشعب تمثل في كل روح، الشعب نفسه. إن لغة الآباء والأجداد بمثابة مستودع لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين. إن قلب الشعب ينبض في لغته. إن روح الشعب يكمن في لغة الآباء والأجداد»[٩].

وتأسيساً على هذا الفهم اتجه أبو خلدون إلى دراسة مسائل اللغة والأدب، أو على حد تعبير الدكتور شاكر الفحام[١٠] – يعالج مشكلاتها بنظرات تربوية طوراً وقومية طوراً آخر، وقد كتب له التوفيق في معظم مباحثه الأدبية القومية التي نجد أكثرها في كتابه: «اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية» والذي نشر أيضاً بعنوان: «آراء وأحاديث في اللغة والأدب»، يقول الحصري في تأكيد أهمية عنصر **اللغة في تكوين الشخصية القومية ان بلاد العرب هي** «جميع البلاد التي يتكلم أهاليها باللغة العربية، من جبال زاغروس في الشرق إلى المحيط الأطلسي في الغرب، ومن شواطئ البحر الأبيض وهضاب أناضول في الشمال إلى المحيط الهندي ومنابع النيل والصحراء الكبرى في الجنوب. كلها تدخل في نطاق بلاد العرب[١١].

عناصر الأصالة والتجديد في الشخصية القومية

وفي ضوء هذه الرؤيا القومية في فكر الحصري (أبو خلدون) يمكن التمييز بين عناصر الأصالة ومظاهر التجديد في الشخصية القومية، فهو يقول: «يجب علينا أن نسلك، بدون تأخر، وبحزم واندفاع، مسالك التجديد في كل ساحة من سوح الحياة المادية والمعنوية والاجتماعية، في اللغة، والأدب، في التربية والأخلاق، في

العلم والفن، في السياسة والثقافة، في الزراعة والصناعة والتجارة، في البيت والمدرسة، في القرية والمدينة، في الشارع والحديقة»(١٢)

فالمفهوم القومي – كما تقدم – هو مفتاح شخصية الحصري، وهذا المفهوم كما يقوم على عناصر أصالة فانه يقوم على التجديد كذلك، ويتفق الحصري معنا في اتخاذ هذا المفهوم مفتاحاً لشخصيته وفكره على السواء، حين أجاب عن سؤال عن قائمة مؤلفاته التي تدور حول القومية العربية، قال: «بناء عليه أرتب مؤلفاتي هذه على النحو التالي: «آراء وأحاديث في الوطنية والقومية – محاضرات في نشوء الفكرة القومية – ما هي القومية؟ – آراء وأحاديث في القومية العربية – العروبة بين دعاتها ومعارضيها – العروبة أولا – دفاع عن العروبة – صفحات سن الماضي القريب – آراء وأحاديث في اللغة والأدب – آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع – حول وحدة الثقافة العربية – البلاد العربية – البلاد العربية والدولة العثمانية – يوم ميسلون – آراء وأحاديث في التربية والتعليم – حولية الثقافة العربية – رسائل إلى بول مونرو – تقارير عن أحوال المعارف في سورية واقتراحات في إصلاحها».

ويذكر الحصري في محاضراته عن نشوء الفكرة القومية أن هذه الفكرة قد نمت وأخذت تتغلغل في النفوس في أوائل القرن التاسع عشر حتى أصبحت «من المبادئ والمعتقدات الفعالة التي تدفع إلى العمل».

فهذه الفكرة إذن – كما يذهب إلى ذلك الدكتور عادل العوار هي نوع من الأفكار – القوى، أو الفكر – القواتية كما يقول. إنها قوة أخلاقية أو قيمية كما نقول بلغة اليوم .

ولذلك عنى الحصري بتحليل أخطار النزعة الاقليمية التي تتمسك بالأمر الواقع كما يقول: «أما الفكرة القومية فتنزع إلى الأمل المنشود».

«إن النزعة الاقليمية تكون أشد تأثيراً في سواد الناس، وأكثر موافقة لمصالح النفعيين، لأن للدولة معالم مشهورة وملموسة، وسلطة فعلية: لها علم خاص يراه الناس، شرطة خاصة، وجيش خاص، وأوراق هوية وجوازات سفر خاصة، وحكومة خاصة مع نقودها الخاصة ومجالسها الخاصة. في حين أن فكرة القومية – عند تعدد الدول – تكون محرومة من أمثال هذه المعالم المادية، لأنها تبقى أمام هذه الدول بمثابة نزعة معنوية تجول في الخواطر، وتختلج في الصدور».

ويخلص الحصري إلى أن فكرة القومية العربية لم يتم نشوؤها ولكن المستقبل سيكون لهذه الفكرة القومية العربية العامة التي لا تزال في حالة نزاع وكفاح مع النزعات الاقليمية. انها لم تتغلب على تلك النزعات، ولكنها لم تستسلم اليها، ولما تكف عن مصارعتها ومكافحتها.

ويذهب الدكتور عادل العوار إلى أن هذه الجذرية الفكرية التي تستخلص «عمومية» الفكرة القومية العربية من حوادث التاريخ، تؤكد وجهة نظر الحصري المؤمن بمستقبل هذه الفكرة، وان هناك جذرية فكرية أخرى يصوغها، لا من مناقشات الوقائع التاريخية، كما فعل في كتاب «المحاضرات» التي القيت عام ١٩٤٨، بل من مناقشة الأحداث والنظريات على النحو الذي عرضه أبو خلدون في كتابه: ما هي القومية؟ ونشره في طبعته الأولى سنة ١٩٥٥. وهذه الجذرية الفكرية الجديدة من ذاتها التي انطلق منها في كتاب «المحاضرات» وهي التي أوجزها هو ذاته في كلمتي: اللغة والتاريخ. يقول في ختام بحثه الذي عرض فيه مختلف الأمثلة التاريخية وناقش من ثم أشهر النظريات القومية التي جاء بها «ريفان» و«ستالين» والماركسيون من جهة، أو التي تود ربط القومية بالدين كنظرية جمال الدين الأفغاني ورأيه في الوحدة الاسلامية وفي الجنسية أو القومية، وقد نفى عن الأفغاني أن يكون أراد بالجامعة الاسلامية معنى أن يكون للمسلمين كلهم دولة واحدة، وقرر في نهاية هذه البحوث والمناقشات ان أس الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو: وحدة اللغة ووحدة التاريخ.

واذا كان التفكير القومي – كما يقول الدكتور العوار – يجاوز اليوم موقف الحصري، فقد كان له الفضل العظيم في الريادة المؤمنة المناضلة في تأصيل مفهوم الشخصية القومية، وما رقى الحصري «برأيه» في القومية العربية الى اعتباره رأياً ثابتاً حقيقياً صالحاً للقوميات كلها في كل زمان ومكان الا لايمانه وثباته عليها، ونقلها من صعيد الجزئي المحدود، إلى مستوى الكلي العام، وقد كان هذا هو ديدنه في فكره وعمله له على السواء» على حد تعبير الدكتور العوار.

ولذلك لم ينتسب الحصري إلى حزب أو حركة سياسية، وانما ظل مؤمنا بفكرته وفياً لها مناضلا عنها، ويتم حياته مثلما بدأها، يقيم في غرفة من فندق متواضع في القاهـرة بعـد استقالته من معهد الدراسات العربية العالية، رافضا أي عون مادي عرضه عليه عدد جم من الشخصيات العربية مؤثرا عدم الاستجابة الا لمثله الأعلى[١٣].

أبو خلدون والفكر الاجتماعي

في سنة ١٩٤٨ ألقى الحصري في الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة ست محاضرات في نشوء الفكرة القومية في اوروبا والبلاد العربية تشير الى اتجاهه العلمي في توظيف الفـكر الاجتماعي لمفهوم الشخصية القومية.

وحين عمل الحصري مستشـارا للادارة الثقافية لجامعة الدول العربية جاءت حولياته الثقافية حول اوضاع التعليم في الأقطار العربية تضم المعلومات وأوضـاع الثقافـة العربية واتجاهاتها في القرن العشرين[١٤].

وفيها يبين الحصري، «ان الفروق في نظم التعليم واتجاهاتها الثقافية لم تكن نتاج طبيعة البلاد الأصلية وحاجاتها الحقيقية، وانما كانت من نتائج السياسات الأجنبية التي سيطرت على مقدراتها»، واذا كان الحصري يطلق عليه لقب «رائد الوحدة الثقافية العربية» فان ذلك يرجع الى فلسفته التربوية التي أشاعها ضمن أفكاره في تأصيل المفهوم القومي، وإليه يعود الفضل الأكبر في عقد الاتفاقات الثقافية التي أدت إلى توحيد نظم التعليم في كل من مصر وسوريا والعراق والأردن .وهو كمنظر تربوي يستحـق بجدارة ان يعد واحـدا من رواد التربيـة الحديثة.

ولقد ترك الحصري عددا كبيرا من المؤلفات التربوية بعضها كتب بالتركية، والكثير بالعربية ومؤلفاته في التربية يربطها خيط المفهوم القومي بمؤلفاته في الاجتماع واللغة، ولذلك ينظر اليه على أنه امتداد للمفكر الاسلامي الكبير ابن خلدون ولقد كان الحصري معجباً به، وسمي ولده «خلدونا» وعكف على «مقدمة ابن خلدون» وآثاره يقتلها بحثا حتى الف عن ابن خلدون تأليفا عجيبا في عمقه فذا في اسلوبه[١٥].

ومما ألح فيه الحصري في كتابـه هذا «دراسات عن مقدمة ابن خلدون» البرهنة على أن كلمة العرب الواردة في مقدمة ابن خلدون، وهي التي ولدت أغرب الالتباسات وأدت الى أسوأ النتائج، انما عني بها البدو والاعراب. وفي هذا رد على الشعوبيين الذين لا يفتأون يستشهـدون بابـن خلـدون انتقاصـا من العرب[١٦].

■

الهوامش:

١ - ساطع الحصري: آراء وأحاديث في القومية العربية ط ٣ - ١٩٥٩ ص ٢٣.
٢ - د. عبد الحميد يونس: مجتمعنا ص ٥ وما بعدها
٣ - د. يونس: المرجع نفسه ص ٨.
٤ - ساطع الحصري: آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة ط ١، ١٩٥١ ص٩٦.
٥ - د. شاكر الفحام: «كلمة العدد - ساطع الحصري» - مجلة المعلم العربي ٢٤، ٣ شباط وآذار (فبراير ومارس) ١٩٧٧.
٦ - د. شاكر الفحام: المرجع نفسه وساطع الحصري: آراء وأحاديث في العلم والأخلاق - مرجع سبق ذكره ص ٦٤ - ٩٦.
٧ - د. ابراهيم أنيس: اللغة بين القومية والعالمية ص ١٠٢ وما بعدها.
٨ - المرجع السابق ص ١٠٤.
٩ - ساطع الحصري: ما هي القومية؟ ص ٥٦.
١٠ - المصدر نفسه.
١١ - ساطع الحصري: العروبة أولا ط ٢ - ١٩٥٥.
١٢ - ساطع الحصري: آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع (ط ١، ١٩٥١) ص ١٦.
١٣ - د. عادل العوا: «الجذرية الأخلاقية لدى ساطع الحصري، مجلة المعلم العربي،» مرجع سبق ذكره.
١٤ - على جبر: «مع الحصرى في منطلقاته القومية»، مجلة المعلم العربى، مرجع سبق ذكره.
١٥ - المرجع السابق - راجع كتاب الأستاذ الياس حرقص في «نقد الفكر القومي».
١٦ - المرجع السابق.



حوار حول ما ورد في «وثائق من التاريخ» حول طبيعة الأمارة في الجبل

إعداد: د. وجيه كوثراني

كانت قد نشرت مجلة «تاريخ العرب والعالم» في باب «وثائق من التاريخ» في العدد ١٥ تاريخ ١٥ كانون الثاني / يناير ١٩٨٠م.، ثلاث وثائق تدور حول الصراع الدرزي – الماروني عام ١٨٤٠ – ١٨٤١ من «مجموعة المحررات السياسية» ترجمة فيليب وفريد الخازن. وقد اثارت هذه الوثائق بموضوعاتها جدلا انصب في شكل اساسي حول طبيعة الامارة في الجبل وعلاقة هذه الامارة بالدولة العثمانية. وقد وردنا من الدكتور زكي النقاش كتاب يحمل ردا على بعض الموضوعات – الوثائق وعلى ما ورد في تقديم الدكتور وجيه كوثراني لهذه الوثائق.

وفيما يلي، وفي اطار حوار مفتوح، ننشر رسالة الدكتور النقاش ورد الدكتور كوثراني عليها.

رسالة الدكتور زكي النقاش



ان ما نشرته مجلة «تاريخ العرب والعالم» على ثلاث صفحات ونيف من عدد شهري كانون الثاني ١٩٨٠ وصفر ١٤٠٠هـ. بقلم الدكتور وجيه كوثراني تحت عنوان «ثلاث وثائق تاريخية حول: الصراع الدرزي الماروني على امارة الجبل عام ١٨٤١» لهو من الأهمية بمكان، وانه ليستحق بالتالي الوقوف عنده، استجلاء لبعض جوانب تاريخ لبنان الذي ما زلنا نتلمس مصادره الموثوقة، تيسيرا للفوز بمؤرخ يرجع اليها ويتقيد بالموضوعية المجردة عن الهوى.

اما الأهمية التي يحسن ان تعطى للموضوع فتكمن فيما اطلق عليه «وثائق من التاريخ» زد على ذلك ان ناشرها الدكتور الكوثراني، يحتل مكانة يستحقها علمه، وهدفه هو في المشاركة في تحضير عناصر تاريخ وطننا

المفدى، لبنان العربي، الصحيحة والموثوقة.

من هنا كانت ضرورة الوقوف عند هذه «الوثائق الثلاث» التي كان ينتظر بعض المراقبين من الصديق وجيه ان يذكر مكان وجودها، او المرجع الذي استقاها منه. وكذلك كان يتوقع بعض المطالعين للمجلة ان يقرأوا للدكتور رأياً في مدى صحتها، وما اذا كان قد خامره شيء من الشك في حقيقتها وخلوص نية واضعيها، وذلك من خلال اللغة التي كتبت بها، فضلا عن بعض ما تضمنته من تعابير واقوال، قد لا تكون كلها تستحق الاخذ بها.

فمن دواعي الوقوف عند نص كل من الوثائق ما قد جاء، اولا، في الوثيقة الاولى: «عريضة الدروز الى الباب العالي بتاريخ آخر حزيران، سنة ١٨٤١، من قول، وهو التالي: «يطالبون (الدروز) السلطان بتعيين رئيس منهم كما كان الحال في عهد الشيخ بشير جنبلاط» أهـ. وهنا يتساءل البعض: وهل، حقا، كان هناك «تعيين .... في عهد الشيخ بشير جنبلاط»، علما ان لا احد ينكر قيام الصراع بين الشيخ الجنبلاطي والامير الشهابي عهد ذاك. والسؤال الثاني الذي يفرض نفسه، والموجه «بالفتحة على الجيم» للدكتور الكوثراني هو التالي: «وهل من الصحة في شيء القول: «كانت الدولة العثمانية، ويفعل التقليد الذي استمر (؟)، والذي تعتبر امارة «الجبل»، امارة للدروز (؟)، ولا تزال تعتبر (الدولة العثمانية) الامير الشهابي (بشير قاسم) «اميراً درزيا» و«أميراً على الدروز»؟.

وهل يجب التأكيد على ان لفظة «درزي» و«دروز» لم تكن معروفة قبل القضاء، عام ١٦٣٤، على مؤسس «لبنان الاكبر» الحقيقي، الامير فخر الدين المعني الثاني العظيم. نعم لم تكن تلكما اللفظتان «الدرزية» و«الدروز» معروفتين حتى ظهرتا في كتابات بعض الغربيين، حين تعرضوا للبحث عن اصل «الامير الخطير.. الذي تجاسر وعمل لاستقلال امارة بيروت وجبل لبنان» (عادل اسماعيل في كتابه: «تاريخ لبنان» من القرن السابع عشر حتى ايامنا باللغة الفرنسية، ج (١) ص XIV) عن الدولة العثمانية، لتكون «الدولة المعنية» بكل ما في الدولة من ابعاد: سياسة، واستقلالية، واجتماعية، واقتصادية. فمن اين جاء «ذلك التقليد الذي استمر والذي... والذي....»؟.

هذا مع العلم ان المعنيين لم يكونوا على مذهب «اهل التوحيد»، بل كانوا على مذهب «اهل السنة». وليس قولنا هذا دفاعا عن... ولا شجبا لـ... بل هو تقرير للحقيقة، مع احترامنا الكلي للمذاهب الفقهية الاسلامية على اختلافها.

وكذلك يساءل بعضهم عن صدق التعبير القائل: «بالتوازن حول السلطة» بين الطائفتين اللبنانيتين والذي «كان الاخلال فيه، الى جانب عوامل اخرى سياسية مفجرا لتلك الصراعات»، الا يعتقد الدكتور الكوثراني ان التعبير القائل «بالتوازن في السلطة «بين الدروز» (؟) والنصارى (الموارنة) تعبير خاطئ وانه يقتضي تصحيحه، لأن السياسة الغاشمة التي ظهرت في ذلك العهد، قد خلقته للتغطية والتضليل؟

واني لالفت النظر الى ان بعض ماجاء في الوثائق من نصوص يحتاج الى التحري عنه والتثبت مما يعنيه، ثم ان لغة الوثائق الثلاث، تكاد تكون واحدة، مع بعدها عن لغة اهل ذلك الزمان من لبنانيين وعثمانيين. وكذلك فان دعوى الوثيقة الثالثة المسماة: «عريضة مسيحي دير القمر» والمتمثلة (الدعوى) في القول: «... فاستمروا (الدروز) على مهاجمة المسيحيين (كذا) والاعتداء عليهم خارج المدينة» دعوى باطلة، لأن الموارنة انفسهم كانوا منقسمين بدليل ما جاء في ج (٢) ص (٤٨٧) من «كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان» اصدار الدكتور فؤاد افرام البستاني، لمؤلفه: الشيخ طنوس الشدياق، من القول التالي: «اما مشايخ النصارى الخائنون، فلما حضروا الى بعبدا، اخذ بعضهم يراسل وجوه دروز الشويفات» أهـ. اذن لم تكن «العريضة» على حق في دعواها النطق باسم «المسيحيين». هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فاننا نقرأ في المرجع نفسه المذكور ص (٤٨١) ما يلي: «... وسارت النصارى (اقرأها الموارنة) ولما وصلوا الى كفر قطرا، اشاع نصارى (موارنة) رشميا ان الملكية = (الروم الاورثوذكس) قادمون لقتالهم...». كذلك نقرأ ص (٤٨٣) ما يلي: «اما الامير عبد الله قاسم فجمع خمسماية رجل من بلاد جبيل وحضر بهم الى بعبدا، وكان معه رجلان درزيان، فلما ابصرتهما النصارى (الموارنة) هجموا عليهما فقتلوا احدهما بغيا واحرقوه (كذا). وخلص الامراء الدرزي الآخر

منهم واطلقوه» أهـ. فما رأيكم في هذا القول؟ الا تدل بصراحة تامة على انقسام الموارنة (ولا اقول النصارى) على انفسهم، فضلا عن ان الروم الاورثوذكس لم يكونوا بجانب الموارنة، بل كانوا حلفاء «الدروز» في الخلاف والخصام. واخيرا نقرأ للدكتور كمال الصليبي في: «تاريخ لبنان الحديث» ص (٨٢): ففيما بقي الفوز حليف الدروز هناك (في البقاع)، تقهقر النصارى، وانقسموا بعضهم على بعض، وذلك ان الروم الاورثوذكس، وقد داخلهم الشك في نوايا (اقرأ: نيات) الموارنة... ترددوا في الانتصار لهم، بل انهم لم يتوانوا، في بعض الاحيان (؟) من الانتصار للدروز» اهـ. ولا بد من لفت النظر الى ان اللفظة «المسيحيون» الواردة في الوثائق الثلاث، تقابلها في مؤلفات العهد لفظة «النصارى» وهذا له دلالته بالنسبة «للوثائق التاريخية الثلاث».

اما الوثيقة الثانية، حاملة «الفرمان السلطاني»، الى الامير بشير قاسم بتاريخ ٣ ايلول ١٨٤٠، فلندع الكلام عن نصوصها ولغتها، ولنكتف بما علق به الدكتور الكوثراني على ما فعله الانكليز بشأن تاريخها اذ قال في الهامش رقم (١) ص (٥٢): «ان الانكليز استصحبوا هذا الفرمان دون تاريخ، ولكنهم اذاعوه في ١٠ تشرين الثاني من السنة نفسها المذكورة، وارخوه في ٣ ايلول ١٨٤٠ انتقاما (كذا) من الامير بشير عمر على نشرته الصادرة بالتاريخ ذاته، وارهابا بان لهم السلطان المطلق» أهـ. فان لهذا التعليق دلالته على ما يخامر البعض من الشك بامر تلك «الوثائق التاريخية».

وعليه لعله في الامكان توقع ما يجلو بعض الغموض في الموضوع.

بيروت في ١٩٨٠/١/٢٧

رد الدكتور وجيه كوثراني:

اشكر الدكتور زكي النقاش على اهتمامه بقراءة ومتابعة زاوية «وثائق من التاريخ» في مجلة «تاريخ العرب والعالم»، هذه الزاوية التي كان لي شرف اعدادها بناء على رغبة رئيس التحرير. ومهمة الاعداد هذه، صحيح انها لا تلزم صاحبها جهدا في التأليف، لكنها تحمله مسؤولية ما، مسؤولية الاختيار والتقديم.

نعتذر اولا من الدكتور زكي النقاش ومن جميع القراء عن الخطأ الذي حصل سهوا في سقوط اسم المرجع الذي اخذت منه الوثائق. والمرجع هو: مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان، المجلد الاول ١٨٤٠ - ١٨٦٠، تعريب فيليب وفريد الخازن، جونيه ١٩١٠، ص ٢١ - ٢٢، ص ٥٠ - ٥٢، ص ٧٣ - ٧٥.

وهذه المجموعة هي بمعظمها ترجمة للمجموعة الوثائقية الفرنسية التي نشرها البارون (DE TESTA) بعنوان "Recueil des traites de la porte Ottomane avec les puissances Europeennes" Paris 1892-1894

وهذه الوثائق عبارة عن مراسلات السفارات والقنصليات الاجنبية في عاصمة ومدن الدولة العثمانية ومترجمة عن الفرنسية. وبالتأكيد قد تكون الترجمة قد خضعت لتحوير ما في مضامين اللغة. وهذا ما لاحظه الدكتور زكي النقاش بحق في صيغة اعادة ترجمتها الى العربية بواسطة فيليب وفريد الخازن. وهذا بالتأكيد هو احدى نقاط ضعف هذه الوثائق. وكنا نعتقد ان مجرد ذكر المرجع الذي سقط سهوا من الطباعة يكفي لاستنتاج طبيعة هذه الوثائق المترجمة عن الفرنسية. ولذلك لم نورد ذلك في التعليق الذي قدمناه. ومن هنا الاشكال الذي وقف عنده الدكتور النقاش وهو محق بذلك.

وعلى كل حال، من يطلع على النص الفرنسي في (DE TESTA) يلاحظ توافقا بين النص العربي المترجم لفيليب وفريد الخازن والنص الفرنسي في (DE TESTA).

هذا من جهة، ومن جهة اخرى، ان ايراد هذه الوثائق في باب «وثائق من التاريخ» في مجلة تاريخية عامة غير متخصصة، كمجلة «تاريخ العرب والعالم» ومتنوعة الاهتمام ومصادر الاقتباس، لا يتطلب تدخلا ونقدا تحليليا مفصلا لكل وثيقة تنشر من قبل من يقترحها للنشر، فاقتراحها للنشر من قبل من يعد هذه الزاوية، لا يلزم ابدا صاحب «الاعداد» على الالتزام بمضمون الوثيقة كلها، فلم يوردها مقترحها كاستشهاد على تحليل تارخي او رأي محدد بل كمصدر من جملة مصادر البحث، خاضع للنقد والرفض، مع كل

ما يطرحه ذلك من دلالات ومعان تاريخية.

كان لا بد من توضيح المنهج الذي سرت عليه في اعدادي لزاوية «وثائق من التاريخ». لكن استدرك فأقول اني مسؤول تماما عما ورد في تقديم الوثائق، ولذلك أعتبر نفسي مطالباً بالرد فقط على النقاط التي أثارها الدكتور النقاش انطلاقاً من التقديم.

يدخلنا الدكتور زكي النقاش في سجال ايديولوجي حول رؤية تاريخ لبنان، سجال يحاول ان يحصر النقاش كما استقر في عهد الانتداب الفرنسي وابان السنوات الاولى من الاستقلال في الاسطورة التي تقول بان «فخر الدين المعني الثاني هو مؤسس لبنان الاكبر الحقيقي» وفي الجدل الذي طرحته عملية التنافس بين الطوائف «الملبننة» في تمثل تاريخ لبنان وفي التقرب من هذا «المؤسس». فهذا المؤسس (فخر الدين الثاني) هو درزي بالنسبة للايديولوجيين الدروز وماروني، او قريب من الموارنة ومشجع لهم، بالنسبة للأيديولوجيين الموارنة، ومن اهل السنة، بالنسبة للأيديولوجيين الاسلاميين في المدن التي ادخلت في دولة لبنان الكبير.

والواقع ان هذه «الاسطورة» (اسطورة فخر الدين المؤسس للبنان) هي اسطورة مارونية في الاساس[1] «قبضتها» الطوائف الاخرى ودخلت في اسطورتها في سياق عملية الانخراط في لبنان - الامرالواقع (الدولة) لكن من موقع التزاحم والتنافس على ادعاء التأسيس.

وفي الوقت الذي تخلت فيه المارونية السياسية عن هذه الاسطورة (راجع دراسة من دراسات القضية اللبنانية تحمل عنوان: هل توحد لبنان مع فخر الدين الثاني؟)، نرى ان الدكتور النقاش لا زال متمسكاً بها من موقع اسلامي ملتحق بالمحور الماروني - اللبناني.

وهنا اعود الى الموضوعات التي طرحتها في تقديم الوثائق:

اولا: تهدئ من روع الذين يتقاتلون على التقرب من مؤسس لبنان والبحث عن طائفته بالتذكير بأنه لم يكن هناك ما يسمى «لبنان» في عهد فخر الدين المعني الثاني. فالامارة هي لعصبية آل معن الذين ولوا على بلاد الشوف، البلاد التي كانت تدعى «جبل الدروز» (راجع كمال الصليبي «تاريخ لبنان الحديث»، ص ١٢ - ١٣، وايضا عادل اسماعيل: جزء ٤ «تاريخ لبنان» بالفرنسية ص ١٢٤). وقد تولوا هذا المنصب على قاعدة عصبية محلية غالبة اقرت كسلطة محلية من قبل السلطان اي من قبل السلطة الاسلامية المركزية. وذلك كمقاطعجية، اي ملتزمين للضرائب وفق اسس النظام العثماني كما استقر ابتداء من القرن السادس عشر. فليس في الامر تأسيس لدولة ولا لاستقلال، بالمعنى الذي يتحدث عنه الدكتور النقاش بتأثير الايديولوجية اللبنانية، «الانعزالية» او «العروبية» لا فرق.

ان الصراع الذي خاضه فخر الدين هو مظهر من مظاهر الصراع بين «الملتزمين»، اي بين ممثلي سلطات الدولة العثمانية محليا (ولاة، امراء مشايخ اتراك وغير اتراك) وفي وقت بدأت المدن والدول التجارية الاوروبية تخترق المجتمعات العربية الاسلامية عن طريق «الامتيازات» والبعثات.. فالعصبية المعنية، عصبية درزية، بالمعنى السلطوي السياسي للكلمة، عصبية حاكمة في جبل الدروز. من هنا التسمية التي شاعت والتي سميتها تقليدا عثمانيا: «امراء جبل الدروز» او امراء عشائر الدروز». هذه التسمية استمرت كتقليد وان كانت قد فقدت اساسها المذهبي مع تنصر الشهابيين. والفرمان العثماني الذي يعتبر عام ١٨٤٠ الامير بشير الثالث «اميرا للدروز» وردت ترجمته الفرنسية عند (DE TESTA الجزء الثالث، ص ٨٣)، ويستشهد بمقطع منه الدكتور عادل اسماعيل في كتابه (تاريخ لبنان ج ٤، ص ١٠٧). وحبذا لو كنا نستطيع ان نحصل على الفرمان العثماني (التركي) نفسه.

ثانيا: ان هذه التسمية «جبل الدروز»

---

(١) من المفيد جدا مراجعة محاضرة الدكتور كمال الصليبي: «فخر الدين والفكرة اللبنانية» نشرت في كتاب «ابعاد القومية اللبنانية»، محاضرات جامعة الروح القدس، ١٩٧٠.

هي التي تتكرر في الوثائق وفي كتب الرحالة للدلالة على المناطق الممتدة من المتن حتى جزين . اما لبنان «جبل لبنان» فلم يكن التعبير حتى نهاية القرن الثالث عشر يعني اكثر من المناطق الشمالية التي يقطنها الموارنة : جبة بشرى، بلاد البترون، جبيل (كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ١٢). وحتى كسروان فانها كانت مقاطعة مستقلة، تذكر بصورة منفردة من جبل لبنان كما نلاحظ ذلك في كتابات (VOLNEY) عن رحلته في سورية في اواخر القرن الثامن عشر.

واما عن امتداد «الامارة المعنية» فهذا الامتداد ليس له اي دخل بلبنان الكبير او «الاكبر».. انه امتداد في التزام الضرائب وصل الى صفد وحمص وابواب دمشق.. من هنا كان الصراع مع ولاة المنطقة بصفتهم «الملتزمين» الأهم. وهذا الامتداد لا يمكن ان نفسره منهجيا الا باستخدام مفاهيم ابن خلدون عن العصبية والسلطة، فالعصبية التي تستطيع ان تستتبع العصبيات المجاورة هي العصبية التي تقوم كسلطة، ومن هنا اقرارها الشرعي (تعيينها) من قبل السلطان.

ان الدور الذي لعبته العصبية والتحالفات العائلية هو الذي جعل الانتماء المذهبي في ايام المعنيين يختفي ليبرز الانتماء العصبوي (قيسية ويمنية) حيث تنخرط الانتماءات المذهبية في الانتماء الحزبي - السياسي (العصبية). ولم يبرز الانتماء المذهبي - الديني «كعصبية طائفية» الا مع بداية تنصر الشهابيين، ولكن بشكل اساسي مع التغلغل الاوروبي الاقتصادي والثقافي وتفكيك لحمة المجتمعات الشرقية (ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر).

واللافت للنظر ان تعبير لبنان لم يستخدم بصورة واضحة الا للدلالة على جبل لبنان وبصورة خاصة ابتداء من تأسيس متصرفية الجبل. ويعبر الدكتور الصليبي عن هذه الفكرة بقوله : «لم تستعمل عبارة «لبنان» استعمالا رسميا محدد المضمون، الا بعد انشاء المتصرفية اللبنانية. فالمعنيون حين حكموا مناطق لبنان الجنوبية ثم وسعوا حكمهم في غضون القرن السابع عشر حتى شمل معظم المناطق الشمالية عرفوا بـ «امراء الدروز» لا «امراء لبنان» وكذلك عرف خلفاؤهم الشهابيون، بين ١٦٩٧ و١٨٤١ . مع ان هؤلاء لم يكونوا من الدروز وانما من السنة الذين تنصروا في ما بعد» (الصليبي ص ١٢) . وتذكر الدكتور النقاش ان لفظة «درزي» عنت بالاضافة الى الطائفة، انتماء سكنيا في «جبل الدروز»، من هنا قال بعض الرحالة عن الموارنة انهم دروزا وتحدثوا عن «اديرة الدروز» و«رهبان دروز». واما فيما يخص ملاحظة الدكتورالنقاش لاستخدام الوثائق تعبير «المسيحيين» والتذكير بان التعبير الذي كان يستخدم هو «نصارى» فصحيحة. ولكن الترجمة الفرنسية استخدمت تعبير (CHRETIENS) وكان المترجمان فيليب وفريد الخازن امينين للنص الفرنسي حرفيا كما ورد عند (DE TESTA) .

ويبقى الدكتور النقاش والقراء احرارا في مناقشة «مجموعة المحررات السياسية» والتي بمعظمها ترجمة عن مجلدات (DE TESTA) ومقترح نشر هذه الوثائق بصيغة الاعداد في مجلة «تاريخ العرب والعالم» مسؤول فقط عن ارائه الواردة في التقديم فقط. وهذه الآراء ثمرة جهد طويل في البحث كنا نرجو الدكتور النقاش ان يطلع عليها في الابحاث المختصة والمنشورة ومنها كتابي «الاتجاهات الاجتماعية - السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي» ١٩٧٦، ومنها ايضادراسة (D CHEVALLIER) القيمة : "Societé du Mont-Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe" paris, 1971

ومنها ايضا دراسة تاريخية سوسيولوجية اعدت في معهد العلوم الاجتماعية، الجامعة اللبنانية، ١٩٧٥ وعنوانها : «الملكية والعلاقات العائلية في جبل لبنان ابان العهد العثماني»، د. مسعود يونس.

نشكر اخيرا الدكتور زكي النقاش على اهتمامه بما نكتب، ونرجو منه ان يساهم في تخليص علم التاريخ في لبنان من المنهج السجالي الايديولوجي الذي يقع فيه معظم المؤرخين اللبنانيين.

■

ملف الوطن العربي

البحرين



جَوهَرَة في حُضن الخليج

إعداد "قسم التوثيق والأبحاث"



هناك في نقطة ما من على اليابسة، كان يتجمع الملاحون بعد رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر بين أراضي ما بين النهرين ومنطقة نهر السند. نقطة تتميز بالحماية الطبيعية، ووفرة المياه العذبة التي ألبست أراضيها الساحلية بالخضرة الكثيفة.

نقطة تسابق المؤرخون على وصفها بالنعوت المختلفة، منهم من قال عنها بأنها أرض مقدسة طهور، ومنهم من وصفها بلؤلؤة الخليج ومنهم من جعلها أنشودة الخليج الدائمة...

تلك النعوت المختلفة لم تكن سوى لمنطقة البحرين التي نقول عنها نحن بأنها «جوهرة في حضن الخليج» جوهرة لتمتعها بسواحل فياضة بالآلىء، وهي في حضن الخليج لكونها تتوسط منطقة الخليج العربي.

البحرين والحضارات الانسانية القديمة:

وفي جولة عبر العصور السحيقة، وجدنا بأن الانسان البحريني هو صاحب جذور عميقة في تاريخ الحضارة الانسانية تمتد إلى ما قبل التاريخ عبر خمسين ألف سنة[1].

فهو عرف حضارة العصر الحجري من خلال سكان بلاده الصيادين الذين كان لهم مواقع للسكن وجدت آثارها على جبل الدخان وعلى طول الساحل القديم.

كما أن هناك بعض الأدوات التي تعود إلى ٧٠٠٠ - ٨٠٠٠ سنة خلت، تنبىء عن وجود زراعة في الأجزاء الساحلية الغربية من جزيرة البحرين حيث توجد اليوم بعض النباتات المبعثرة. ومن العصر نفسه نجد أيضاً قطعاً من حجر الصوان مقطوعة بشكل أنيق على هيئة رؤوس سهام، وهذا يدل على أن الانتاج الزراعي كان يدعم بانتاج من لحوم الحيوانات التي كانت تصاد بالقوس والنبل.

وبينما نجد حضارة العصر الحجري في البحرين قد عرفتها غيرها من المناطق المجاورة، إلا أننا نجد بأن الانسان البحريني قد تميز عن غيره بأنه إلى جانب معرفته بحضارة العصور الذهبية والبرونزية والحديدية والتي تبدأ بالعصر الذهبي ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ قبل الميلاد، فانه استطاع أن يجعل من بلاده البحرين مدينة تجارية بارزة ومتقدمة تقدماً فائقاً ظلت لمدة تزيد على ألف سنة مهيمنة على التجارة البحرية في أقطار الخليج العربي.

وقد أيد علماء الآثار ذلك، وأكدوا على أن البحرين قد شهدت في تلك الفترة تطوراً كبيراً وإنها كانت بمثابة همزة وصل تجارياً وحضاريا بين العالمين المتمدنين آنذاك وادي الرافدين ووادي نهر السند (العراق والباكستان حاليا).

كان يطلق على الشعب الممارس لتلك التجارة البحرية (آلك ديلمون) أي شعب ديلمون. وديلمون هي أحد الأسماء الكثيرة التي عرفت بها بحرين اليوم. فهناك اسم تلمون (Tilmun) وبرديسو[2] (Paradeso) وتيلوس (Tylos) تيلوون (Tilwun) وجميع هذه الأسماء الأجنبية من الممكن أن تكون قد أطلقت على الجزر فقط، أما البحرين فقد عرفها مؤرخو العرب القدامى بأسياف البحرين[3] وأطلقوا عليها مختلف الأسماء المقدسة، كأرض الله وأرض البحر وأوال والمحرق.

وهذان الاسمان الأخيران فقد أطلقا على البحرين الحالية لتقديسها، فأوال صنم - بن وائل كانت تعبده وتدعو إلى تعظيمه، وقد عمت عبادة هذا الصنم أنحاء الجزيرة.

أما محرق، فهو صنم لعبد القيس وقد عرف باسم محرق لأن عبدته كانوا يقدمون إليه القرابين البشرية محروقة.

جميع هذه الأسماء الأجنبية منها والعربية إن دلت على شيء، فانما تدل على ما كان للبحرين من مكانة وقدسية لدى الشعوب التي استوطنتها. فهم على اختلاف مراحلهم، نجدهم يتفننون بابتداع الأسماء المقدسة ويطلقونها عليها. ونجدهم أيضاً يتغنون بها شعراً ينتقل إلينا عبر العصور والأجيال كشعر «آنكي» إله المياه العذبة الذي قال:

«بأنها أرض مقدسة طهور، لا ينعب فيها الغراب.. ولا يفترس الأسد، ولا أحد يمرض.. ولا أحد يشكو ولا أحد يقول: عيني تؤلمني.. رأسي يوجعني.. لا أحد يشيخ، ولا أحد يقول: المرأة تصبح عجوزاً.. الرجل يصبح كهلاً».

وبعد أن يبارك «آنكي» أرض ديلمون

بالماء العذب يمنحها كل فواكه الأرض

ذلك النص الشعري ما هو إلا تأكيد على ما جاء به المؤرخون من أن جزر البحرين كانت مقدسة، ويؤيد أقوالهم هيرودوت أبو التاريخ، فقد كتب منذ آلاف السنين بأن أهالي المناطق المجاورة كانوا ينقلون موتاهم إلى قبور لهم في جزيرتي تيلوس والمنامة وإلى المحرق في مواكب مقدسة.

البحرين .. الشاطىء الفينيقي الآخر.

لا يسعنا أن نختم حديثنا عن البحرين والحضارات الانسانية السابقة، ما لم نشر إلى الفينيقيين وعلاقتهم بأهل البحرين. يقول هيرودوت، أن الفينيقيين جاؤوا من الخليج العربي، وأصلهم من كنعان وموطنهم البحرين، فالقبائل الكنعانية سكنت منطقة «أرض الله». وعمرتها وأنشأت حضارتها، وفي أوائل الألف الثالث قبل الميلاد، هاجر قسم منها إلى بلاد الشام وسكنوا السواحل وعمروا الجبال وعرفوا هناك بالفينيقيين. وذكر سترابون الجغرافي وهو من أئمة الجغرافيين اليونانيين، أن أوال قد وجد فيها مقامات ومعابد قديمة هي من بقايا مدن فينيقية.

والدكتور جواد علي وهو من الثقاة في البحث التاريخي، يذكر بأن المقابر التي ظهرت في البحرين هي للفينيقيين.

ومما يقول الرحالة اللبناني أمين الريحاني في كتابه «ملوك العرب» صفحة ١٩٠، «أن علماء التاريخ وعلماء الآثار إذن متفقون مع الأنبياء، على أنه مهما كان أمر الأساطير وبعدها عن الحقائق فمن المعقول أن الفينيقيين وهم من الشعوب الشرقية السامية، ومن رجال الدين الأولين، نشأوا في جوار الخليج أو فيه، وكانت أسفارهم في البداية بين الهند والشام ومصر، ثم ظعنوا إلى سواحل سورية وخاضوا البحر الأبيض فوصلوا إلى قادش وبلاد الغال وأصبحوا في تلك الأيام الصلة التجارية الوحيدة بين الشرق والغرب الأقصى».

وأخيراً حري بنا أن نكتفي بهذا المقدار من الشواهد التاريخية على فينيقية البحرين، مفسحين المجال أمام محطات حضارية أخرى في تاريخ البحرين، معتمدين في ذلك على أنه ما ذكر من شواهد قد أصبح غني عن البيان والتأكيد بأن الخصائص الحضارية الأصيلة للشاطئين الفينيقيين - لبنان والبحرين - هي واحدة في أكثر من جانب[٤].

البحرين في العهد الاسلامي

«ليس بين مسقط والبصرة أجمل من مركز هذه الجزيرة. وليس أصلح منه للتجارة او للحرب. فهي تتوسط الخليج في زاوية حصينة منه كأنها بارجة راسية في جون متسع بين قطر والقطيف بل كأنها، وهي عند مهد اللؤلؤ، جوهرة في جيب الخليج. فلا عجب اذا تسابق اليها الفاتحون في قديم الزمان، وتنازعها من الأمم ذوات الصولة والعرفان»[٥].

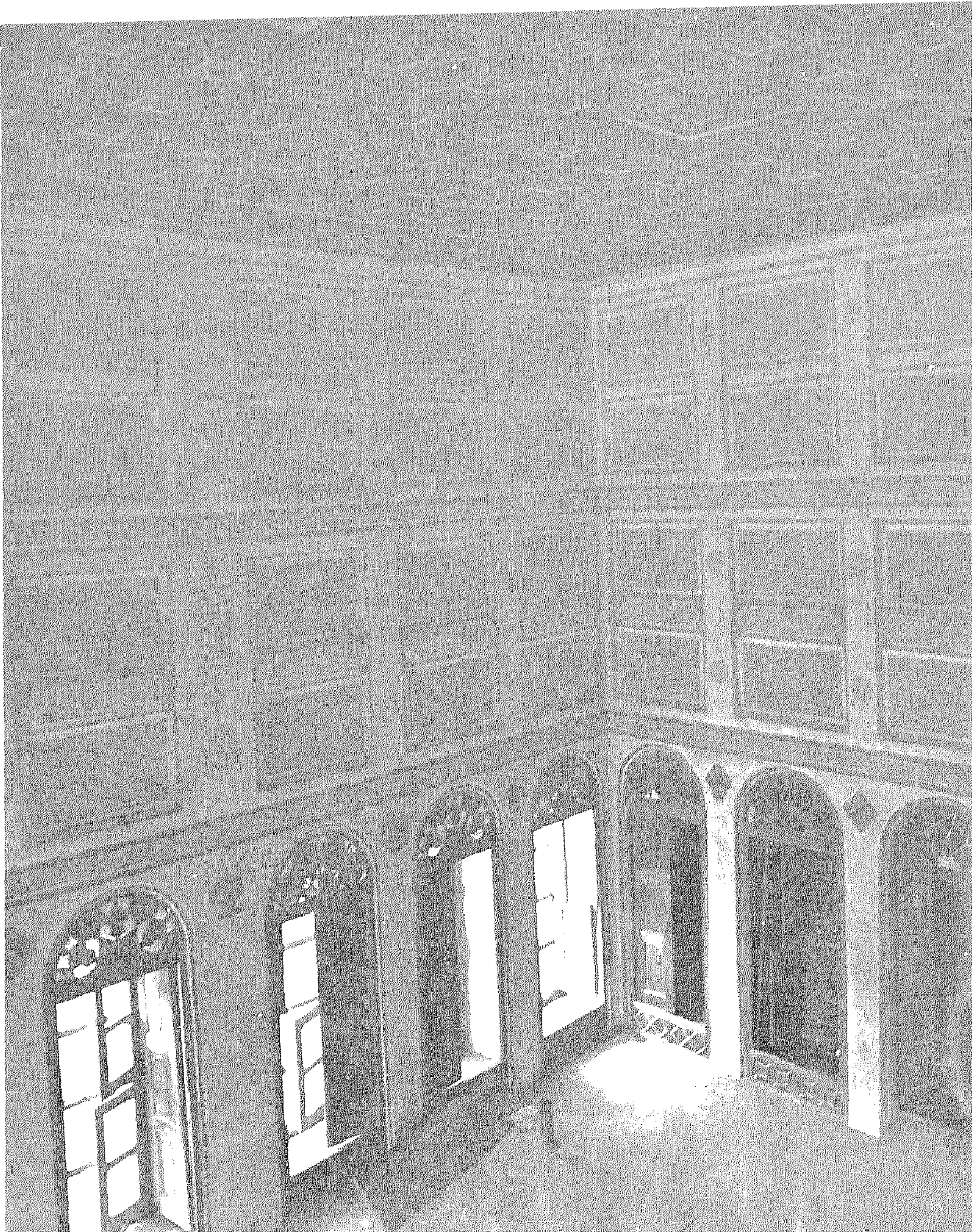
إن هذا الوصف الجميل الذي أتانا به الرحالة اللبناني أمين الريحاني عن البحرين لغني عن التعليق، وكل ما نستطيع قوله أن تلك البلاد قد دفعت ثمن جمال موقعها واستراتيجيتها غاليا، من خلال ما تعرضت له من حروب وغزوات.

فهي عرفت العصر الجاهلي من خلال قبائل عبد القيس ووائل ثم اعتنقت الاسلام في السنة السادسة للهجرة على يد مبعوث النبي (ص) وأحد صحابته العلاء بن الحضرمي، ولكن اهلها عادوا فارتدوا عن الاسلام بعد وفاة الرسول الكريم (ص) كما ارتد غيرهم من سائر انحاء الجزيرة، وقد أدت ردتهم الى خروج العلاء بن الحضرمي من البحرين ليعود اليها من جديد على رأس لواء من الجيش عقده له ابو بكر ليحارب به المرتدين وينتصر عليهم ومن ثم امره عليها استجابة لطلب اهلها.

دانت البحرين بعد ذلك للخلفاء الراشدين ثم لبني امية، وقد شهدت ابان حكمهم ثورات عديدة منها ثورة مسعود بن أبي ربيعة على عاملهم هناك وتغلبه عليه وتنصيب الأشعث بن عبد الله الجارودي والياً مكانه فحكمها تسع عشرة سنة.

وقد حاول الأمويون فرض سيطرتهم من جديد على الجزيرة، الا ان زمام الأمور كان قد فلت من ايديهم ليتسلمه العباسيون .. ويقيموا في البلدان والأمصار التي كانت تابعة للأمويين.

احتل عقبة بن مسلم البحرين من قبل ابي جعفر المنصور الخليفة العباسي. وظل عمال العباسيين حاكمي الجزيرة والاحساء حتى سنة



« المحرق »: الهندسة الاسلامية الرائعة

٢٤٩هـ - ٨٢٩م. عندما استولى عليها رجل يدعى صاحب الزنج(٦)، أحد الأنبياء الكاذبين، الذي خرج على رجال الدولة العباسية داعياً الناس الى طاعته. وكان اهل البحرين اول من أمنوا به ورفعوه الى مقام النبوة وجبوا له الخراج وقاتلوا عمال الخليفة.

وقد استمرت ثورة صاحب الزنج اكثر من اربع عشرة سنة اهرقت خلالها كثير من الدماء وشهدت البلاد الكثير من المآسي، وقد انتهت بمقتله سنة ٢٧٠هـ، تنفست بعدها البلاد الصعداء ولكن لمدة قصيرة لتعود وتشهد من جديد ظهور داعية متهور اخر هو ابو سعيد القرمطي، الذي جاء من خورستان الى الكوفة في العراق حيث اخذ يدعو فيها الى إمام من أهل البيت قيل انه محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق وقيل انه محمد بن الحنفيـة. وكان

القرامطة تارة يدعون لهذا وطوراً لذاك، وفي كلتا الحالتين فتنة على الدولة العباسية.

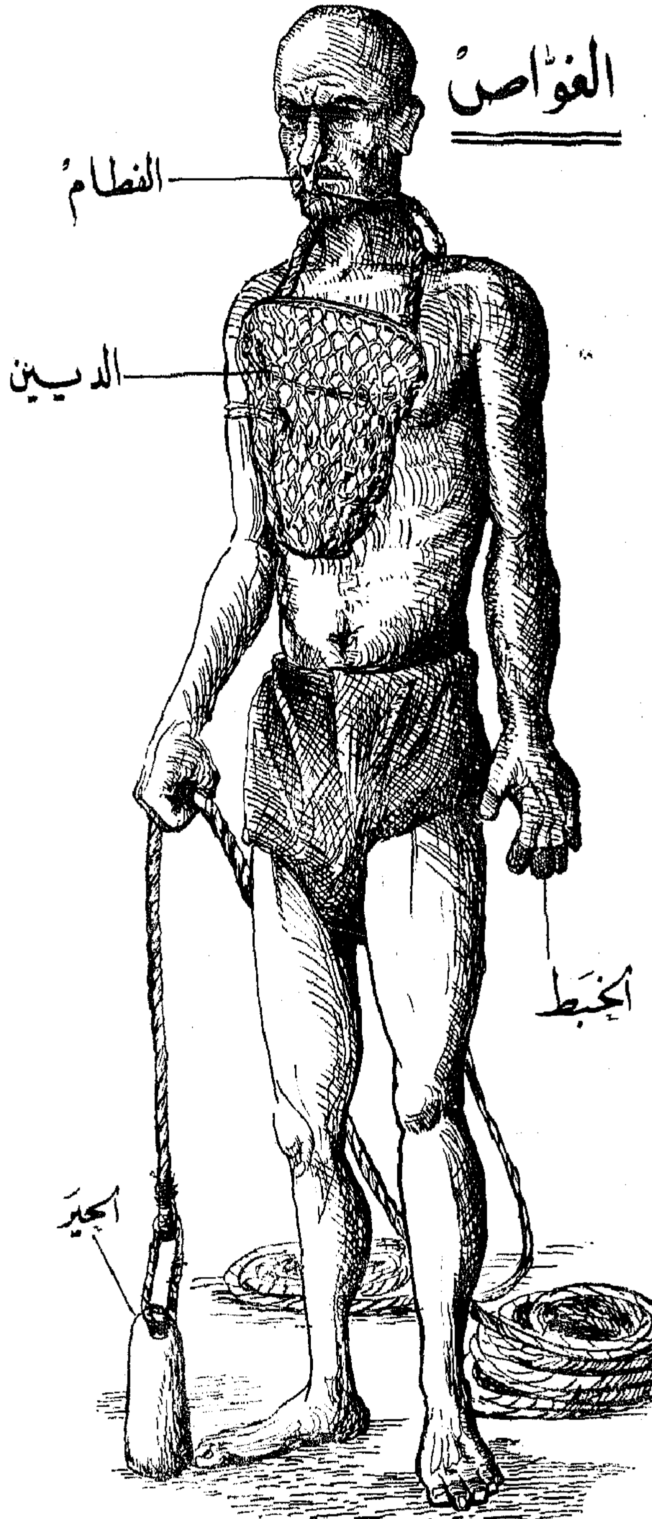
إشتدت حروب القرامطة على الخلفاء العباسيين وتعددت فظائعهم وانتزع زعماؤهم الملك من عمال العباسيين في عمان والحسا والقطيف والبحرين التي ظلت في حوزتهم الى ان ضعف أمرهم وبدأت سيادتهم تتلاشى وتسير نحو الزوال في منتصف القرن الخامس هجري حيث استطاع امير عربي هو عبد الله بن علي العيوني ان ينتزع الحكم من ايديهم وينشىء دولة العيونيين التي استمرت زهاء مئتين وخمسين سنة. ومن ثم ظلت البحرين حتى نهاية القرن الخامس عشر ميلادي تحكم حكماً قبلياً من قبل حكام واسر وطوائف عربية مستقلة من منطقة شرق الجزيرة العربية وسواحل الخليج العربي.

البحرين من البرتغاليين والفرس إلى آل خليفة.

احتل البرتغاليون البحرين سنة ١٥٢٢م. وحكموها حتى سنة ١٦٠٢م، حيث هزموا نهائياً من قبل أمير شيراز آنذاك الذي أرسل قوة عسكرية لمقاومة الاحتلال البرتغالي. وبعد انتصاره عليهم ضم البحرين إلى إيران باسم الشاه آنذاك. وجدير بالذكر أن الايرانيين كانوا أقوى منافس للبرتغاليين في الخليج في تلك الفترة.

واستمرت إيران تحكم البحرين بصورة غير منتظمة زهاء ١٨٠ سنة. وحينما استولى عليها فرع « آل خليفة » من شيوخ العتوب أو بني عتبة الذين نزحوا من الكويت إلى الزبارة في شبه جزيرة قطر سنة ١٧٦٦م. وطرد الوالي الايراني منها، أرسيت منذ ذلك العهد أسس حكم آل خليفة في البحرين الذي استمر عبر التاريخ وما ظل مستمراً حتى يومنا هذا بالرغم من جميع الهزات والاضطرابات التي رافقته.

والأسرة الخليفية التي تحكم البحرين، تنتسب إلى تغلب بن وائل بن قاسط بن بني ربيعة من العرب العدنانية ويلتقي نسبها بالرسول الكريم (ص) بنزار، وتغلب بها قبائل وبطون وأفخاذ، منهم بنو فرسان وبنو عنزة وآخرون، لذا فهم والحالة هذه من العروبة في الصميم.



الغواص وأدوات غوصه

بحرين .. اليوم .

يطلق اسم البحرين اليوم على مجموعة الجزر الواقعة في وسط الخليج العربي منفصلة عن ساحل قطر والقطيف وتشكل بمجموعها بلداً عربياً مستقلا ملتحماً بالحضارة العربية وبالكيان العربي الكبير الذي كانت البحرين جزأ منه منذ عهود موغلة في القدم . وأهم الجزر التي تتألف منها الدولة هي : -

المحرق وسترة والنبي صالح وأم النعسان وجزر حوار . أما البحرين فاسم يطلق على أكبر جزر الدولة وفيها العاصمة التي تعرف بالمنامة ويسمى ميناؤها بعروس الخليج الذي يقال بأنه من أجمل شواطيء العالم(٧) .

وسكان البحرين كغيرهم من سكان سواحل الخليج العربي ، عرب انحدروا من سلالات عربية كان بعضها يسكن تلك المناطق منذ عهد بعيد والبعض الآخر نزح عن الجزيرة العربية . ويوجد أيضاً بين السكان جاليات أخرى من إيرانيين وهنود وباكستانيين وبريطانيين أوروبيين وإفريقيين وغيرهم .

ويدين معظم السكان بالدين الاسلامي ، كما أنه يوجد بعض المسيحيين وقليل من اليهود وغير ذلك من أصحاب المعتقدات الأخرى .

آثار البحرين :

إن أبرز المعالم الأثرية في البحرين تتمثل في معابد باربار ، وقلعة البحرين ومسجد الخميس . هذا عدا ما تضمه جنبات متحف البحرين من آثار تدل على عظمة حضارات دلمون المتعاقبة .

معابد باربار :

إن هذه المعابد تغطي فترة حضارية يبلغ مداها مئات من السنين وتعود إلى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد . وهي معابد متعاقبة بني الواحد تلو الآخر . وأقدمها وأصغرها هو الذي يقع في بطن التل وقد بني من الأحجار الموجودة في جزيرة البحرين ذاتها ، بينما بنيت المعابد الأخرى من حجر كلسي جميل اقتلع من جزيرة جدة الواقعة في الشمال الغربي من ساحل جزيرة البحرين .

ولمعابد بربار علامات تشبه تلك التي تنتمي إلى حضارة وادي الهندوس في باكستان ، وكذلك إلى حضارة السومريين في العراق ، غير أن بناء تلك المعابد وما وجد فيها من آثار تدل بصورة واضحة على أن حضارة « دلمون » كانت منفردة بذاتها عن الحضارتين المذكورتين .

وهذه المعابد جميعها ليست إلا دليلا تذكارياً للشعب الذي أدار دفة التجارة عبر البحار في العصر الألفي الثالث ق . م .

قلعة البحرين :

إن أقدم مدينة في البحرين تقع مختفية تحت أضخم قلعة تاريخية التي هي قلعة البحرين القديمة . تقع هناك ست مدن فوق بعضها البعض على تل تغطية الرمال .

وفي سنة ١٥٢٢ م ، قام البرتغاليون بتوسيع قلعة قديمة كانت قائمة على رأس التل وأحاطوها بخندق جاف يبلغ طوله ثلاثين قدماً . وظل البرتغاليون يستخدمونها طيلة ثمانين عاماً ، حتى أنها ظلت تستخدم بين وقت وآخر حتى أوائل هذا القرن .

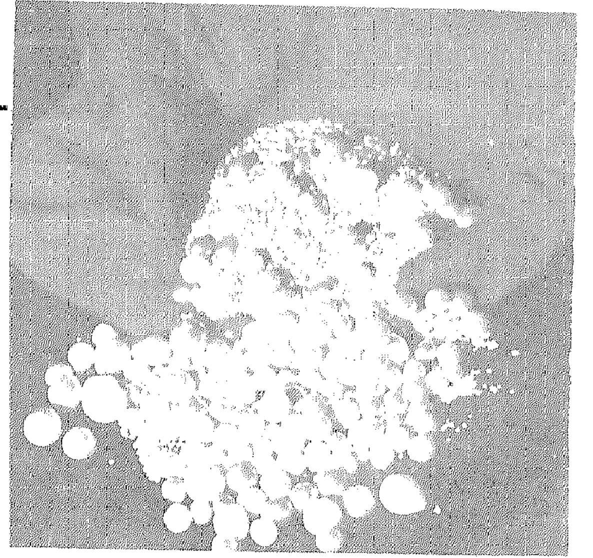
مسجد الخميس :

تشير الكتابات الأثرية في المسجد إلى أن تاريخ بنائه يعود إلى النصف الثاني من القرن الحادي عشر ميلادي ، وتنسبه إلى أبي سنان محمد ابن الفضل عبد الله ثالث وال عيوني يتولى حكم البحرين مع نهاية القرن الحادي عشر ميلادي .

وقد جدد المسجد مرتين ، المرة الأولى سنة ١٣٤٠ م ، كما تشير إلى ذلك الكتابات الحجرية التي وجدت في المسجد ، والمرة الثانية في القرن الخامس عشر . ويعتقد أن المنارتين اللتين يتميز بهما منظر المسجد قد أقيمتا أثناء التجديد الأول ، وبقايا المسجد الحالية تعود أيضا إلى زمن التجديد الأول ، إلا أن بقايا حجر القبلة هي من البناء الأصلي .

وإلى الجهة الجنوبية من مسجد الخميس وبعد القرية ذاتها يقوم مسجد بسيط في بنائه يعرف بالمسجد الرفيع . وأهم ما فيه كتابة كوفية احتفظت بوضوحها وهي تشبه كتابات مسجد الخميس ، وتنتسب من حيث النمط إلى الكتابات العباسية التي وجدت في مدينة سامراء التي يعود تاريخها إلى القرن التاسع ميلادي .

لايمكن أن ننهي حديثنا عن الآثار في البحرين دون التعرض لذكر أهم صناعتين تقليديتين رافقتا أهالي البحرين منذ غابر الأزمان وتعتبران من أهم الآثارات الحية التي لا زالت ترافق ابن البحرين . وهما صناعة



لا زال لؤلؤ البحرين يجذب أنظار التجار العالميين

اللؤلؤ وصناعة السفن .

ترتبط صناعة اللؤلؤ والغوص عليه بتاريخ البحرين ، فاللؤلؤ كان مصدر الدخل الرئيسي ومحور التجارة حتى قبل الثلاثينات بقليل . وقد عمل في صناعة اللؤلؤ معظم أهل البحرين من غواصين وتجار ومصدرين . وقد كان الغواص مادة دسمة لكثير من الحكايا والأساطير . وموسم الغوص كان من أكبر المواسم وأهمها في البحرين ، يشكل بحد ذاته مهرجاناً شعبياً ، إذ يخرج فيه الأهالي يقرعون الطبول ويهزجون - إلى حيث ترسو سفن الغوص بالألوف ، فيودعون الراحلين إلى أمكنة الغوص ويتمنون لهم التوفيق برحلتهم في موسم الغوص الجديد الذي يبدأ عادة في أوائل شهر حزيران (يونيو)(٨) .

أما صناعة السفن ، فهي لا زالت ترافق البحريني وتعتبر جزءاً من تراثه الشعبي ، فهي إلى جانب بديهيات صنعها لارتباطها بحياة البحريني المعيشية ، إلا أننا نجد بأن ابن البحرين قد حرص إلى حد ما على الطريقة القديمة في صنع بعضها كمراكب الدو (Dhow) ، التي ما زالوا يزودونها بالمجاذيف بدلا من المحرك الآلي . أما من علائم التجديد القليلة في طريقة صنعها فتظهر في استعمالهم للمسامير الحديدية بدلا من الخشبية التي كان يستعملها أجدادهم .

هذا ومما يحلو ذكره ، إلى أننا نجد تلك السفن (الفولكلورية) تمخر عباب مياه الخليج جنباً إلى جنب ناقلات النفط الضخمة .

الهوامش

١ - يوجد في البحرين حوالي مئة ألف مدفن أثري تحتل مساحة عشرين ميلا مكونة بذلك أضخم مقبرة في العالم من عصر ما قبل التاريخ . ويتراوح ارتفاع هذه المدافن بين متر وعشرين سنتيمترا إلى سبعة أمتار ، وارتفاع المدفن كان يستدل منه على مدى رخاء وغنى الشخص ، فكلما زاد ارتفاعه ، كان ذلك يعني أن الشخص أكثر ثراء .

ومن خلال ما تجمع من معلومات لدى أصحاب تلك التنقيبات الأثرية والتي رعاها حاكم البحرين السابق الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة وأبناؤه يمكن إعطاء فكرة واسعة عن تاريخ البحرين خلال عصور ما قبل التاريخ عبر ٥٠ ألف سنة .

٢ - اسم برديسو يقابل في العربية « الفردوس » وقد جاء ذلك في نص بابلي يعود إلى عام ٣١٧ ق . م . ويقول الدكتور جواد علي في كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام » إن هذه التسمية حملت بعض العلماء على التفكير بأن ما ورد في التوراة عن جنة عدن ، إن هو إلا أغاريد المنطقة التي تقع على سواحل الخليج العربي .

٣ - أسياف البحرين ، هو اسم جامع لبلاد على ساحل خليج بين البصرة وعمان وكانت هي وعمان في أيام بني العباس عملا واحداً . (أنظر تاريخ الأمم الاسلامية للشيخ محمد الخضري) .

٤ - للتوسع في هذا الموضوع أنظر « دليل البحرين التجاري » لعام ١٩٦٣ ، الذي يرجح بأن الفينيقيين الذين سيطروا على سواحل البحر الأبيض المتوسط وأوروبا وتحكموا في تجارة العالم ، لم يكن هؤلاء الفينيقيون سوى بحرينين ، نزحوا إلى لبنان ومنه استعمروا العالم بذكائهم واختراعاتهم مثل صناعة الزجاج الملون والأرجوان ثم اكتشاف الأحرف الهجائية .

وقد أكد ذلك أيضا المؤرخ اللبناني الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك من خلال محاضرة ألقاها في اليوم الأخير من المؤتمر العالمي الثاني للجامعة اللبنانية في العالم ، الذي عقد في بيروت في العشر الأخير من شهر آب عام ١٩٦٤ ، عن الفينيقيين اللبنانيين وأصولهم وفروعهم . وقد أنهى من خلالها كل جدل حول هذا الموضوع بتأكيده على أن البحرين هي موطن اللبنانيين الأوائل .

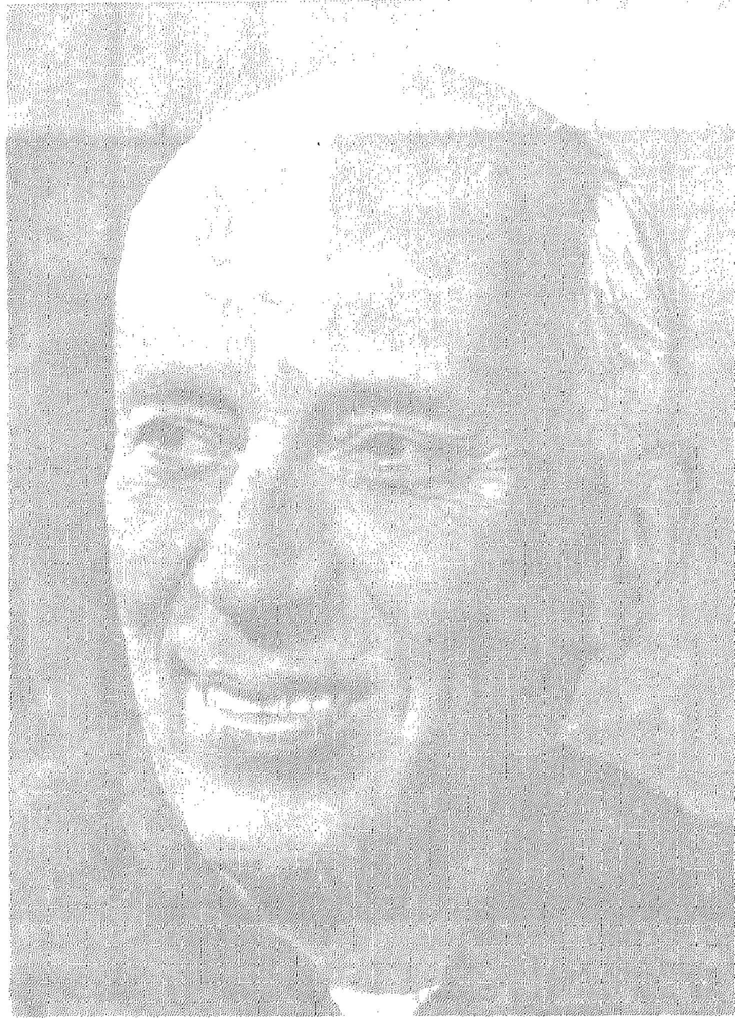
٥ - أمين الريحاني : ملوك العرب ، الجزء الثاني ، ص ٢٠٣ .

٦ - هو علي بن محمد بن عبد الرحيم بن عبد قيس .

٧ - مصطفى الدباغ : الجزيرة العربية ، ج ٢ - ص ٢٣٣ .

٨ - للتوسع في موضع صناعة اللؤلؤ أنظر : (Moslem World

Paul W. Harrison, Economic And Social Conditions In East Arabia. P. P. 167 — 170.



كيف يؤرخ نهرو لدخول الإستعمار الإنكليزي إلى الهند؟

لعل من المفيد وقد أصبح كلام نهرو الذي يمثل مرحلة تارخية معينة في نضال شعوب العالم الثالث - وثيقة تاريخية بحد ذاته - لعل من المفيد أن نسترجع نموذجاً من رؤية تاريخية للعلاقة بين الشرق والغرب وكيف يتمثل التاريخ، تاريخ الاستعمار وتاريخ العالم الثالث في فكر القيادات السياسية الشعبية لتلك المرحلة من تاريخ نضال شعوب آسيا.

وما تنشره فيما يلي هو عبارة عن رسائل لنهرو موجهة الى ابنته انديرا «مقتبسة من كتاب : لمحات من تاريخ العالم».

٥ ديسمبر ١٩٣٢



كتبت اليك من قبل ثلاث رسائل مطولة عن الهند في القرن التاسع عشر. وقصة الهند قصة طويلة تتضمن كفاحاً مروعاً متصلا فاذا اقتضبتها أكثر مما ينبغي فأخشى ما أخشاه أن أجعلها صعبة يستعصي فهمها.

ومن المحتمل أني أولي هذا العصر من قصة الهند اهتماما أكثر مما أوليه لأقطار أو عصور أخرى. وليس هذا أمر غير طبيعي، فلكوني هندياً فان اهتمامي بالهند أكثر من اهتمام غيري بها، ولكوني أعرف عن الهند أكثر



نهرومع شاعر الهند الكبير طاغور

مما يعرف غيري فاني أستطيع أن أكتب عنها كتابة وافية أكثر مما يكتب الآخرون . وبجانب ذلك فان أحداث هذه الفترة تعني بالنسبة لنا شيئاً أكثر كثيراً من مجرد اهتمام أو عرض تاريخي .

فالهند الحديثة كما نجدها اليوم قد تكونت وتشكلت في مطلع القرن التاسع عشر . فاذا شئنا أن نفهم الهند على حقيقتها فعلينا أن نعرف شيئاً عن القوى التي تضافرت على خلقها أو الاضرار بها ، فعن طريق هذا وحده نستطيع أن نخدمها بعقل وذكاء ، وأن نعرف ما يلزم أن نفعله ، وأي طريق يجب أن نسلك .

وأنا لم أنته بعد من الحديث عن هذه الفترة من تاريخ الهند ، فلا يزال لدى الكثير عنها مما أود أن أحدثك به . وأنا في هذه الرسائل أجعل موضوع الحديث نقطة أو أكثر ، ثم أعالج كل نقطة على انفراد لتكون أيسر فهما .

ولكنك تعرفين بطبيعة الحال ان كل التغيرات وضروب النشاط التي حدثتك عنها ، وكل التغيرات وضروب النشاط التي سأصفها لك في هذه الرسالة وما يليها من رسائل قد حدثت في وقت واحد تقريباً ، وأثر أحدهما في الآخر ، وأنتجت فيما بينها هند القرن التاسع عشر .

وقراءتك عن حسنات الانجليز وسيئاتهم في الهند تشعرك أحياناً بالغضب من السياسة التي اتبعوها ، ومن البؤس الذي انتشر نتيجة لهذه السياسة .

ولكن على من تقع تبعة ما حدث ؟ أليس الخطأ فيما حدث ناشئاً عن ضعفنا وجهلنا نحن ؟ فالضعف والجهل دعوة إلى الطغيان واغراء به . وإذا كان الانكليز يفيدون من وراء انقساماتنا وخلافاتنا ، فالخطأ خطأنا في أننا ننقسم على أنفسنا ونختلف فيما بيننا .

واذا كانوا يقسموننا ليضعفونا ، واذا كانوا يحققون مأربهم في ذلك باللعب على أوتار الأنانية الفاشية بين أحزابنا وطوائفنا المتنافرة ، فلا شك أن سماحنا بذلك هو في ذاته علامة على تفوق الانجليز . فاذا شئت أن تغضبي فاغضبي من الضعف والجهل والصراع المتبادل بين أحزابنا وطوائفنا ، لأن هذه الأشياء هي المسؤولة عن مشاكلنا ومآسينا .

ونحن نقول أنه ظلم الانجليز واستبدادهم . فظلم من ؟ واستبداد من في الواقع ؟ ومن يفيد منه ؟ لا يفيد منه كل الانجليز ، لأن ملايين منهم هم أنفسهم أشقياء مغلوبون على أمرهم . ومما

لا شك فيه أن في الهند طبقات وجماعات صغيرة قد أفادت قليلا من الاستغلال الانجليزي للهند . فأين نرسم الحد الفاصل إذن ؟

وليس الموضوع موضوع أفراد ولكنه موضوع نظام . فنحن نعيش تحت آلة هي آلة الاستعمار الجديد الذي هو نتيجة الرأسمالية الصناعية . فمكاسب هذا الاستغلال وأرباحه تذهب كلها تقريبا الى طبقات معينة . وبعض مكاسب وأرباح هذا الاستغلال تبقى في الهند ولكنها تؤول الى طبقات معينة أيضاً .

ولهذا يكون من الجهل أن نغضب من الأفراد أو من الانجليز عامة . فاذا كان النظام جائراً وضاراً بنا فان المصلحة تقضي بتغييره ، ولا يهم مطلقا من يديره ويشرف عليه ، فالنظام الفاسد يعجز فيه حتى خير الناس واكفأهم . ولا تستطيعين ، حتى لو رزقت أقوى إرادة في الدنيا ، أن تحولي الحجارة والأرض إلى طعام حسن مهما أجدت طبخها . وكذلك الحال ، على ما أعتقد ، مع الاستعمار والرأسمالية . فليس من المستطاع تحسينهما أو اصلاحهما ، والتحسين أو الاصلاح الحقيقي بالنسبة لهما هو في القضاء عليهما معا قضاء مبرماً .

هذا هو رأيي ، وإن كان البعض يخالفني فيه . ولست في حاجة إلى أن تأخذي أي شيء على أنه حقيقة واقعة . وتستطيعين ، عندما يحين الوقت ، أن تدرسي الأشياء وتكوني رأيك الشخصي عنها . ولكن معظم الناس متفقون على شيء واحد ، وذلك الشيء هو أن الخطأ في النظام ، وأنه لا فائدة ولا نفع من التضايق والغضب من الأفراد . فاذا اردنا تغييراً فدعينا نهجم على النظام ونغيره .

لقد رأينا بعض آثار النظام الضارة في الهند . واذا درسنا أحوال الصين ومصر وأقطار أخرى كثيرة فاننا نرى نفس النظام ونفس آلة الاستعمار الرأسمالي تعمل في استغلال أبناء هذه الشعوب .

أولى خطوات السياسة الانكليزية في الهند

وبعد فنعود إلى قصتنا . لقد أخبرتك عن المرحلة المتقدمة في صناعات النسيج الهندية الهندية عند ما أتى البريطانيون الى الهند . فمع التقدم الطبيعي في طرق الانتاج وبدون أي تدخل من الخارج ، كان من المحتمل ان تدخل آلات الصناعة الحديثة الهند ، فالحديد والفحم يوجدان في بلادنا ، وهذان ، كما رأينا في انجلترة ، ساعدا كثيراً في حركة التصنيع بها ، ومهدا لها الى حد ما . وهذا كان يمكن أن يحدث في النهاية ايضاً في الهند ، وإن كان حدوثه ربما تأخر قليلا نظراً للأحوال السياسية المضطربة .

على أية حال لقد تدخل البريطانيون في الأمر ، وكانوا يمثلون قطراً ومجتمعاً انتقلا وتقدما في الصناعة باستخدام الآلات الحديثة الكبيرة في الانتاج الصناعي .

وربما يظن الانسان ، لهذا ، أنهم يرحبون بحدوث تغيير مماثل في الهند أيضاً ، ويشجعون طبقة رجال الصناعة في الهند ممن كان يحتمل منهم جداً أن يمهدوا لهذا التطور . ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا القبيل ، وإنما فعلوا عكس ذلك تماماً . فقد نظروا إلى الهند نظرة منافس لهم في المستقبل ولهذا قضوا على صناعاتها ، ولم يشجعوا نمو صناعات الآلات الحديثة الكبيرة .

وهكذا نجد أحوالا عجيبة في الهند . فنحن نجد البريطانيين الذين هم أكثر شعوب أوروبا تقدما في ذاك الوقت يتخذون لأنفسهم حلفاء في الهند من بين أكثر الطبقات الهندية تخلفاً ومحافظة .فنراهم يساندون طبقة اقطاعية محتضرة ، ويخلقون طبقة من ملاك الأراضي ، ويؤيدون مئات الحكام الهنود غير المستقلين في دولهم نصف الاقطاعية . وفي الحقيقة نراهم يقوون النظام الاقطاعي في الهند .

ومع هذا فهؤلاء البريطانيون كانوا في أوروبا رواد ثورة الطبقة الوسطى أو الطبقة البورجوازية التي أعطت برلمانهم السلطة والقوة ، كذلك كانوا رواد الثورة الصناعية التي استحدثت في العالم الرأسمالية الصناعية . فبسبب قيادتهم وأسبقيتهم في هذه الأمور تقدموا كثيراً على منافسيهم ومزاحميهم وأسسوا امبراطورية مترامية الأطراف .

وليس صعبا أن يفهم المرء لماذا تصرف البريطانيون على هذا النحو في الهند ، فأساس الرأسمالية كله هو المنافسة والاستغلال ، والاستعمار مرحلة متقدمة من هذا . فالبريطانيون ومعهم القوة قتلوا منافسيهم الحقيقيين ، ومنعوا متعمدين ظهور منافسين آخرين ،

ولم يكن من الممكن لهم أن يصادقوا الجماهير ، لأن الهدف كل الهدف من وجودهم

في الهند هو استغلالهم لهؤلاء الجماهير، ولا عجب فمصالح من يقع منهم الاستغلال ومصالح من يقع عليهم الاستغلال ليست واحدة، ومن ثم وقع البريطانيون على من بقى من الاقطاعيين الذين كانوا لا يزالون في الهند. وهؤلاء لم تكن لهم قوة حقيقية حتى حينما جاء البريطانيون الى الهند، ولكن البريطانيين ساعدوهم وأعطوهم نصيباً ضئيلا في استغلال البلاد، وهذه المساعدة استطاعت أن تعطي فقط اسعافاً مؤقتاً لطبقة استنفدت زمن نفعها. وكانت هذه الطبقة تعتقد أن البريطانيين إذا تخلوا عنها، فأما أن تنهار وتتهاوى، وأما أن توفق بين نفسها وبين الأحوال الجديدة. وقد كان في الهند نحو ٧٠٠ دولة ما بين صغيرة وكبيرة معتمدة كلها على حسن نوايا البريطانيين. وأنت تعرفين بعض هذه الدول مثل حيدر أباد، وكشمير، وميسور، وبارودا، وكولوير إلخ. ولكن الغريب أن معظم حكام هذه الدول الهنود لم يتحدروا من طبقة الأشراف الاقطاعية القديمة، وهم في ذلك مثل معظم ملاك الأرض الكبار الذين لا ترجع تقاليدهم إلى عهد بعيد جداً. وعلى أية حال هناك حاكم واحد يستطيع أن يرجع بنسبه إلى ما قبل التاريخ، وذلك هو «المهارانا» حاكم يوديبور وزعيم القبيلة التي تسمى نفسها قبيلة الشمس، وربما كانت الشخصية الحية التي تضارعه وتنافسه من هذه الناحية هو ميكادو اليابان.

الانكليز وأديان الهند

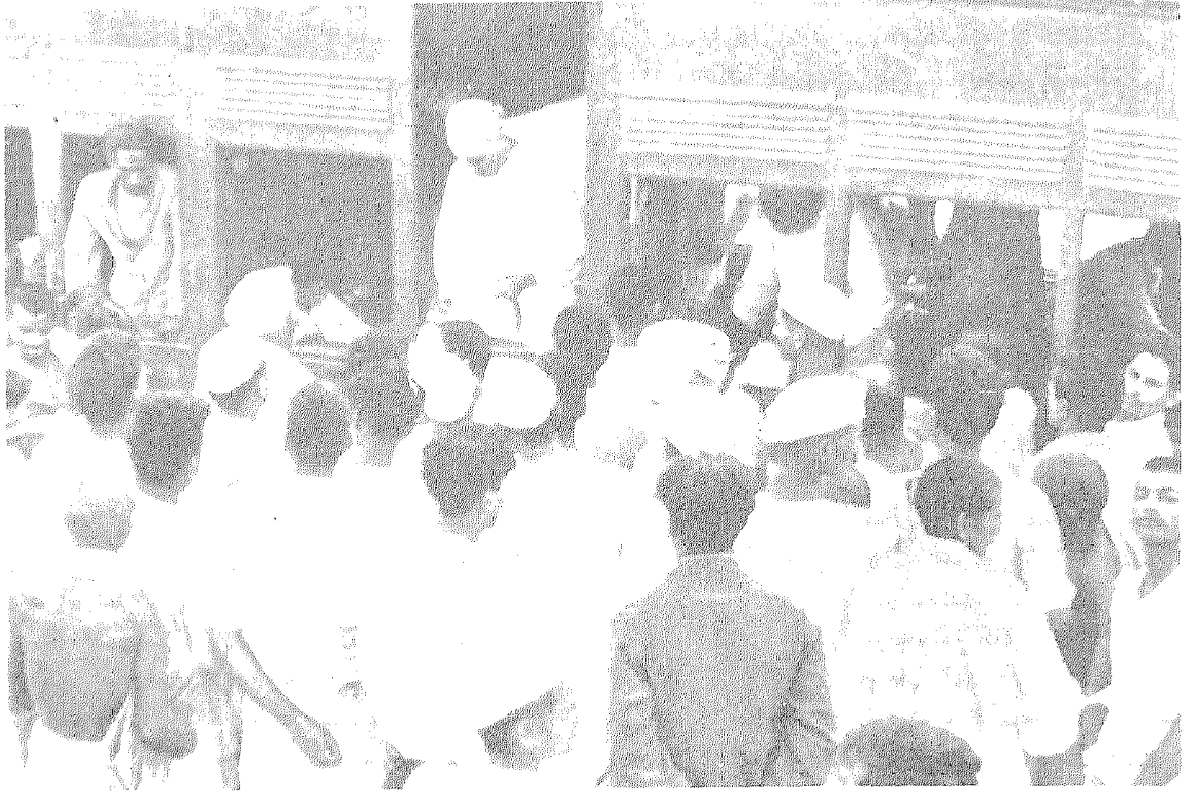
وقد ساعد الحكم البريطاني أيضاً الطوائف الدينية المحافظة. وهذا يبدو غريباً، فالبريطانيون يدعون اعتناق المسيحية، ومع ذلك فمجيئهم جعل الهندوكية والاسلام في الهند أشد صرامة وتصلباً. ورد الفعل هذا كان إلى حد ما طبيعياً، لأن الغزو الأجنبي من شأنه أن يدفع الأديان والثقافة في البلد المغزو إلى أن تحمي نفسها بالصرامة والتصلب. وقد حدث بنفس الأسلوب أن أصبحت الهندوكية أشد صلابة وأن قويت الطائفية العنصرية بعد الفتوح الاسلامية في الهند. والآن نرى أن الهندوكية والاسلام كليهما يقفان هذا الموقف الصارم المتصلب إزاء الانجليز الدخلاء. ولكن اذا تغاضينا عن هذه النقطة فاننا نرى حقاً أن الحكومة الانجليزية في الهند قد ساعدت عمداً ولاشعورياً العناصر المحافظة من المسلمين والهندوس.

ولم يكن اهتمام الانجليز منصباً على الدين أو على تغيير معتقدات الهنود وأديانهم وإنما كان اهتمامهم موجهاً إلى تحقيق الغنى والثراء. لقد كانوا متهيبين من التدخل في الشؤون الدينية خشية أن يؤدي تدخلهم إلى غضب الشعب فيثور عليهم. ولكي يتفادوا حتى مظنة التدخل بالغوا في حماية ومساعدة أديان الهند، أو بمعنى أصح بالغوا في حماية ومساعدة شعائر الأديان المظهرية. وكثيراً ما كانت النتيجة أن نرى الشكل الخارجي يبقى دون أن يكون بداخله أي شيء.

وهذا الخوف من إثارة المتشددين في الدين جعل الحكومة تقف بجانبهم في كل ما يمس شؤون الاصلاح، فكان في ذلك تعويق للاصلاح. وقلما تستطيع حكومة أجنبية أن تحدث اصلاحا اجتماعياً. لأن كل تغيير تحاول ادخاله لا يقابل من الشعب بالقبول والارتياح.

ومن نواح كثيرة كانت الهندوكية والقانون الهندوكي يتطوران ويتقدمان، ولو أن تقدمهما في العصور الحديثة قد أخذ في البطء بشكل ملحوظ. والقانون الهندوكي في جملته ينبثق من العادة، والعادات تتغير وتتطور وتنمو. وهذه المرونة التي تميز بها القانون الهندوكي قد تلاشت تحت الحكم البريطاني وحل محلها تشريعات قانونية غير مرنة وضعت بعد استشارة أكثر العناصر جموداً وتشدداً. وهكذا نرى القانون الهندوكي الذي كان ينمو نمواً بطيئاً قد أوقف نموه. أما مسلمو الهند فكانوا أشد استياء من الأوضاع الجديدة وانكاراً لها، ولهذا لم يكن أمامهم إلا أن ينعزلوا عن مجتمعهم وينطووا على أنفسهم.

وكثير من الفضل يعزى إلى الحكم البريطاني في إبطال عادة حرق الأرملة الهندوكية نفسها في النار الجنائزية التي تحرق فيها جثة زوجها. فالبريطانيون يستحقون بعض الفضل في هذا، ولكن الحكومة في الواقع لم تهتم بالأمر إلا بعد سنوات كثيرة من ثورة المصلحين الهنود بزعامة «راجا رام موهان روي»، ومن قبل البريطانيين قام حكام آخرون بتحريم هذه العادة، كما قام البوكيرك البرتغالي بالغائها في جوا. وقد ألغاها البريطانيون نتيجة لثورة الرأي العام الهندي ومجهودات المبشرين للمسيحيين.



بعد خروجه من سجن قلعة أميناكار ١٩٤٥

وعلى قدر ما اذكر أن هذا هو الاصلاح الوحيد الذي اضطلعت به الحكومةالبريطانية وكان له مغزى أو أهمية دينية.

وقد تحالف البريطانيون مع كل العناصر المتخلفة والمحافظة في الهند، ولم يألوا جهداً في أن يجعلوا من الهند قطراً زراعياً فقط ينتج الخامات اللازمة لصناعاتهم. وبعض الأقطار الأخرى أولت صناعاتها المحلية كل تشجيع واهتمام. فاليابان مثلا، كما سنرى فيما بعد، جرت أشواطاً بعيدة إلى الأمام في ميدان التصنيع. ولكن الحكومة البريطانية في الهند وضعت ما استطاعت من العقبات والصعاب في طريق الصناعات الهندية.

فنتيجة للضرائب التي فرضتها على استيراد الآلات الصناعية والتي لم ترفع حتى عام ١٨٦٠ كان بناء مصنع في الهند يتكلف أربعة أمثال ما يتكلفه نظيره في انجلترة، على الرغم من أن الأيدي العاملة في الهند أرخص منها في انجلترة. وكل ما تستطيعه سياسة التعويق هذه هو أن تؤخر حدوث الأشياء فقط، ولكنها لا تستطيع أن توقف سير الحوادث التي لا مفر منها.

ونحو منتصف القرن التاسع عشر بدأت المصانع التي تقوم على الآلات الحديثة تنمو في الهند، فصناعة الجوت بدأت في البنغال برأسمال بريطاني، وظهور الطرق الحديدية ساعد في نمو الصناعات، وبعد عام ١٨٨٠ أخذت مصانع النسيج التي أنشيء معظمها برؤوس أموال هندية تنمو وتكثر في بومباي وأحمد أباد. ثم بدأ التعدين والكشف عن المعادن. وباستثناء مصانع النسيج قامت حركة التصنيع البطيئة هذه معتمدة في جملتها على رأس المال البريطاني ويكاد يكون هذا على الرغم من الحكومة.

وقد تكلمت الحكومة عن سياسة السماح للأشياء بأن تأخذ طريقها الطبيعي، وكذلك عن سياسة عدم التدخل في المشروعات الخاصة، ولكن الحكومة تدخلت في التجارة الهندية في انجلترة وحطمتها بالضرائب الجمركية ووسائل التحريم عندما كانت هذه التجارة مزاحمة ومنافسة للتجارة البريطانية في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. ولما صارت السيادة والغلبة للتجارة البريطانية أمكن للحكومة ان تتحدث عن سياسة السماح بلأشياء

بأخذ طريقها الطبيعي وعدم التدخل في المشروعات الخاصة.

ومهما يكن من أمر فان الحكومة في الواقع لم يكن موقفها مجرد عدم اكتراق او مبالاة، فالثابت فعلا أنها عمدت الى سياسة تثبيط الهمم بالنسبة لبعض الصناعات الهندية وخاصة صناعة النسيج النامية في بومباي وأحمد أباد. فقد فرضت ضريبة جمركية على منتجات هذه المصانع الهندية، وسميت ضريبة رسم الجمارك على القطن. وكاالغرض من هذه الضريبة هو مساعدة مصانع المنسوجات القطنية الهندية. والمعروف ان كل دولة تقريباً تفرض بعض الضرائب الجمركية على بعض الواردات والمنتجات الأجنبية حماية لصناعاتها المحلية أو زيادة في دخلها. ولكن الحكومة البريطانية في الهند اقدمت على شيء مدهش جداً وغير مألوف. ذلك انها فرضت ضرائب جمركية على المنتجات الهندية نفسها! وعلى الرغم من شدة احتجاج الشعب وثورته ضد ضريبة رسم الجمارك هذه فانها ظلت مفروضة وحصلت حتى سنوات قريبة.

على هذا النحو ظهرت الصناعات الحديثة في الهند وانتشرت انتشاراً بطيئاً فيها. فالطبقات الأكثر غنى في الهند قامت بمشروعات كثيرة في سبيل التنمية الصناعية. وعلى ما اذكر أنشأت الحكومة مصلحة للتجارة والصناعة عام ١٩٠٥، وحتى هذه المصلحة لم تقم بأي كجهود يذكر حتى قامت الحرب العالمية الأولى. فنمو النشاط الصناعي هذا خلق طبقة من العمال الصناعيين هذا خلق طبقة من لعمال الصناعيين الذين اشتغلوا في مصانع المدن. وقد دفع ضغط السكان على الأرض الذي حدثتك عنه، والأحوال التي أدت الى شبه مجاعة في المناطق الريفية — أقول لقد دفع ذلك كثيراً من القرويين الى تلك المصانع وإلى المزارع التي كانت قد بدأت تنتشر في البنغال وأسام. وهذا الضغط أيضاً دفع الكثيرين الى الهجرة لأقطار اخرى طمعاً في الحصول على أجور عالية. وقد اتجهت الهجرة خاصة إلى جنوب افريقية، وفيجي وسيلان، وموريشس (Mauritius).

ولكن هذا التغيير والانتقال لم يفد أولئك العمال الهاجرين كثيراً، فقد عوملوا في بعض الأقطار كما لو كانوا عبيداً، وفي مزارع الشاي في أسام لم تكن حالتهم أحسن مما كانوا عليه من قبل. وقد اضطر الكثيرون بعد ما صادفهم من تثبيط العزيمة وعدم التشجيع أن يعودوا من المزارع إلى قراهم الأولى، ولكنهم لم يجدوا ترحيباً بهم في قراهم لعدم وجود ارض لهم يعملون فيها.

حياة الصناعيين الهنود التعسة

وسرعان ما وجد عمال المصانع ان أجورهم المرتفعة نسبياً لا تكاد تنهض بمطالبهم لارتفاع اسعار الحاجيات في المدن، ولكون تكاليف المعيشة فيها أعلى مما هي عليه في القرى. أما عن الأماكن التي اضطروا إلى السكنى فيها فلم تكن أكواخاً وعششاً بائسة قذرة رطبة فقط، بل كانت مظلمة غير صحية ايضاً.

كذلك كانت الأحوال التي يعملون تحت وطأتها سيئة قاسية، ففي القرى كثيراً ما كانوا يتعرضون للجوع القاتل ولكنهم كانوا يأخذون حظهم من الشمس والهواء النقي. أما وقد انقلبوا إلى عمال في المصانع فقد صار حظهم من الشمس ضئيلا جداً، ولا حظ لهم في الهواء النقي. وأجورهم لم تكن كافية لمقابلة تكاليف المعيشة المرتفعة. وحتى النساء والأطفال اضطروا ان يعملوا ساعات طويلة، واعتادت الأمهات اللائي يحملن أطفالهن على أذرعتهن ان يعطوهم ادوية منومة مخدرة حتى يتمكن من القيام بعملهن والتفرغ له.

وهكذا كان العمال الصناعيون يشتغلون بالمصانع في مثل هذه الحالات التعيسة المضنية. لقد كانوا اشقياء طبعاً، ولما عيل صبرهم بدأوا يتذمرون ويتبرمون، وأحياناً في حالات اليأس اضربوا بالامتناع عن العمل. ولكنهم كانوا ضعافاً عاجزين، وكان من اليسير على مستخدميهم الأغنياء مؤيدين من الحكومة ان يحطموهم إذا شاءوا. ولكنهم عرفوا شيئاً فشيئاً وفي بطء وبعد تجربة مؤلمة قاسية قيمة العمل المشترك الموحد، ومن ثم انشأوا اتحادات العمال.

لا تظنني ان هذا وصفاً للأحوال الماضية، فقد طرأت بعض تحسينات واصلاحات في أحوال العمل في الهند، كما صدرت بعض قوانين تضمن نوعاً من الحماية للعامل الفقير.

ولكنك إذا زرت «كونبور» أو «بومباي» او غيرهما من المناطق الصنايعة فانك ستجدين ان مساكن العمال لا تزال الى اليوم على حال من السوء تثير الفزع والأسى في قلب من يراها.



في مأتم المهاتما غاندي عام ١٩٤٨

السلطة الانكليزية الحاكمة وموظفوها

لقد كتبت اليك في هذه الرسالة وغيرها من الرسائل عن البريطانيين والحكومة البريطانية في الهند. فكيف كانت حال هذه الحكومة؟ وكيف كانت تمارس الحكم؟

فهناك كانت شركة الهند الشرقية أولا، ولكن البرلمان الانجليزي كان من ورائها. وفي عام ١٨٥٨ وبعد الثورة الكبرى تولى البرلمان الانجليزي مسؤولية مباشرة. وفيما بعد أصبح ملك الانجليز - أو بمعنى أصح ملكة الانكليز الجالسة على العرش وقتئذ - قيصرة الهند.

ففي الهند كان الحاكم العام الذي صار نائب الملك أيضاً في أعلى السلم، ومن تحته كان هناك جماهير وجموع حاشدة من الموظفين. وكانت الهند مقسمة كما هي الآن تقريباً إلى إمارات ودول. وكان مفروضاً في حكام الدول الهنود أنهم نصف مستقلين، ولكنهم كانوا في حقيقة الأمر معتمدين كل الاعتماد على الانجليز. وكان يعيش في كل دولة من الدول الكبرى موظف انجليزي يسمى «المقيم» له الرقابة العامة على الحكومة، ولم يكن يعنيه من شؤون الاصلاح الداخلي أي شيء، لا ولم يكن يهمه في كثير أو قليل أن تكون حكومة الدولة سيئة أو غير سيئة، أو أن تباشر سلطتها على طراز قديم أو حديث.

كل ما كان يعنيه ويهمه هو أن يمكن للسلطة الانجليزية في الدولة. وقد كان ثلث الهند تقريباً مقسماً إلى هذه الدول، أما الثلثان الآخران فكانت تحكمها الحكومة الانجليزية في الهند حكماً مباشراً. وكان كل الموظفين الكبار في الهند البريطانية من الانجليز، وقد ظل الأمر كذلك إلى ما يقرب من نهاية القرن التاسع عشر حينما بدأ بعض الهنود يتسللون إلى الوظائف الحكومية، وحتى مع هذا فان كل القوة والسلطة طبعاً بقيتا ولا تزالان باقيتين في أيدي الانجليز. وهؤلاء الموظفون الكبار، باستثناء العسكريين، كانوا أعضاء فيما يسمى بالادارة الهندية. وهكذا كانت كل حكومة الهند محكومة بهذه الادارة. والحكومة التي قوامها موظفون يعين بعضهم بعضاً، وليسوا مسؤولين أمام الشعب عما يفعلون تسمى حكومة موظفين أو حكومة «بيروقراطية».

ونحن نسمع كثيراً عن الادارة الهندية ومن فيها من أشخاص في غاية الغرابة والعجب،

وإن كانوا أكفاء في بعض النواحي. فهؤلاء نظموا الحكومة، ومكنوا للحكم الانجليزي، وانتفعوا هم أنفسهم كثيراً. فجميع المصالح الحكومية التي ساعدت في تدعيم الحكم الانجليزي وجباية الضرائب قد نظمت تنظيماً تتجلى فيه الكفاية، أما غير ذلك من المصالح الحكومية فأهملت.

ولما كان موظفو الادارة الهندية غير مسؤولين أمام الشعب ولم يعينهم الشعب في وظائفهم فانهم لم يوجهوا أي اهتمام أو عناية بالمصالح الحكومية الأخرى التي تهم معظم طبقات الشعب. ولما كان ذلك طبيعيا تحت هذه الظروف فانهم انقلبوا متعجرفين متغطرسين يستخفون بالرأي العام ويزدرونه. ومع أنهم كانوا ضيقي الأفق محدودين في نظرتهم، فانهم أخذوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أعقل العقلاء وأحكم الحكماء على الأرض.

وكان خير الهند يعنى في المنزلة الأولى بالنسبة لهم الخير الذي يعود عليهم شخصياً من الوظائف التي يعملون بها. وقد كونوا نوعاً من جمعية استلطاف واستحسان متبادل، يمدح فيها بعضهم بعضا، ويثني فيها هذا على ذاك، وذاك على هذا.. وقد أدت القوة والسلطة المطلقتان في النهاية إلى هذا، وأصبح موظفو الادارة الهندية أسياد الهند تقريباً. وكان البرلمان الانجليزي من البعد بحيث لا يستطيع التدخل في الأمر، وعلى أية حال فلم يكن هناك مناسبة لتدخله، لأن موظفي الادارة الهندية كانوا يخدمون مصالحه ومصالح الصناعة البريطانية. أما مصالح الشعب الهندي فلم يكن هناك وسيلة للتأثير عليهم في أن يولوها شيئاً من الرعاية ولو إلى درجة ما. وقد كان حتى مجرد النقد الواهن الخفيف يستثير سخطهم واستياءهم، ولهذا كانوا متعصبين لا يحتملون ولا يطاقون!

ومع هذا فقد عمل في الادارة الهندية كثير من الموظفين الأمناء الأكفاء، ولكن هؤلاء لم يستطيعوا أن يغيروا غرض السياسة المرسومة أو يحولوا التيار الذي كان يدفع بالهند أمامه دفعاً. فموظفو الادارة الهندية كانوا، بعد كل ما ذكر، عملاء رجال المال والصناعة في انجلترة ممن كان همهم الأساسي استغلال الهند.

وقد ازدادت كفاية حكومة الهند البيروقراطية هذه في كل ماله اتصال بمصالحها الخاصة ومصالح الصناعة البريطانية. أما نشر التعليم والصحة وانشاء المستشفيات والاضطلاع بضروب النشاط الأخرى الكثيرة التي من شأنها أن تنشىء شعباً سليما متقدماً، فكان حظها الاهمال كل الاهمال. ولم يكن هناك تفكير في هذه الأشياء إلى عهد قريب. فمدارس القرى تلاشت واندثرت. ثم بدأت الحكومة تنشر التعليم في بطء وعلى غير ارادة منها مدفوعة الى ذلك بمطالبها الخاصة. فالموظفون الانجليز قد احتلوا كل الوظائف العالية، ولكنهم لم يستطيعوا أن يملأوا الوظائف الصغيرة أو الكتابية. ولما كانت الحكومة في حاجة إلى كتبة، فقد أنشأ الانجليز المدارس والكليات في أول الأمر لتخريج الكتبة وصغار الموظفين. ومنذ ذاك التاريخ أصبح هذا غرض التعليم الأساسي في الهند، وغالبية من أخرجهم هذا النظام التعليمي كانوا صالحين للأعمال الكتابية فقط. ولكن سرعان ما صار عدد الكتبة المتخرجين في المدارس والكليات أكثر مما تستوعبه دواوين الحكومة والمصالح الأخرى. ومن ثم ترك كثيرون منهم بلا عمل فكونوا طبقة جديدة من المتعطلين المتعلمين. وقد كانت البنغال أسبق من غيرها في التعليم الانجليزي الجديد. ومن أجل ذلك كانت الكثرة الغالبة من الكتبة في أول الأمر بنغاليين.

وفي عام ١٨٧٥ أنشئت ثلاث جامعات في كلكتا، وبومباي، ومدراس. وهناك حقيقة تستحق التسجيل، وهي أن المسلمين في الهند لم يتحمسوا للتعليم الجديد أو يتقبلوه، ولهذا تخلفوا في سباق الكتبة والوظائف الحكومية. وقد أصبح ذلك فيما بعد سبباً من أسباب شعورهم بالغبن وعدم المساواة.

وهناك حقيقة أخرى تستحق التسجيل، وهي أن البنات أهملن إهمالا تاماً من حيث التعليم حتى عندما بدأت الحكومة تضطلع بنشره. ولم يكن ذلك بالأمر المدهش أو المستغرب، لأن الغرض من التعليم الذي كانت تنشره الحكومة هو، كما ذكرت آنفاً، اعداد طبقة من الكتبة وكان الكتبة الرجال هم المطلوبون وقتئذ، نظراً للتقاليد الاجتماعية المتخلفة. ومن ثم اهملت البنات اهمالا تاماً، ولكن حدث بعد ذلك بزمن طويل أن بدأت العناية قليلا بتعليمهن.

A Study of NEHRU Bombay

أسماء الشهور العربية
ما هو مصدرها؟

كلنا يعرف ان السنة القمرية مكونة من ١٢ شهراً قمرياً أي ٣٥٤ يوماً و٨ ساعات و٤٨ دقيقة. فالشهر القمري ٢٩ ١/٢ يوما. فأخذت الشهور ٢٩ و٣٠ يوما على التوالي.

والتقويم الهجري قمري خالص طول العام. فيه ٣٥٤ او ٣٥٥ يوماً. ولا علاقة للشهور بفصول السنة.

والشهور العربية او القمرية هي: المحرم، صفر، ربيع الأول، ربيع الآخر، جمادى الأولى، جمادى الآخرة، رجب، شعبان، رمضان، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة.

أما لماذا اطلق العرب هذه الأسماء بالذات على الشهور القمرية، فهناك اكثر من تفسير وأكثر من تعليل، ذكره فقهاء اللغة والمؤرخون.

■ أن **المحرم** أول الشهور العربية سمي بهذا الاسم لأن العرب كانوا يحرمون فيه القتال والحرب والغارات.

■ وسمي **صفر صفراً** لوباء كان يعتريهم فيمرضون وتصفر الوانهم. وقيل انما سمي الصفر لأن الأسواق التي كانت باليمن تسمى «الصفرية»، وكانوا يمتارون فيها. ومن تخلف عنها هلك جوعا. وفي ذلك قال النابغة الذبياني:

إني نهيت بني ذبيان عن أفق
وعن تربعهم في كل أصفار

وقيل ايضاً انه سمي الصفر لأن المدن كانت تخلو فيه عن اهلها بخروجهم الى الحرب. وهو مأخوذ من قولهم: أصفرت الدار منهم إذا خلت.

■ وسمي **شهرا ربيع الأول وربيع الآخر،** للزهور والأنوار وتواتر الأندية والأمطار. وهو نسبة الى طبع الفصل الذي نسميه نحن «الخريف» وكان العرب يسمونه «ربيعا». وقيل ايضا سمي ربيع الأول وربيع الآخر لارتباع الناس والدواب عينهما، فان قيل قد توجد الدواب ترتبع في غير هذا الوقت، قيل قد يمكن ان يكون هذا الاسم لزمنهما في ذلك الوقت، فاستمر تعريفهما بذلك مع انتقال الزمان واختلافه.

■ وسمي **شهرا جمادى الأولى وجمادى الآخرة** لجمود الماء فيهما حين جاءت السيرات ووقع الجليد والضريب، وهو فصل الشتاء في الزمانالذي سميت به هذه الشهور. لأنهم لم يعلموا ان الحر والبرد يدوران فتنتقل اوقات ذلك.

■ وسمي **رجب رجباً** لأنه قيل فيه «أرجبوا» أي كفوا عن القتال والغارات لأنه شهر حرام. وقيل انما سمي الرجب لخوفهم اياه. فيقال «رجبت الشيء» إذا خفته.

■ وسمي **شعبان شعبان** لتشعب القبائل فيه الى مياههم وطلب الغارات.

■ وسمي **شهر رمضان** لأن الحجارة كانت ترمض فيه من شدة الحر في ذلك الوقت. والوجه الآخر انه أسم من اسماء الله تعالى ذكره. ولا يجوز ان يقال رمضان وانما يقال شهر رمضان.

■ وسمي **شوال** لارتفاع الحر وأدباره. وقيل بل سمي بذلك لأنه قيل فيه «شولوا» أي ارتحلوا.. وقيل ايضا بل سمي بذلك لأن الأبل كانت تشول فيه في ذلك الوقت، إذ نابها من شهوة الضراب ولذلك كرهت العرب التزويج فيه.

■ وسمي **ذو القعدة** لقعودهم فيه عن الحرب والغارات وللزومهم منازلهم.

■ وسمي **ذو الحجة** لأن الحج فيه.

●

الهادي إلى الحق

د. سهيل زكار

لقد لقنت الثورة العباسية جميع الأحزاب الاسلامية التي طمحت لحيازة السلطة درسا بليغا للغاية، كان من بنوده توجب اختيار المناطق النائية عن مركز الخلافة للنشاط ضدها، وهكذا نلاحظ أن الذين ثاروا على الدولة العباسية في بلدان الأطراف مثل الأندلس وشمال إفريقية واليمن حققوا قسطا وافيا من النجاح، ومن المعلوم أن جل المسلمين الذين ثاروا على الدولة العباسية انتموا إما إلى أحزاب الشيعة أو الخوارج.

وأحزاب الشيعة كما هو معلوم صدرت على ثلاث مجموعات رئيسية، اثنتان كبيرتان وثالثة أدنى، والمجموعة الأولى ارتبطت بالحسن بن علي وأولاده، والثانية هي التي ارتبطت بالحسين بن علي وآله، والثالثة جماعات الكيسانة التي نادت بامامة محمد بن الحنيفة ثم بعض أولاده من بعده.

وعندما يطالع المرء تاريخ العصر الأموي يجد أن أفراد الأسرة الحسينية هم الذين حملوا راية الثورة الشيعية ضد الأمويين، إنما مع قيام الدولة العباسية نشط آل الحسن بعد طول صمت وانتظار وفجروا عدة ثورات كبيرة، ويبدو أن آل الحسن بن علي قد عظم عددهم وباتوا يكونون عدة أسر ضخمة كان من أبرزها أسرة عرفت باسم الأسرة الرسية، نسبة إلى مكان سكناها الذي عرف بالرس، وهو قرية على مقربة من المدينة المنورة.

لقد اهتم عدد من أفراد هذه الأسرة ببلاد اليمن ونشطوا فيها سياسيا وفقهيا، ثم أن أفراد هذه الاسرة تبنوا مذهب الأمام زيد بن علي وطوروه، وعلى أيديهم انتشر هذا المذهب وظل قائما يعمل به خاصة في اليمن، وكان من أشهر رجالات الأسرة الرسية القاسم بن ابراهيم (١٧٠ - ٢٤٢هـ) الذي كان عالما كبيرا له آراء قيمة في المذهب الزيدي، كما كان مطلعا على مذهب الامام أبي حنيفة. وأشهر من القاسم وأعظم دوراً في تاريخ اليمن وتاريخ الاسلام حفيده يحيى بن الحسين بن القاسم الذي عرف بلقب الهادي إلى الحق، ذلك أنه نجح حيث أخفق جده، وأسس مركزاً عظيما لأسرته في اليمن ظل قائما سياسيا قرابة الألف سنة ولم ينقطع دينيا بل ما زال مستمراً.

لا ندري سنة ولادة الهادي إلى الحق، لكن لربما كان ذلك ما بين (٢٣٠ - ٢٤٠هـ)، ولقد تهيأ له نيل ثقافة دينية عالية للغاية، وهذا واضح في سيرة حياته وفي التراث الذي خلفه لنا، وجمع الثقافة شجاعة وإقداماً ومثالية كبيرة في العمل، وتشبه بجده المصطفى، لهذا عندما بلغ من العمر الأربعين شعر بأنه مؤهل للامامة، متمتع بصفات كاملة، لهذا رأى أنه وجب عليه الخروج وذلك حسب مبادىء العقيدة الزيدية.

وقام الهادي بمراسلة شخصيات المدينة وسواها « يدعوهم إلى طاعة الله تعالى والمجاهدة لأعدائه والمناصرة لأوليائه، والاظهار لدينه والاحياء لسنن نبيه، ويعلمهم فيها بأن حجج الله قائمة عليها فليخافوا في سرهم وعلانيتهم وليجيبوا داعي الله »، وقد شجعه على ذلك استلامه لمراسلات وصلته من بعض جهات اليمن تدعوه للقدوم والخروج بها.

وفي سنة ٢٨٠هـ استجاب الهادي لدعوة اليمنيين له، فذهب إلى اليمن ووصل إلى مقربة من صنعاء، لكن الحظ لم يحالفه، فعاد أدراجه إلى بلده، حيث ظل إلى سنة ٢٨٣هـ، فتلقى من جديد دعوات ملحة من عديد من جهات اليمن، فاستجاب لها، وتوجه مجدداً نحو اليمن، فوصل إلى صعده سنة ٢٨٤هـ وأخذ يعمل فيها محاولا تأسيس دولة موحدة تحت لوائه، واتخذ لنفسه لقب الهادي إلى الحق، وبات اتباعه ينادونه بلقب أمير المؤمنين.

وكانت اليمن في اواخر القرن الثالث ممزقة تتنازع الأمور فيها عدة قوى محلية وخارجية، ثم أن الهادي إلى الحق، لم يكن صاحب الدعوة

الشيعية الوحيد في اليمن، فقد كان هناك دعاة الاسماعيلية الذين حققوا نجاحات خطيرة، وفجروا ما يعرف بثورات القرامطة خاصة بين قبائل بلحارث ويام.

ولمدة خمسة عشر عاماً، أي حتى سنة وفاته في ٢٩٨هـ بذل الهادي غاية جهده للسيطرة على اليمن جميعها، لكن التوفيق لم يحالفه بشكل عام، حيث أنه لم يتمكن من القضاء على القرامطة، وأخفق في نيل وإخلاص عدد كبير من سادة القبائل وأصحاب القلاع الجبلية في البلاد.

ورغم هذا فهو قد أقام لأسرته قاعدة دينية سياسية، لذلك إذا اعتبرنا نجاح الهادي السياسي في اليمن محدوداً، فان نجاحه الديني كان واسعاً ومهماً، فالهادي رغم أنه كان من اتباع الامام زيد، كان مجدداً في هذا المذهب، ومطوراً له، وفي الحقيقة ليس من المغالاة أبداً أن نقول أن ما يعرف باسم المذهب الزيدي في اليمن، هو أحق أن يدعى مذهباً هدوياً، أكثر من أي شيء آخر.

وتجربة المذهب الزيدي الهدوي في اليمن تستحق الدراسة بشكل عميق، لأنها التجربة السيعية الوحيدة التي جمعت بين معطيات العقل وتراث النبوة. ■

رأي

الدكتورة أمان شعراني مديرة كلية التربية الفرع الأول الجامعة اللبنانية.

تحية طيبة

إنه لمن دواعي الغبطة، وليس ـ ا بمستهجن، أن تلد في لبنان، »بلد الذي وقف على شرفة التاريخ، يرقب تلاقي الحضارات على أرضه، فأثرت فيه وفيها أثر، اغتنى بها وزادت به غنى، أن تلد مجلة تعنى بتاريخه وتاريخ العرب والعالم، فتعيد بهاء الصورة الأصيلة، وتنزع الزيف والتحريف وتجعل من المواطن العربي إلى أي قطر انتمى يعتز بتاريخه وحضارته ويفخر بماضيه.

وإذا كان القصد الافساح لهذا المواطن أن يطل على ماضيه فيؤخذ بعظمة ما أعطى قومه، فيجب أن نتجاوز هذا القصد المخدر، إلى عملية تفاعل بين الماضي والحاضر تشكل عنصر دفع وحافزاً جديداً للاقتداء بالسلف وتحدي الواقع الحضاري القائم بفهمه ومحاولة مماشاته والسبق عليه.

وإننا تحقيقاً لهذه الغاية تمنينا على هيئة اساتذة شعبة التاريخ في كليتنا المشاركة في الموضوعات التاريخية في حدود اختصاصاتها وكلما طلب إليها ذلك كما نأمل مستقبلا أن تلقى المجلة رواجاً بين طلاب الكلية بعامة وشعبة التاريخ بخاصة، كما إننا قد اشتركنا بعدد من المجلة لهذا العام ونأمل المساهمة عن طريق الاشتراك بأعداد أكثر في المستقبل.

وختاماً لابد من تسجيل إعجابنا وتقديرنا لحضرات الاساتذة الذين يوفرون للمجلة موضوعات تاريخية قيمة تعتمد الثقافة التاريخية وتعميمها متمنين مجانبة السرد التاريخي واللجوء إلى التحليل والتمحص بالخبر والتأكيد على الاسناد والمصادر والمراجع، وربط الحدث التاريخي بالواقع الحياتي لأن هدف التاريخ إضافة إلى حفظ التراث، هو استخراج المبادىء والقيم للاستفادة منها في حل مشكلاتنا السياسية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية المعاصرة.

أمان شعراني

نشكر للاستاذة الدكتورة أمان شعراني مديرة كلية التربية – الفرع الأول – الجامعة اللبنانية، رسالتها هذه ومضمونها النبيل مؤكدين أننا نبذل كل جهدنا واهتمامنا لتكون عند حسن ظن المسؤولين التربويين في العالم العربي كافة وكل اختصاصي في التاريخ أو طالب له بل وكل مثقف عربي يهتم بتاريخ وطنه وبتاريخ العالم.

من قضايا الحرب العالمية الثانية

عميل لوريان

إعداد: هدى سكاكيني بربير



لوريان. القاعدة البحرية المحصنة بجدار جبار من الاسمنت.



الحرب السرية التي تتطور يوما بعد يوم على امتداد العالم، حرب لها أبطالها. والقصة التي يرويها هنا بول دريفوس، كاتب «قصص المقاومة المثيرة» وكما ترويها كتب اخرى هي مأساة ضابط في البحرية كان يعمل في قاعدة الغواصات الالمانية في «لوريان» الفرنسية، وقد ادهش عندما اكتشف حقيقته، كل من عرفه.

– عميل... عميل... عميل...

كانت هذه الكلمة تنتقل من فم الى اذن، او تطلق بصوت عال عندما لا يكون هناك اثر لبزة خضراء – رمادية وما زالت تتردد دون كسل يوما بعد يوم، وهي تهمه لازمت المهندس «جاك ستوسكويف» في كل مكان.

ففي كل مكان ذهب اليه كانت هذه الكلمة تلاحقه كالسهم.

انه صنيعة الالمان.

هكذا كان يقول عمال ورش السلاح وكانت المدينة تردد: – انه صديق البوش. انه خائن.

اما هو فكان يسير بخطى ثابتة ونظرة جامدة بشفتين مطبقتين وملامح قاسية وكأنه لا يسمع هذه الاشاعة التي لم تنفك تنتقل في أنحاء المدينة الممزقة. كان يسخر من كل ما يقال عنه. ولا شيء كان يستطيع تحريك لامبالاته.

دخلت زوجته يوما احد المخازن لتفاجأ بصاحبه يقول لها بقسوة:

– انني ارفض خدمتك يا سيدتي؟

– ولماذا؟

– لانك زوجة عميل.

وامتقع لونها عندما سمعت هذه الاهانة واضطرت الى ترك المدينة والذهاب للعيش في «كيمبير».

ولكن زوجها بقي في «لوريان» حيث كانت مظاهر العداء تكبر شيئا فشيئا، ووصلت الى الذروة في تشرين الاول ١٩٤٢ عندما أجبر ٢٤٦ عاملا من ورش السلاح على الذهاب للعمل في المانيا. وقرر المهندس «ستوسكويف» اقتيادهم بنفسه، وكان ذلك الدليل القاطع في أعين الناس على تعامله الكامل مع العدو.

في المحطة تجمعت العائلات لالقاء تحية الوداع على ابن او خطيب او أخ أو صديق. ومن دون الاكتراث بالقوات الالمانية أنشد سكان «لوريان» المرسيليز، ثم النشيد العمالي. وعندما تحركت القافلة تعالت الاصوات بالصراخ:

– الموت لستوسكويف.

ولقد تعرف عليه بعض العمال وهو في مقصورته في الدرجة الأولى برفقة ضابط من البحرية الفرنسية هو الكابتن البحري «بيكام» قائد المنطقة بالوكالة. وتجاهل ستوسكويف القبضات المرفوعة في وجهه وبقي دون حراك كمن لا يسمع الشتائم المتوجهة اليه.

٢٤٦ بدلا من ٦٠٠

رافق القافلة حتى «فيسر مونده» وهي مرفأ متقدم في «بريم» على ضفاف «الفيسر»، حيث قرر الرايخ الثالث تطوير مواقعه البحرية. وقد قال سكان «لوريان» ان الالمان طلبوا ٦٠٠ عامل رفضوا كلهم الذهاب. وعندئذ طلب «بيكام» من «ستوسكويف» إجراء مفاوضات ولاعتقاده بأنه من غير الممكن مقاومة هذا الأمر مهما كانت الوسائل، حاول المهندس تحديد الموقف.

– اذا أقدمتم على افراغ مكاتب العمل فان ورش السلاح ستبقى دون اية امكانية لمتابعة نشاطها.

هكذا حاول اقناع محاوريه الألمان.

– ولا تنسوا ايضا أن ذلك سيكون سببا لايقاف العمل كليا في المنشآت الجديدة. وأزيد فأقول ان قراركم هذا سيعطي نتائج نفسية مدمرة، فعند رؤيتهم رفاقهم يذهبون سيعمد

العمال الى القيام باضرابات متقطعة، وحتى الى القيام بعمليات تخريب. واذا كنتم تعتقدون انكم ربحتم الجولة فانكم في الحقيقة ستخسرونها ولصالحكم انصحكم بالتخفيف من متطلباتكم.

وانتصر ستوسكويف واقنع الألمان بصبره وحججه القوية. فقبل هؤلاء بانزال العدد المطلوب الى النصف. اما في «برس» حيث لم يواجهوا عادوا بالعدد المطلوب فقد اخذوا خمسماية عامل.

ولكن بالنسبة لسكان «لوريان» بقي المهندس ستوسكويف الرجل الذي «أخذ» ٢٤٦ من أولادهم قام باقتيادهم بنفسه الى المانيا.

وانتهت الحرب، لكن المشاعر العدائية لم تنته. بل على العكس، فغداة تحرير «لوريان» من الجيب الالماني في ٨/ أيار/ ١٩٤٥ تم تأليف «لجنة تحقيق».

«ستوسكويف جاك مهندس كفؤ يملك كل الصفات الحميدة،

«لم يتوقف عن اظهار مشاعره الوطنية الرفيعة، وساعد في النصر بتقديمه، أثناء الاحتلال، معلومات قيمة عن التحركات البحرية للعدو وبالأخص تحركات الغواصات المتمركزة في لوريان».

من هو اذن هذا الجاك ستوسكويف؟

الزاسي، ولد في باريس في ٢٧ تشرين الثاني ١٨٩٨ من عائلة تظهر العداء السافر لألمانيا لأنها لم تنس عملية ضم الألزاس لألمانيا عام ١٨٧٠. عند اندلاع الحرب الكبرى كان يبلغ السادسة عشرة من عمره. كان عليه الانتظار عامين كي يلتحق بسلاح المدفعية حيث حصل على ترقية. وفور توقيع الهدنة دخل الى كلية «البوليتكنيك» الحربية. كان تلميذاً ذا مواهب واضحة وذاكرة مدهشة مما جعل رفاقه يلقبونه



احدى عمليات احصاء وفرز اسماء المتقدمين للخدمة الاجبارية حسب قانون ٤ ايلول / سبتمبر ١٩٤٢ وهم كل مولود بين اول ١٩١٢ وآخر ١٩٢١

ولف الذهول كل السكان عندما علموا في الخامس والعشرين من تشرين الاول ١٩٤٥ بأن الحكومة الفرنسية اعلنت انه ابتداء من أول تشرين الاول ١٩٤٣ تقرر ترقية جاك ستوسكويف، بصورة دائمة الى رتبة مهندس عام من الدرجة الثانية في الهندسة البحرية ومنحه وسام جوقة الشرف وصليب الحرب.

وعقدت الدهشة ألسن السكان عندما قرأوا النص التالي:

«بالانسكلوبيديا الناطقة».

مهندس لامع

عند تخرجه من المدرسة عام ١٩٢٤ اتجه لدراسة الهندسة البحرية وكلف باديء ذي بدء بادارة اعمال الانشاءات البحرية في شربورغ ومراقبة واجراء التجارب على اول قذائف قدمت للبحرية.

ومن مركزه هذا استطاع تحصيل معلومات وافية عن البوارج الخفيفة مما دفع ادارة

الانشاءات البحرية في باريس الى استدعائه لدراسة امكانية انشاء بوارج اسرع وأقوى وأفضل تجهيز . وتوصل الى اختراع مضاد للقذائف وحطم الرقم العالمي لسرعة البوارج الحربية بايصاله الى ٤٥ عقدة في الساعة .

ونقل الى «لوريان» في الأول من تشرين الاول ١٩٣٩ حيث فرض منذ البداية نفسه، وكعامل نشيط فقد ادهش كل معاونيه بدقة اعماله التي لا تخطئ وكان «مونتين» كاتبه المفضل ويبدو انه اخذ من «كتاب المحاولات» الذي كان كتابه الرائد حكمة حياته : «تكون حياتك كلها في المكان الذي تنتهي فيه . فالاستفادة في الحياة ليست في السماع انما في استعمالها » .

وكتاب « المحاولات » الذي قرأه الآف المرات كان مفتوحاً فوق مكتب ستوسكويف في «لوريان» عندما دخلها الألمان في ٢١ حزيران ١٩٤٠ . ماذا حدث في هذا الوقت؟

وقام الحاكم البحري ، الاميرال بنفنتينو باخراج كل القطع البرية التي تستطيع الابحار من مضادات القذائف، والطرادات، وحرس السواحل وارسلها الى «بروتانا» . وفي المرافئ الشمالية اضطر الى سحب حتى بعض القطع البحرية التي لم يكن قد انتهى انشاؤها وقام ايضاً بنقل كل البحارة بدءاً من تلامذة مدرسة الميكانيكيين .

اما في المرفأ فقد احرقت خزانات المازوت وحطمت أبواب الاحواض .

كانت الثالثة بعد الظهر عندما وصلت قوات الماجور «ريمان» الى مركز الترسانة . كان ستوسكويف في مكتبه عندما فتح الباب ودخل ضابطان المانيان . وبلغة فرنسية ونبرة حادة قال لهما :

— ايها السادة، اذا كنتما تريدان رؤيتي فاعلنا هويتكما . كما اني اطلب منكما نزع قبعتيكما عندما تدخلان مكتبي .

وخرج الضابطان وعلى وجهيهما الدهشة واقفلا الباب وراءهما بعد لحظات عادا وطرقا الباب بهدوء ودخلا وكل منهما يحمل قبعته بيده، بعدما سمعا الاذن بالدخول .

توقف العمل

ومنذ الأيام الأولى للاحتلال ، وبصفته مديراً للانشاءات البحرية ، فكر المهندس العام انطوان دو «بأنه يجب ان منتظم في الهزيمة من أجل تخفيف مرارتها والحد من نتائجها » .

كان الألمان يريدون وبسرعة تصليح ما تعطل في الترسانة خاصة في الأحواض ، من أجل استعمالها . وكان المهندس العام انطوان يبذل كل جهوده كي لا يقوم الألمان بفرض قوانينهم على العمال . فاذا استطاع جمع العمال والفنيين وابقاءهم بامرة القيادة الفرنسية يكون قد ابقى الحل الأمثل .

لكن هل يقبل العدو بذلك؟ واوفد انطوان «جاك ستوسكويف» الذي يتكلم اللغة الالمانية بطلاقة للمفاوضة ، وفرض برنامجه على المحتلين .

— هل تعتقد بأن الفرنسيين يقبلون بالعمل لحسابنا ؟

— سأل الاعداء وهم نصف مقتنعين .

— انها مهمتي، اكد لهم ذلك . واذا قاوموا سأعرف كيف أجبرهم على الطاعة .

ولتجنب التدهور واختفاء المعدات الصناعية قام المهندس الاول انطوان وذراعه اليمنى ستوسكويف ببناء الورش وانشاء افران الفحم وتصليح الآلات ذات النفع العام . اما الآلات الضرورية فكان يجري سحبها سراً من المخصصات الالمانية .

كان ستوسكويف يقوم يوميا بجولة تفتيشية . وأحيانا كان يتذمر من ان العمل لا يسير بسرعة — بينما هو المسؤول الاول عن التأخير — التخريب . وبمجرد وقوع خطأ من احد العمال كان يوجه له وبنبرة حادة ملاحظات قاسية .

وتجاهل العمال فضل رب العمل هذا ،وفر عليهم تلقي الاوامر من الألمان وبالتالي العمل لزيادة القوة الحربية للرايخ الثالث

ان اول غارة جوية انكليزية فوق «لوريان» حصلت في ٢٧/ ايلول/ ١٩٤٠ . واستمرت من ثم حتى ١٩٤٣ حتى افلحت بتدمير المدينة وقلبها رأسا على عقب . ومساء احد الأيام اصابت القنابل المحطة الكهربائية الرئيسية وصرح احد الفنيين قائلا لستوسكويف ما كان العمال يرددونه همساً .

— ستنجح بقتلنا جميعا هنا .

— ولم ينبس المهندس ببنت شفة . ولكن مساعده «لوبوت» تدخل قائلا :

— ايها الأبله الا تفهمون اننا هنا من اجلكم .

— كلا . ففي كل «لوريان» لم يفهم احد .



رحيل اخر دفعة المانيا من لوريان وجوراها، لقد بقيت القاعدة البحرية كما هي، ولم تزل تحمل اسم ستوسكوبف.

وحقيقة الامر لم يكن احد ليستطيع ان يفهم. ولتنفيذ خطته الخطيرة التي صمم عليها، كان جاك ستوسكوبف مجبراً على التقاط مكافآت الالمان جاعلا نفسه، في اعين مواطنيه عميلا متواطئا.

مهمة كبيرة (فرعونية)

في الأشهر السبعة الاولى من الاحتلال لم تتغير الحالة بتاتا في «لوريان» فالترسانة تبدو وكأنها تعمل. اما المرفأ التجاري الذي انشئ بعد الحرب العالمية الاولى على مدخل «تير» بين «كيروجان» و«دولا بيريير» بقي هادئا مثل كل المرافئ الفرنسية.

ولكن كل شيء تغير مع بداية عام ١٩٤١. ففي «كيرومان» على وجه التحديد جاء مهندسو مؤسسة «تووت» وتبعهم جيش من العمال. وبدأوا في شباط ببناء قاعدة كبيرة للغواصات.

تألفت القاعدة من ثلاثة ابنية ضخمة من الاسمنت المسلح. بلغ طول الاولين ١٣٠ مترا بارتفاع ١٨ مترا ونصف. وقد احتوتا احد عشر مخبأ حيث كانت تجري اعمال المراقبة والتصليح والترميم على الغواصات التي يجري ادخالها بواسطة عربات من الفولاذ وتوضع في اماكن جافة. وانتهت الأعمال في هذين المركزين في كانون الأول من عام ١٩٤١. وكانت قد ابتدأت في أيار من العام نفسه.

وفي تشرين الأول ١٩٤١ بدأ الالمان ببناء المركز الثالث الذي لم ينته الا في ايار عام ١٩٤٣ وكان عبارة عن ممرات متقابلة من الاسمنت المسلح طول الواحد ١٧٠ مترا وعرضه ١٣٨ مترا وارتفاعه عشرون مترا. وكان يحتوي على سبعة احواض عامة تستطيع استقبال ١٣ غواصة.

ولتحقيق هذه الأعمال الفرعونية جلب العمال كالعبيد من منازلهم من كل اوروبا المحتلة وقاموا بصب حوالي مليون طن من الاسمنت.

واصبحت مدينة «لوريان» احدى القواعد الالمانية الخمسة المقامة على ساحل الأطلنتيك والمخصصة للغواصات. اما الاربعة الباقية فكانت: برست، سان نازير، لاباليس، ويردو. وكل واحدة تقوم بتصليح وتجديد نوع محدد من الغواصات. ففي لوريان كانت انواع «تسعة ب وتسعة ت» وهي غواصات قاذفة وزنها ٧٤٠ طنا تنتمي الى الاسطولين الثاني والعاشر اللذين يضمان لوحدهما خمسين قطعة.

كان مرفأ «كيرومان» يخبئ وحده ثمانية كاسحات الغام واثني عشر طرادا وقطعا فرنسية استولى عليها في المرافئ الفرنسية وكانت جاهزة للحرب. وكان هناك ايضا «مدمرات الحواجز» وناقلات مسلحة مجهزة خصيصا من أجل تفجير الألغام المغناطيسية

التي كانت الطائرات الانكليزية تلقيها في قعر المضائق.

وفهم «جاك ستوسكوبف» بان حركة تنقلات هذه القطع وخاصة الغواصات - ذات اهمية بالغة للانكليز. وعن طريق علاقاته «الصديقة» مع الألمان، استطاع ستوسكوبف ان يدخل بانتظام الى قاعدة كيرومان. كان الفرنسي الوحيد الذي سمح له بالدخول.

معلومات سرية

كان يراقب كل شيء وبدون كتابة اي مذكرة. لقد كان يسجل ذلك في ذاكرته القوية. كان يرى على الغواصات رسوماً كورق اللعب وصور حيوانات واسماك وعروس البحر وايضاً... بقرة ضاحكة وشيئاً فشيئاً استطاع التعرف على كل غواصة.

لاحظ ايضاً الغواصات الالمانية كانت عند دخولها القاعدة ترفع أعلاما ملونة تدل على انتصاراتها. العلم الابيض يدل على ان ناقلة تابعة للحلفاء قد اغرقت.. والعلم الأبيض المقطع باللون الاحمر، على طراد اما الأحمر فيدل على سفينة حربية.

وبعد عودتهم من معاركهم كان ستوسكوبف يستجوب قادة الغواصات دون ان يظهر بأنه يقوم بذلك. وأحياناً واثناءالحديث كان يسجل حدثا هاماً. كما سمع ذات يوم ان احد ضباط «الفريسمارين طلب من قسم الخرائط ثمانية اوراق تابعة للبحر الكاريبي وفوراً ارسل اشعارا بذلك مما سمح بتحويل خط سير عدة ناقلات بترول حليفة.

ولكن بعض المهمات كانت اكثر خطورة. لقد قام ستوسكوبف بتصوير وحدات كاملة داخل مخابئها وذلك بالاشتراك مع مواطن شاب قاده على ظهر طراد سريع.

وارسلت كل هذه الوثائق الى حركة الاتحاد المتخصصة بدعم قسم الاستخبارات البريطانية بالمعلومات. وتألفت شبكة اخبار «نجمة البحر» واقامت لها مركزين في «برست» و«بوردو» في البداية كانت الاخبار ترسل الى «فيشي» ومنها باتجاه لندن بواسطة مبعوثين اما الآن ولضرورة السرعة فانها ترسل بالراديو.

ويوماً بعد يوم، وكمن يجمع قطع موازييك، استطاع ستوسكوبف اعطاء القيادة البحرية البريطانية تقريرا عن كل تحركات الغواصات الألمانية.

القنابل تمطر

من مركز قيادته العامة الذي اقامه في قصر «كيرنيفيل» على الضفة الغربية لنهر سكورف كان الاميرال «دنيتز» يوجه غواصاته. فاذا استطاع اغراق عدد من القطع البحرية الحليفة اكثر من العددالذي تصنعه البحرية الانكليزية والاميركية فانه سيربح معركة الاطلنتيك. واذا استطاع هذا الرجل النحيف ذو الملامح القاسية ربح معركة الاطلنتيك فان المانيا بذلك تحصل على فرصة لربح الحرب.

ولهذا السبب كانت المانيا تقوم بصناعة عدد من الغواصات يزداد دائماً.

وبدون توقف كان ستوسكوبف يحصيها ويعيد احصاءها. فالاثنتا عشرة «التي ظهرت في «كيرومان» في شهر تشرين الأول ١٩٤٠ اصبحت عشرين في كانون الثاني ١٩٤٢. وكان يرسل حوالي خمسين رسالة اسبوعياً وذلك بعد كل مرة يدخل فيها ويخرج من القاعدة.

ولازاحة هذا الخطر المميت المتمثل في هذه الغواصات كان الحلفاء يضاعفون غاراتهم الجوية كانت القنابل تتساقط عمياء، مدمرة المدينة وحاملة الموت الى العائلات في «لوريان».

ولم يتركز القصف على القاعدة وحدها الا في نهاية ١٩٤٢. وقامت القاذفات الاميركية بأول غارة نهارية لها في ٢١ تشرين الأول بمجموعة من ١٥ طائرة وكررتها في ١٨ تشرين الثاني ثم في ٢٢ وايضاً في الثلاثين من كانون الأول.

قتل من جراء ذلك كثير من العمال من جنسيات مختلفة وكثير من السكان المدنيين. وتسببت بخسائر كبيرة في مختلف المصانع ولكن القلعة الكبيرة المسلحة بقيت سليمة.

في آب ١٩٤٢، عين المهندس العام «انطوان» مديراً مركزياً في «فيشي» وكبديل له في رئاسة المقاطعة استدعت الحكومة الى الخدمة في تشرين الثاني الاميرال «بورتزمبارك»، بحار كبير ورجل حرب مشهور بطبعه الحاد وبطيبته.

وتفاهم على الفور مع ستوسكويف ومعاونيه الرئيسيين لتنفيذ خطة بعثرة سكان المدينة. فاسكنوا القسم الاكبر من العمال مع عائلاتهم في الضواحي المجاورة.



لوريان في الليل

جاء هذا القرار في وقته لينقذ العديد من الأبرياء. فخلال شهر كانون الثاني ١٩٤٣ لم تتوقف الطائرات الاميركية عن قصف «لوريان» وبعد غارتين قامت بهما في الخامس عشر من الشهر كانت المدينة قد دمر القسم الاكبر منها نتيجة لالقاء القنابل المتفجرة والحارقة. وتكررت الغارات.

وفي كل مرة كان الفرنسيون يموتون بسبب هذا التكتيك الغبي الذي يقوم على عملية القاء كميات كبيرة من القذائف فوق مساحة واسعة دون الانتباه الى الأخطار البعيدة. وانفجر السكان غضباً وكتبوا على الجدران «محررين قتلة».

وفي صفوف الألمان وقعت ايضا خسائر في الأرواح وفي المعدات. لكن قاعدة الغواصات بقيت كما هي. واثناء هذه الغارات المدمرة اكبر قنابل صنعت في العالم وقد استطاعوا بواسطة الانوار الكاشفة الضخمة اصابة سطح القاعدة ولم تستطع هذه القنابل الا «خدش» الاسمنت.

بعد كل غارة، كان ستوسكويف يرسل اشعارا الى لندن بأنه لا جدوى من هذه الغارات الجوية ولكن صرخته كانت في واد..

ازدياد الشكوك

بدأ الألمان يشعرون بأن هذه الترسانة لا تقدم لهم الخدمات المنتظرة.. فالأعمال تستغرق وقتاً طويلا، والمراسلات تزداد دون معنى، وارادةالعمال السيئة تكبر؛ واختفاء المعدات والمحروقات والآلات المتحركة يزداد بصورة

دائمة. فقرروا نقل قسم من العمال الى مرافئ اكثر امنا واقل تعرضاً للغارات.

وفي «لوريان» تمنوا بأن لا يحتفظوا الا بالفرق العمالية الضرورية كي يستطيعوا اجبارهم على العمل باشراف مهندسين المان. واصطدموا مرة اخرى بمعارضة ستوسكوبف.

وتدهورت الامور خلال صيف ١٩٤٣ بعد ذهاب الاميرال «بورتزا مبارك» الذي ترك قيادته في الخامس من تموز. وبدأت مداخلات ستوسكوبف المتكررة تزعج الألمان. فهذا الرجل الذي كانوا يعتبرونه حليفاً مخلصاً لهم، اصبحوا يشكون بأنه يريد احتواءهم. ففي مناسبتين على الأقل لم يستطع اخفاء مشاعره الوطنية

المرة الاولى في «هينون» حيث اقدم العامل بوشيه على البصق على حذاء ضابط من الدرك.

واوقف على الفور وارسل هذا الفرنسي للمحاكمة امام محكمة عسكرية المانية.

واحتج ستوسكويف وبما ان احتجاجه لا ينفع شيئاً فقد ارسل الليوتنانت «بوشار» للدفاع عن هذا المسكين.

المرة الثانية كانت عندما حاول البحري «بلويارد» منع احد اصدقائه من اشعال لفافة جندي الماني. فحكم عليه بالسجن ثلاثة اشهر. وتدخل ستوسكوبف. واستطاع تخفيض العقوبة الى ستة اسابيع وبعد ذلك الى الغائها.

وهذان مثالان من قليل.

هل انتهى الألمان الى الشك بالدور الذي يلعبه ستوسكوبف؟ هل اوقف «الغستابو» بعض رجال المقاومة الذين تكلموا تحت التعذيب؟ لا احد يدري ولكن ابتداء من بداية العام ١٩٤٤، وضع المهندس تحت المراقبة. وكانت هذه المراقبة من ترسانة «لوريان» وفي «كيمبر» حيث تقيم عائلته وحيث وجد الوسيلة والحجة للذهاب بصورة منتظمة للاتصال باحد رجال شبكة «الاتحاد».

وفي احد الاجتماعات المحظورة على الفرنسيين اشتكى الميجور «ريمان» وكان قائد الترسانة من مواقف ستوسكوبف وايده بذلك معاونوه. ونقلت هذه الاحتجاجات الى الليوتنانت «بوشارد» بواسطة مترجمين: الليوتنانت البحري «دوبر ناردي» ذي الأصل النمساوي والمدني الالماني «بروبرز». قالا له:

«اننا نشعر ان الامور لا تسير سيراً حسنا مع السيد ستوسكوبف. فكل «المهندسين الالمان يتذمرون منه. يجب ايجاد بديل له في مدة قريبة.. وقد يكون المترجمان ارادا تحذير ستوسكوبف بواسطة زميلهما الفرنسي؟ وقد يكون الميجور «ريمان» استعمل هذه الطريقة الملتوية لكي ينصح المهندس سراً بالابتعاد وفي كل الاحوال كان الخطر يتهدده.

انه يعرف ذلك، ولكن لم يهتم. وقد باح بسره، لأول مرة، الى المهندس «لوبوت» الذي نصحه بترك منصبه. قال له: «لا يمكنني التخلي عن عملي حاليا. انني على رأس شبكة لا يمكن ان تستمر بدوني وهروبي الآن سيسبب لها نتائج خطرة.

الغستابو يتحرك

وحصل ما كان متوقع حصوله. ففي الواحد والعشرين من شهر شباط ١٩٤٤ اوقف الغستابو «جاك ستوسكوبف» واقتاده الى «فان» حيث ادلى باولى اعترافاته وتعرض للمراحل الاولى من تعذيبه.

بعد يومين طرق رجال البوليس الألمان المنزل في «كيمبر» حيث تنتظر السيدة ستوسكوبف زوجها وكان كل ما تفوهوا به هو:

– لدينا امر بالتفتيش.

لم يفاتح المهندس زوجته ابدا باعماله السرية. ولكن بحدس المرأة عرفت كل شيء. وفور اعلامها من قبل معاوني زوجها في العمل بان «الغستابو» اوقفه، قامت بالتفتيش في كل اوراقه.

ولكنها لم تجد شيئاً يذكر. ولكونه كان يثق بذاكرته القوية، فانه لم يكن يدون شيئاً تقريباً. فالرسائل والرموز كانت تبقى محفورة في رأسه. ولكنها وجدت بعض الملاحظات التي قد تثير الشكوك فاسرعت باحراقها.

وقام رجال البوليس بتفتيش كل المنزل ولم يجدوا شيئاً وذهبوا.

– الى اللقاء يا سيدة ستوسكوبف.

لم ترد لهم التحية. اغلقت الباب وعندما عاد الصمت بدأت بالصلاة. كانت تردد باستمرار «جاك، جاكي المسكين، هل سأراك بعد الآن؟»

اما هو فكان قد نقل اثناء ذلك الى «رين» وقام عملاء «الغستابو» الجدد باعمال وحشيه ضده كانوا يريدون اعترافه باسماء اعضاء

شبكة الاتحاد. وعلى الأخص بالشبكة المساعدة «نجمة البحر» التي كانت تجمع المعلومات على طول الشاطىء الفرنسي للاطلنتيك. والتزم ستوسكوبف بالصمت.

ووضعه الألمان في سجن «رين» نفسها لمواجهته باعضاء من الشبكة التي كانوا يريدون تفكيكها وكان جوابه الوحيد عن كل اسئلتهم:

– لا اعرف شيئاً. لا اعرف شيئاً ابداً.

وكانوا يعيدون تعذيبه.

وفي ٣١ تموز اخرجوه من زنزانته وارسلوه الى مركز «كامبيان» حيث كانت تجرى عملية اختيار السجناء. وبعد توقف قصير في سجن «فرين» المركزي ارسلوه الى مركز التجمع في «ستيرميك» في الالزاس التي طالما احبها.

وفي ليلة الاول من ايلول ١٩٤٤، وفي الساعة التي وصل فيها الحلفاء الى «رين» و«شالون سور مارن» انتزع جاك ستوسكوبف من على فراشه القذر مع مائة وسبع اعضاء اخرين من شبكة الاتحاد: ١٥ امرأة و٢٢ رجلا من منطقة «بروتان» و٢٢ رجلا من بوردو لاروشكال، اربعة من منطقة النورماندي تسعة من منطقة البحر المتوسط، اربعة من منطقة الشمال، ثلاثة عشر من مركز الراديو، وثمانية من خدمات الالمان العامة ومن المنطقة الباريسية.

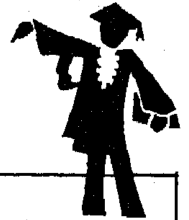
نقل الجميع الى مركز الانتقام الرهيب في «ستروتهوف» الواقع على علو ٧١٠ امتار عن سطح البحر والذي يديره الاكثر وحشية ودموية في المانيا النازية: منفذ اوامر الفوهرر والاس اس «جيهروم».

كان الجلادون الالمان التابعون لقسم الاستخبارات يدفعون واحدا بعد الآخر من اعضاء شبكة «الاتحاد» المئة وثمانية باتجاه سلم عريض يؤدي الى غرفة الموت ثم يقتلونهم باعصاب باردة باطلاق رصاصة في العنق ثم بعدها يحركون جسر الغرفة فتندفع الجثة بواسطة قلاب نحو رافعة تقوم برميها داخل فرن للاحتراق.

بعد ثمانية اشهر وفي الثامن من ايار ١٩٤٥ استسلمت اخر قوات الفرقة الالمانية التي بقيت في احدى «جيوب اللوريان». استسلم الرايخ الثالث دون شروط. والرجل الذي وقع وثيقة الاستسلام هو نفسه الذي كان يقيم في قصر «كيرنيفيد» في «الموربيون» لاعتقاده بانه سيشاهد انتصار غواصته عن قرب: الاميرال دنيتز.

دمرت مدينة «لوريان» بكاملها. ولكن قاعدة الغواصات بقيت سالمة... وهي تحمل اليوم اسم المهندس العام جاك ستوسكوبف.

■



«دعوة لأصحاب رسائل الماجستير والدكتوراه»

يسر مجلة «تاريخ العرب والعالم» أن تدعو أصحاب رسائل الدكتوراه والماجستير في التاريخ في الجامعات العربية والأجنبية للتعريف برسائلهم على صفحاتها وذلك في مقالة تتراوح ما بين الألف كلمة والألف والخمسمائة كلمة وتشمل على لمحة موجزة عن الموضوع المعالج، مع الاشارة إلى مكان وزمان تقديمها وإسم الأستاذ المشرف عليها.

وإذ تفتح المجلة هذا الباب أمام اصحاب الرسائل في علم التاريخ، تتوخى أن تحقق بعضاً من الأهداف والتي أهمها:

– أولا – التعريف بانجازات الباحثين والطلاب العرب في ميدان علم التاريخ.

– ثانياً – التعرف على توجهات الجامعات العربية والأجنبية في نوعية الموضوعات المطروحة ومناهج البحث المتبعة.

– ثالثاً – توفير جانب من الببليوغرافيا التاريخية في موضوعات الرسائل التي قدمت ونوقشت في الجامعات العربية.

سلطنة الحسان في قصور آل عثمان



هذه بعض أخبار عن دور النساء في الدولة العثمانية. لا نجد لها مكاناً في الكتب التاريخية العامة. فهي نظراً لطرافتها ولطرحها زوايا خاصة من تاريخ السلاطين العثمانيين، قد تشكل موضوع اهتمام لدى القارئ. ولقلة المصادر في هذا الموضوع ننقل هذه المقالة عن مجلة تاريخية مصورة صدرت في الثلاثينيات بعنوان «عصر السلطان عبد الحميد واثره في الأقطار العربية ١٨٧٦ - ١٩٠٩»

سيطرة النساء على شؤون الدولة :

لعبت النساء الحسان في قصور آل عثمان في مختلف العصور الأولى أدواراً عظيمة فكان لهن الشأن الأعظم في تسيير شؤون الدولة . فجميع الوزراء ورجال الدولة الذين تولوا المناصب العالية بعد وفاة السلطان سليمان القانوني كانوا تحت نفوذ نساء القصر.

فقدان روح الشجاعة من نفوس السلاطين المتأخرين :

والسلاطين الذين تعاقبوا على العرش بعد سليم الأول الملقب بياوز كانوا فاقدين لروح الشجاعة والبطولة التي تحلى بها أسلافهم، منقادين إلى ربات الخدور وهذا مما أفسح المجال لازدياد نفوذ النساء في الدولة .

السلطانة نيلوفر زوجة أورخان الغازي :

فالسلطنة العثمانية في الأدوار الأولى من حياتها لم يكن للنساء تأثير في شؤونها . وهذه السلطانة (نيلوفر) زوجة اورخان الغازي كانت تقضي حياة طاهرة نقية منصرفة إلى تدبير شؤون قصرها . فبينما كان زوجها في ساحات الحروب يحاصر القلاع ويفتتح الحصون كانت هي تستقبل الضيوف وتكرم وفادتهم كربة بيت صالحة .

وأغلب السلطانات اللواتي كان يؤتى بهن من قصور قياصرة البيزنطيين وأمراء الاناضول كن يؤلفن حياة عائلية هنيئة يصح أن تتخذ نموذجاً صالحاً للرعية وقلما تتدخل هؤلاء السلطانات في مسائل الدولة والحكم. فالسلطانة تيودورة الرومية ابنة الامبراطور قانتا قوزينوس البيزنطي التي عقد عليها أورخان الغازي في أواخر أيامه لغايات سياسية كانت تعد بكل حق المثل الاعلى للجمال الساحر والاخلاق الفاضلة الممتازة.

السلطان سليم يفضل عشق الوطن على كل عشق :

ولم يسجل التاريخ اسم حسناء سيطرت على أحد السلاطين التسعة الذين تعاقبوا قبل سليمان القانوني أو على شؤون الدولة .

فالسلطان سليم الأول الملقب بياوز والذي فتح الاقطار العربية وأضافها إلى امبراطوريته كان يفضل عشق الوطن على كل عشق فنراه يترك حياة القصور المليئة بانواع الترف والمسرات ويغادر الاستانة ممتطياً صهوة جواده إلى تشالديران ومنها إلى سوريا فمصر مجتازاً البراري القاحلة والصحارى القاتلة في سبيل إعلاء شأن الوطن . وكانت زوجته السلطانة حفصة حاكمة القصر الوحيدة لاتزاحمها فيه غيرها وقلما شوهد سليم الاول في قصره لان الحرب كانت تشغل أكثر اوقاته .

سليمان القانوني يخضع لحسناء روسية !

ولكن ابنه السلطان سليمان القانوني كان غير ابيه فقد انفق خزائن الدولة التي ملأها أبوه بالذهب على مسراته ولهوه وزهوه وأظهر خنوعاً للنساء مع شدة بأسه ومن أيامه بدأت حياة النساء في القصور تتجه اتجاهاً جديداً واعتباراً من هذا العهد ايضاً بدأت القصور تعج بالعبيد والاغاوات والجواري الحسان فالقانوني الذي هز الشرق والغرب بفتوحاته وانتزع كثيراً من التيجان وحطم كثيراً من العروش وافتتح كثيراً من القلاع والحصون انهزم وتقهقر وخضع للسلطانة خرم زوجته المحبوبة التي ملكت عقله وسلبت فؤاده واستولت على حواسه فكان لها أطوع من البنان .

من هي السلطانة خرم ؟

كانت هذه الحسناء الروسية من جملة الجواري اللواتي جيء بهن إلى القصر لتقدم إلى البادشاه في أحد الأيام فلم تطق الأنزواء بين ظلمات الجدران كباقي الجواري الحسان وصعب عليها احتمال حياة الأسر فأخذت تتمرد على القائمين على حراستها وإزداد تمردها وعصيانها وبلغ حداً لم يعد في الامكان السكوت عنها فعرضوا أمرها على السلطان الذي أمر أن يؤتى بها إلى حضوره ولما مثلت بين يديه بقامتها المشوقة وجمالها الرائع الفتان ونظرها الفتاك وببراءة الطفولة المرسومة على محياها الوضاح سحرته ببلاغة منطقها وبذبول عينيها وبشجاعتها التي حملتها على العصيان فاخضعت بنظرة واحدة لسلطان جمالها القاهر ذلك القلب العظيم الجبار قلب اعظم سلطان في ذلك الزمان ومنذ تلك الدقيقة تحولت الفتاة الروسية الحسناء(روكزلان) إلى السلطانة خرم زوجة القانوني ومالكة قلبه واصبحت سيدة القصر المطاعة وإزداد مع الايام طموحها فلم تكتف باستيلائها على قلب السلطان بل شرعت تتدخل في شؤون الدولة وتسيطر على الوزراء والقادة وقامت بدسائس ومناورات


السلطان
اورخان الغازي

عظيمة بالاتفاق مع صهرها رستم باشا فعملت على قتل الامير مصطفى ابن زوجها وولي عهده فضمنت بذلك العرش لأبنها سليم الثاني السكير واوغرت صدر القانوني على صهره وصدره ابراهيم باشا فامر بخنقه بينما كان نائماً في قصره وجاءت بدلا منه إلى الصدارة بصهرها وشريكها في المؤامرات رستم باشا واخيراً ماتت بين أحضان القانوني فبكاها ورثاها وتوجع وتفجع كثيراً لفقدها .

سليم الثاني وزوجته السلطانة نوربانو :

وانتقلت سيادة القصر بعد وفاة السلطانة خرم إلى السلطانة نوربانو اليهودية الحسناء وزوجة سليم الثاني الذي كان يحيى الليالي في انتهاب الملذات والمسرات وشرب المسكرات واقتراف المحرمات ولو لم تكن الدولة في يد وزير قدير حكيم مثل الصوقللي لانهار بناء الدولة من ذلك العهد . ولما توفي سليم الثاني ضحية سكره كتمت نوربانو خبر موته وبعثت بمن أتاها بولدها مراد الذي كان غائباً في مغنيسيا وفي تلك الليلة نفسها قتل موظفو القصر بايعازها أولاد زوجها الخمسة خنقا ليخلو جو الحكم لابنها .

وفي هذا العهد كانت إدارة الدولة الداخلية في أيدي نساء القصر والخارجية في أيدي العلماء والوزراء والقواد والسلطان لا سلطة له .

مراد الثالث وزوجته السلطانة صافية :

ولما تزوج ابنها مراد الثالث من السلطانة صافية وكانت من قبل جارية في القصر جلبها قرصان البحر أسيرة من البندقية خضع لجمالها وانجذب إلى سحر عينيها فثارت الغيرة في نفس الحماة وأخذت تقدم لابنها الجواري بالدزينات لتصرفه عن الحسناء صافية فلم تتوفق وبلغ عدد الجواري اللواتي حشدتهن في القصر الخمسمائة .

وكانت السلطانة نوربانو وكنتها صافية تبيعان وظائف الدولة بالمزايدة ! !

وهكذا بقيت قصور آل عثمان مدة طويلة تحت سيطرة نساء أجنبيات عملن على ازدياد نفوذهن وقلما دخل القصور نساء تركيات .

السلطانة كوسم زوجة أحمد الأول :

ومن أشهر النساء اللواتي سجلن لهن أسماء بحروف بارزة على صفحات التاريخ العثماني السلطانة كوسم زوجة السلطان أحمد الأول وأصلها حسناء رومية إسمها آناسطاسيا وقعت أسيرة في أيدي والي البوسنة فقدمها هدية إلى مولاه السلطان فرسخت أقدامها في القصر وانتشر نفوذها انتشاراً عظيماً ولعبت أدواراً مهمة في سياسة البلاد ولما تولى العرش ابنها ابراهيم الهته عن الحكم بالجواري واستلمت هي إدارة الدولة فكانت حاكمة البلاد الفعلية فلم يكن الباب العالي يقوم بعمل قبل الاستئذان منها !

السلطانة ترخان تقتل حماتها كوسم :

وكثيراً ما دفعت الغيرة والحسد ما بين الحماة والكنة في قصور آل عثمان إلى اقتراف أعظم الجنايات من ذلك أن السلطانة كوسم هذه حاولت مرة اغتيال كنتها السلطانة ترخان فتغدت هذه حماتها قبل أن تتعشاها وبايعازها خنق آغاوات القصر السلطانة كوسم بستائر نوافذ غرفتها .

زهد عثمان الثاني :

وكان السلطان عثمان الثاني مكتفياً بزوجة واحدة فلم يحب معاشرة غيرها ومراد الرابع الذي قضى أكثر أوقات سلطنته في الحروب لم يجد وقتاً للحب والغرام وقد ضرب السلطان ابراهيم الرقم القياسي في هذا الباب فأكثر من الجواري بقدر ما شاءت له أمه السلطانة كوسم .



صافيناز هانم

وان سيطرة النساء على شؤون الدولة زعزعت كيانها غير أن وجود الصدارة في أيدي عائلة كويرلي الشهيرة خففت شيئاً من الأضرار التى انزلتها السلطانات بالسلطنة .

السلطان محمود وضيفه الرجل الافرنسي

وكان سلاطين آل عثمان شديدي التقيد بالحجاب لا يسمحون لأحد برؤية نسائهم ومن غريب ما يروى عن السلطان محمود الملقب بالعادل أنه بعد أن أباد الانكشارية توثقت عرى الصداقة بينه وبين رجل افرنسي أحبه كثيراً وقربه إليه وفي أحد الأيام دعاه لتناول طعام الغداء على مائدته السلطانية ، وبينما هما على المائدة سأله السلطان أن يطلب منه ما يريد ويتمنى ما يشتهي من الهدايا والمنح السنية .

ويظهر أن ذلك الضيف كان ثقيلاً ، فاقد الذوق ، فقد طلب من السلطان أن يسمح له بمشاهدة أجمل امرأة في الحرم ، وبما أن السلطان سبق أن وعده بمنحه ما يريد لم يشأ الرجوع عن كلامه ، وبعد قليل ظهر أحد أغاوات الحرم وبيديه صينية من الذهب مغطاة بمطرزات حريرية فوضعها بأمر السلطان أمام ضيفه الافرنسي فكشف هذا الغطاء عنها وإذا برأس إمرأة جميلة مقطوع من جثتها وملطخ بالدماء فادرك إذ ذاك أنه رأس أجمل امرأة في قصر السلطان وقد منعته التقاليد من مشاهدة وجهها حية فجيء له برأسها مقطوعاً ! ولا نعلم ماذا كان جواب الافرنسي بعد مشاهدته هذا المنظر الفظيع .

نساء السلطان عبد العزيز وجواريه

وفي أيام عبد العزيز بلغ عدد نساء السراي على ما يقال التسعمائة حتى ضاقت بهن غرف القصر وازداد عدد آغاواتهن الخصيان زيادة فاحشة فكان مجموع سكان القصر الفين وخمسمائة نسمة لا غير عدا الجنود والحراس .

مقام والدة السلطان في قصور آل عثمان

أن ارفع رتبة تتمتع بها السيدة في قصور آل عثمان هي رتبة (والدة السلطان) والتاريخ العثماني طافح باخبار هؤلاء الوالدات وتداخلهن المضر في شؤون الدولة ومدى تأثيرهن أحياناً في بعض المواقف الحاسمة وقد ذكرنا فيما تقدم شيئاً من أخبارهن .

واعتاد سلاطين بني عثمان إذا توفيت

والدتهم أن يسندوا منصب الوالدة الشاغر إلى احدى مربياتهم أو خالاتهم واعتادوا أيضاً أن يعاملوا الوالدة الجديدة كأنها والدة حقيقية .

والدة السلطان عبد الحميد :

توفيت والدة السلطان عبد الحميد في ريعان صباها فتبنته برستو خانم أحدى زوجات عمه السلطان عبد الحميد ولما آل العرش اليه انتقل اليها منصب الوالدة ولقبت بهذا اللقب غير أن ابنها عبد الحميد غمطها حقها والغى جميع الامتيازات التي كانت تتمتع بها صاحبات هذا المنصب من قبل ثم اساء معاملتها فلم تطق احتمال الذل والهوان من ابنها، بل غادرت القصر وانقطعت في قصرها الكائن في (نشانطاش) .

مراتب السيدات في الحرم :

وتلي والدة السلطان في مراتب نساء الحرم الشاهاني رئيسة خزينة الحرم (خزينة داراوسته) فزوجات السلطان الشرعيات اللواتي عقد له عليهن ويعرفن باسم (قادين) ومرتبة (قادين) في سلسلة مراتب سيدات القصر تنقسم إلى أربع درجات فهنالك القادين الاولى والثانية والثالثة والرابعة . والقادين تنتخب عادة من اللواتي هن بمرتبة (اقبال خصكي) بعد أن يصبحن امهات .

وتأتي بعد إقبال خصكي في المنزلة السيدات اللواتي هن بدرجة (إقبال) واللواتي لم يصبحن امهات بعد ثم المرشحات للدخول على السلطان ويعرفن باسم (كوزده) أي المنظورة وعلى هذا فأن الجارية التي يؤتى بها للقصر وهي صغيرة عليهاان تجتاز المراتب الآتية بالتتابع وهي (كوزده) (اقبال) (اقبال خاصكي) (قادين افندي) (خزينة داراوسته) (والدة سلطان) .

زوجات السلطان عبد الحميد :

كان للسلطان عبد الحميد اثنتي عشرة زوجة درجة إقبال خصص لكل منهن ومن زوجاته اللواتي بدرجة (قادين أفندي) دائرة خاصة فيها عدد كبير من الجواري والعبيد والوصيفات عدا الموظفات الرسميات وهن : الكاتبة وأمينة المستودع وحافظة الخاتم ومديرة التزيين وحاملة الابريق وخادمة المشروبات ورئيسة القهوجية وأمينة السر. وكان في كل دائرة عدد كبير من الخصيان خاضعين لرئيسهم المعروف (بقيزلرأغاسي) .

وربما بلغت حاشية إحدى (القوادين) المائة لان الموظفات اللواتي مر ذكرهن كن يستخدمن بدورهن عدداً كبيراً من المساعدات أما أشغال القصر فكانت تدار بمعرفة الجواري والعبيد والمربيات .

كيف تنتخب نساء القصر :

وجميع النساء اللواتي يدخلن حرم السلطان يؤتى بهن صغيرات بمعرفة تجار الرقيق وهنالك كثير من الوزراء والولاة كانوا يمارسون هذه الحرفة السافلة ونريد بها إعداد الجواري والسراري للقصر.

ويراعي غالباً في انتخاب نساء القصر جمال الوجه ودقة التكوين بقطع النظر عن حسبهن ونسبهن ومن هؤلاء الجاريات يولد أولياء العهد ثم يرتقون العرش .

سكرتيرة عبد الحميد :

وكان لدى عبد الحميد كاتبة خاصة تكتب له أوامره الخطية التي يريد تبليغها إلى دائرة الحرم أما أوامره الشفوية فاعتاد أن يبلغها بواسطة آغاوات الحرم. وإذا ما سقطت احدى محظياته اللواتي هن بدرجة « إقبال » من النظر تخلى عنها وزوجها من أحد المقربين الذين يود مكافاتهم .

كيف ينتقي السلطان سراريه :

والنساء اللواتي هن بدرجة (كوزدة) ينتخبن من الجواري فمتى أراد السلطان زيارة إحدى دوائر الحرم يخبر بذلك الوالدة وهذه تأمر الجواري أن يتضمخن بالاطياب ويلبسن أفخر ما لديهن من الحلي والثياب ويظهرن باجمل مظهر فيفعلن كل ذلك ويلبثن منتظرات اشراق طلعة سيد الحرم ومتى جاء وجلس في المكان المعد له أحاطت به الجواري وانصرفن إلى خدمته فواحدة تأتي بالمشروبات المنعشة محمولة على الصواني الذهبية وأخرى تقدم له اللفائف الفاخرة وثالثة تأتي بالقهوة إلى غير ذلك من انواع الخدمة فاذا وقعت عين السلطان على واحدة من هؤلاء الجواري وأحبها سأل الوالدة عن اسمها واكتفى بالقول إنها (فتاة جميلة) فعندئذ تتقدم تلك الفتاة وتلثم طرف السجادة التي يكون السلطان جالساً عليها وفي اليوم الثاني تصبح (كوزدة) أي رائقة في عين السلطان .

نزهة الجواري في حديقة القصر .

والجواري في القصر تحت مراقبة الآغاوات

ولا يسمح لهن بالخروج من القصر بتاتا غير أن السلطان يأذن لهن في بعض الاحيان بالنزول إلى حديقة القصر الفسيحة لاجل النزهة فيخرج الاغاوات معهن.

شحن الجواري من القصر:

وفي كل سنة يشحن السلطان كمية من هؤلاء الجواري إلى خارج القصر فيوضعن في دائرة خاصة ويبقين هنالك إلى أن يتيسر لهن أزواج من رجال الحاشية أو من المقربين والتي تتزوج منهن يخصص لهـا راتـب شهـري يتـراوح ما بـين العشريـن والثلاثـين ليرة ويعطـى لهـا منـزل في إحـدى ضواحي الاستانة والمتزوجون من هؤلاء الجواري يجدون في ذلك شرفا لهم وباعثا على التقدم السريع في دوائر الحكومة.

غرام عبد الحميد:

هنالك روايات كثيرة تروى عن غرام عبد الحميد في أيام شبابه ولكن بعض هذه الروايات ملفق كما ذكرنا آنفا والبعض الآخر مبالغ فيه فقد هام بحب فتاة بلجيكية خياطة إسمهـا كوردية فحملها على اعتناق الاسلام واتخذها زوجة له في أوائل شبابه. والحادثة الآتية التي نرويها للقراء حقيقية استقيناها من مصدر عليم يوثق بصحته:

أن قلب عبد الحميد طيلة أيام حياته لم يخضع في يوم من الأيام إلا لسيدة واحدة وهي الجارية الحسناء صافيناز وكانت صافيناز هذه مع شقيقتها ناجية ويلدز من جواري محمود بن عياش باشا التونسي فاختص الباشا بناجيـة لنفسه واهدى صافيناز وشقيقتها يلدز إلى السلطان عبد العزيز. ولما وقع نظر السلطان على هاتين الجاريتين البارعتين في الجمال سحره جمالهما وكاد يطير فرحا وبلغ من سروره بهما انه أنعم على كل واحد من الخصيان الذين أتو بهما إلى الاستانة بخمسمائة ليرة وأهدى محمود باشا علبة سجاير غالية الثمن. ثم خصص لهاتين الشقيقتين أفخر أقسام قصره وعين لكل منهما جيشا من الخدم ووضعهما تحت عناية والدته وقد فكر يوما في الاقتران بصافيناز ولكن الفتاة رفضت هذا العطف الملكي السامي بجرأة نادرة ولا نعلم ماذا كان موقف السلطان عبد العزيز أزاء هذه الصدمة العنيفة التي لم يكن يتوقعها من حبيبته طبعا إنما نعلم أنه أعلن زواجه بعد ذلك بشقيقتها يلدز بعد أن رقاها إلى درجة (خزينة دار اوسته) وهكذا نالت يلدز الشرف الذي رفضته اختها صافيناز.

لماذا رفضت صافيناز الاقتران بعبد العزيز:

ويظهر أن السلطان لم يكترث لهذا الرفض فهو لو حقق في أسبابه لتبين له أن هنالك علائق غرامية خفية توثقت بينها وبين ابن أخيه الامير عبد الحميد وهذا ما حملها على رفض الزواج به...

كيف نشأت علائق الغرام بين صافيناز وعبد الحميد:

وتفصيل الخبر أن عبد الحميد الذي اعتاد منذ صغره أن يتجول في أنحاء القصر لاستراق الاخبار والنظرات كان يتطلع دائماً من ثقوب الأبواب والنوافذ ويحول أذنه إلى الناحية التي يسمع منها صوت حديث، وقد حدث مرة أنه بينما كان يتطلع من أحد الثقوب كجاري عادته أبصر الفتاة الساحرة الجمال صافيناز محظية عمه فاعجب بجمالها النادر الفتان وعلق بهواها من أول نظرة ومن ذلك الوقت انقطـع إلى مراقبتها وملاحقتها وصار اتبع لها من ظلها وأخيراً تمكن من الاجتمـاع بمليـكة فؤاده فكاشفها بغرامه وبادلته هي الاخرى الغرام واتفقا على كتمان هذا الحب ولكن عبد الحميد الشاب العاشق لم يطق العيش بلا صافيناز سالبة عقله فذهب إلى والدة السلطان عبـد العزيز وباح لها بحبه الفتاة وبما يعانيه من جراء بعده عنها وأقسم اليمين المغلظة أنه لن يعيش إذا لم يقترن بصافيناز.

والدة السلطان عبد العزيز تحل المشكل:

ولما رأت والدة السلطان عبد العزيز تعلق عبد الحميد الشاب بالحسناء صافيناز رقت له ووعدته خيراً بعد أن فكرت في طريقة مناسبة تنقذ بها الامير العاشق من شقاء غرامه ففي احد الايام قابلت ولدها السلطان عبد العزيز واخبرته أن صافيناز طريحة الفراش وهي تشكو من ألم واضطراب زائدين وسألته أن يسمح للفتاة بالطلوع إلى أحد المصايف انتجاعا للعافية فوافق السلطان على ذلك وأخذت الوالدة بعد ذلك تخبره باشتداد المرض على صافيناز كلما وجدت الفرصة السانحة وبقيت كذلك إلى أن لاحظت أن ابنها نسي صافيناز أو كاد ينساها وعندئذ أعلمته بوفاة الفتاة ولما كان السلطان يثق كثيرا بوالدته لم يخامره الشك في الامر بل

صدق ما قيل له واعتقد أن الفتاة اصبحت في عالم الأموات فظفر اذ ذاك عبد الحميد بملكية فؤاده وسالبة عقله فاقترن بها ولم يكن هنالك من طريقة غير الطريقة التي عمدت اليها (بسما سلطان) والدة عبد العزيز لانقاذ عبد الحميد من شقائه وقد بقي خبر رواجه بصافيناز مكتوماً إلى أن اعتلى العرش وعندئذ رقاها إلى درجة قادين أفندي وأصبحت ربة المابين .

عبد الحميد لم يحب سوى صافيناز :

وقد حكى عبد الحميد مرة لأحد ندمائه المقربين بعد اعتلائه العرش وانقطاعه في قصر يلدز، في ساعة من ساعات انسه أنه لم يحب في حياته إمرأة سوى صافيناز وصرح أيضاً أن الفضل في اصطباره على احتمال المكاره في أوائل شبابه يعود اليها .

نساء القصر يسمن صافيناز مر العذاب :

والحقيقة أن صافيناز كانت على جانب عظيم من الجمال وهذا ما أثار غيرة بقية نساء القصر فاخذن يتهمنها بشتى التهم ويسئن معاملتها وفي أحد الأيام اضرمت إحداهن النار في قاعة الحرم واتهمت صافيناز باضرام هذه النار قصد إحداث الحريق فلم يعد في وسع صافيناز احتمال هذه التهم بل طلبت من عبد الحميد أن يفصلها من القصر.

عبد الحميد يتخلى عن صافيناز:

لم يشأ عبد الحميد إجابة صافيناز إلى طلبها في بادئ الأمر ولعله تظاهر بعدم الرضاء ولكنه أخيراً وافق على طلب حبيبته وسمح بخروجها من القصر إلى محل ترتاح فيه من حسد الحاسدات فخصص لها قصراً فخماً في (استنبول) وراتباً شهرياً قدره خمسون ليرة تتقاضاه طيلة أيام حياتها وبعد مدة زوجها من أحد أفراد حاشيته ولما احترق قصرها الكائن في (استنبول) أعطاها قصراً آخر في حي (جاميجه) .

أنجال عبد الحميد :

رزق عبد الحميد خمسة أنجال وهم الامراء : محمد سليم ، وعبد القادر ، وأحمد ، وبرهان الدين ، وعبد الرحيم ، وكان أحبهم إلى عبد الحميد الأمير برهان الدين . وجميع هؤلاء الأمراء كانوا محاطين بالجواسيس يعيشون في دائرة خاصة بهم في القصر عيشة عزلة وانفراد ومع أن أباهم لم يكن متعلماً سعى لتهذيبهم ، ولا حاجة للقول أن هذا التهذيب بقي محدوداً نظراً لحياة الانفراد التي كانوا يقضونها بين جدر القصر وقد لقن كل واحد منهم إحدى الصناعات وقلما واظبوا على الدوام في المعامل ودور الصناعات التي انشئت في القصر خصيصاً لتعليم الأمراء ونشأوا جميعهم من هواة الموسيقى وفاق الأمير برهان الدين أفندي اخوته في هذا الفن وكان الأمراء يتعلمون الرسم على المسيو لوري أحد اساتذة مدرسة الفنون الجميلة في الاستانة .

وجميع أنجال عبد الحميد ما عدا الأمير محمد سليم أفندي كانوا حائزين على رتب عسكرية إلا أنهم لم يشاهدوا الفرق المنتسبين اليها إلا في حفلات (السلاملك) فقط فكان عبد القادر أفندي وأحمد أفندي من ضباط الفرسان وعبد الرحيم أفندي من ضباط المدفعية وبرهان الدين أفندي من ضباط البحرية .

السلطانات والأصهار :

ويقال أن عبد الحميد فقد ابنتين من بناته وذلك قبل ارتقائه العرش يوم كان مقيماً في (اسكدار) فالأولى السلطانة خديجة ذهبت ضحية حريق نشب في القصر والثانية اصيبت بداء الدفتريا في الرابعة من عمرها وقد سمى عبد الحميد المستشفى الذي أنشأه للاطفال في حي (شيشلي) باسم (خديجة سلطان) تخليداً لذكرى ابنته هذه ورزق عدا هاتين الابنتين ست بنات أخرى من امهات مختلفات وهن : السلطانة ذكية وزوجها الداماد نوري بك والسلطانة نائلة وزوجها الداماد محمود جلال الدين باشا والسلطانة نائلة وزوجها عارف حكمت باشا والسلطانة عائشة وزوجها أحمد نامي بك والسلطانة شادية وزوجها فاخر بك والسلطانة رفيقة وزوجها علي فؤاد بك وجميع هؤلاء السلطانات كن يحملن وسام(خاندان آل عثمان) ووسام المجيدي من الطبقة المرصعة ووسام الشفقة من الطبقة الاولى . ■



شخصيّات وراء الأحداث

ايمان نويهض

جوشوا نكومو　　　　روبرت موغابي



روبرت موغابي



ولد روبرت موغابي، وهو من ألمع القادة الوطنيين في روديسيا. في كوتاما (Kutama) سنة ١٩٢٥ حيث درس ثم عمل استاذاً في مدرسة الارسالية الكاثوليكية. تعرف إلى النشاط السياسي مبكراً واصطدم خلال دراسته في كلية فورت هير الجامعية في جنوب افريقيا مع رئيس الوزراء الروديسي تود (Todd) آنذاك وهدده بالضرب إذا أقدمت الحكومة الروديسية على حسم رواتب الأساتذة.

أمضى أواخر الخمسينات في غانا خلال عهد غوابي نكرو، حيث تزوج من غانية. عاد إلى وطنه سنة ١٩٦٠ وقام سنة ١٩٦٣ بالتعاون مع القس سيثول (Sithole) بانشاء جبهة (Zanu) منفصلا عن جبهة (Zapu).

اعتقل سنة ١٩٦٤ واستمر اعتقاله عشر سنوات حصل خلالها على ثلاث درجات جامعية في القانون بالمراسلة، كما نجح في إزاحة القس سيثول عن زعامة جبهة (Zanu) التي ترأسها فيما بعد.

تأثر موغابي بالأفكار الاشتراكية وطالب بزيمبابوي مستقلة ولا عنصرية وتحالف مع جبهة (Zapu) لنكومو ضمن الجبهة الوطنية لتحرير زيمبابوي سنة ١٩٧٦. وعارض اللقاء مع سميث ممثل الأقلية البيضاء واستمر ونكومو بالعمل المسلح ضد النظام الروديسي بالرغم من تسلم موزوريوا (حليفهما السابق) لرئاسة الحكومة خلال سنة ١٩٧٩ كما عارض لقاءات حليفه نكومو مع ممثلي النظام الروديسي. شارك في الاتفاق الأخير (كانون الأول ١٩٧٩) مع النظام الروديسي برعاية بريطانيا والولايات المتحدة الذي سمح له بالعودة إلى بلاده وعودة البلاد إلى حظيرة بريطانيا كفترة انتقالية تجري

فيها انتخابات حرة يعلن بعدها استقلال روديسيا تحت اسم زيمبابوي. ولقد جرت الانتخابات النيابية واستطاع حزب روبرت موغابي ان يفوز بأكثرية مقاعد مجلس النواب البالغ عددها مائة مقعد. وتوزعت المقاعد كما يلي:

حزب موغابي ٥٧ مقعداً. حزب جواشوا نكومو ٢٠. حزب ميزمراو ٣ مقاعد و٢٠ مقعداً للأقلية البيضاء.

جوشوا نكومو

ابن مالك أبقار وواعظ ديني ولد يوم ١٩ حزيران ١٩١٧ في ماتابيلاند وهو من قبائل الكارانغا. تلقى علومه الابتدائية في روديسيا واستكملها في جنوب افريقيا ليعود سنة ١٩٤٥ إلى الوطن مسؤولاً عن الضمان الاجتماعي لعمال السكك الحديدية فسكرتيراً عاماً لاتحاد عمال السكك الحديدية الروديسية واستمر بالدراسة فحصل على شهادة ب. ع. من جامعة جنوب افريقيا.

انتخب رئيساً للكونغرس الوطني الافريقي سنة ١٩٥٧ وبعد حله على يد السلطات هرب نكومو إلى بريطانيا خوفاً من الاعتقال وعاد سنة ١٩٦٠ فأنشأ الحزب الديموقراطي الوطني الذي حل في السنة التالية فأنشأ جبهة زابو (Zapu).

نفي مرتين خلال ١٩٦٢ - ١٩٦٤ ثم وضع في معسكر اعتقال من نيسان ١٩٦٤ حتى كانون الأول ١٩٧٤ حين أفرج عنه فطار بين الدول الأوروبية والافريقية لدعم قضية بلاده. والتقى روبرت موغابي زعيم جبهة زانو (Zanu) سنة ١٩٧٦ ضمن « الجبهة الوطنية لتحرير زيمبابوي » التي رفضت التفاوض مع سميث ممثل الأقلية البيضاء سنة ١٩٧٧ وعارضت مفاوضات موزوريوا (الحليف السابق) مع سميث التي انتهت في اذار ١٩٧٨ على اتفاق بتسليم الحكم للأكثرية السوداء واقامة انتخابات برلمانية. عارض نكومو الاتفاق بالرغم من موافقته على المبدأ والتقى بشكل سري بايان سميث نفسه في آب ١٩٧٨ معرضاً لنفسه لكثير من الانتقادات. استمر نكومو بالعمل المسلح ضد النظام الروديسي ونجحت المساعي البريطانية - الأميركية على جمع كافة الزعماء الروديسيين للاتفاق في كانون الأول ١٩٧٩ على مرحلة انتقالية في روديسيا نحو اقامة الاستقلال. وبناء عليه عاد نكومو إلى روديسيا مع الوعد بوقف العمل المسلح.

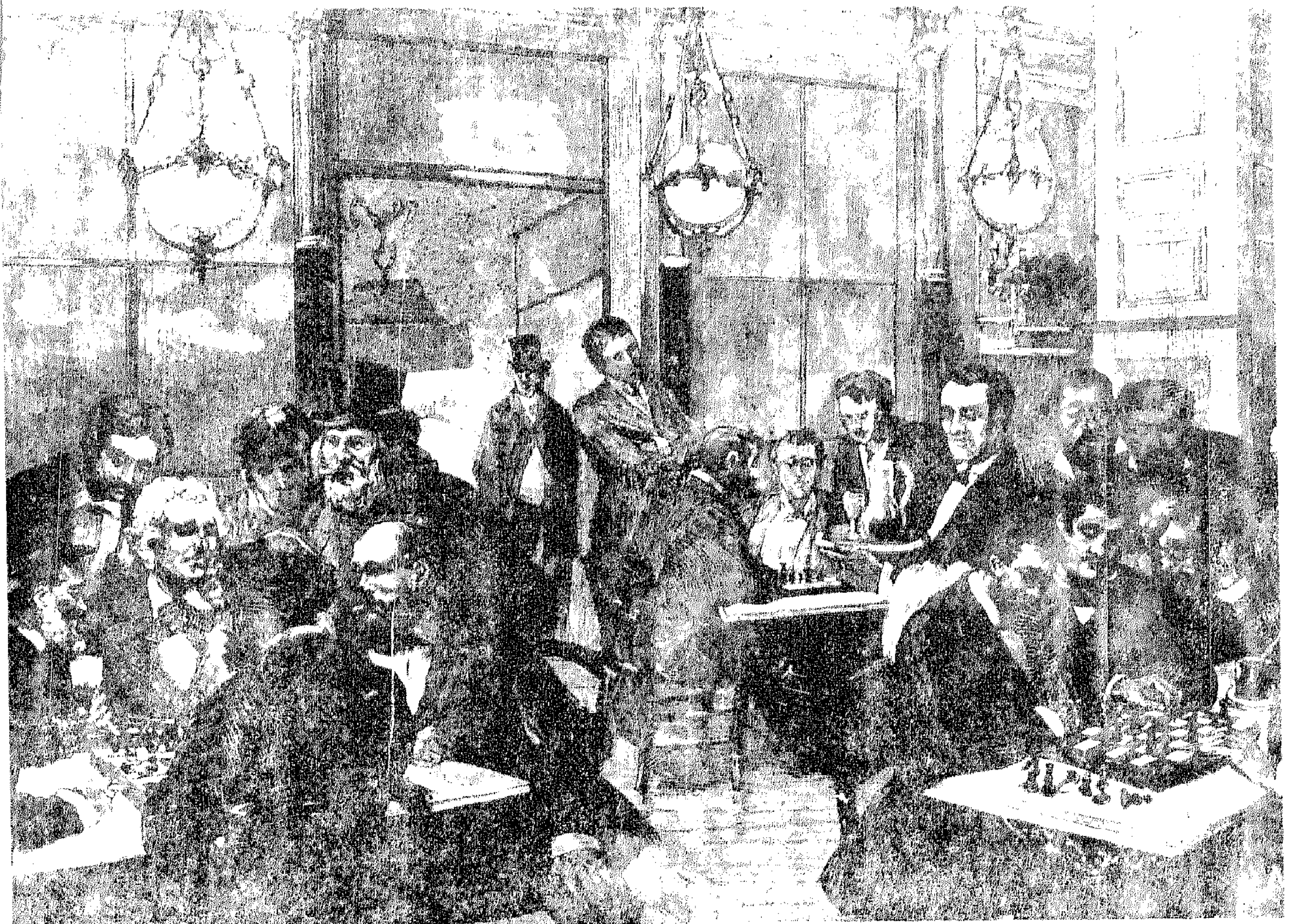
■

بقلم محمد مراد سكر

مقهى الاريجانس

ملتقى كبار لاعبي الشطرنج

في القرن الثامن عشر



صورة لمقهى لاريجانس اخذت خلال جولة شطرنج بين باريس وفيينا بواسطة التلغراف ! تشيفورين يتابع نقلة يقوم بها روزنتال.



خلال مقالاتنا السابقة عن الشطرنج ورد اسم مقهى لاريجانس مراراً عديدة، كمكان مختار يلتقي فيه اللاعبون الكبار في الشطرنج من كافة أنحاء العالم. ترى متى أنشئ ولماذا كانت له هذه الأهمية هذا ما نحاول ان نسلط عليه الأضواء خلال مقالنا اليوم.

في سنة ١٦٧٠ أقام أحد الأميركيين في معرض سان جرمان زاوية كان يقدم فيها للزوار القهوة في فناجين خاصة، وسرعان ما استهوت الفكرة الكثيرين في أوروبا، وهكذا نشأت فكرة المقاهي في أوروبا وبدأ انتشارها.

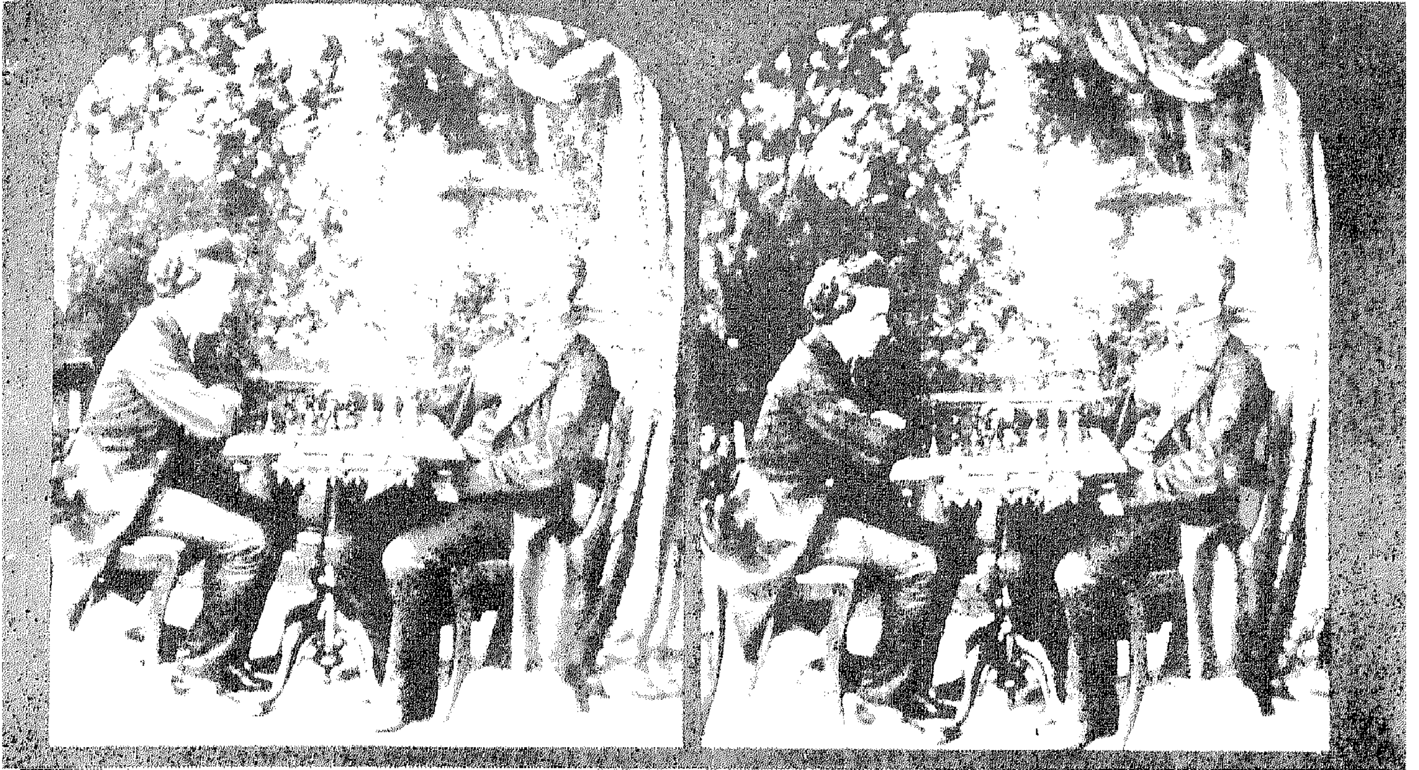
وفي سنة ١٦٨٨ قام السيد لوفيفر بافتتاح مقهى القصر الملكي وذلك في الساحة القديمة للقصر الملكي. بعد لوفيفر قام لوكليرك بمتابعة العمل وكان للأخير امرأة بمنتهى الجمال، ما إن بدأت بخدمة الزبائن وتقديم القهوة لهم حتى انتشر اسم المقهى وتقاطر عليه كل محب للجمال من الطبقة الارستقراطية وقسم من الشعراء الذين يستهويهم الجمال فقاموا بتنظيم قصائد صغيرة (أراجيز) تتغنى بجمالها، قصائد لاقت من الشهرة في ذلك الحين حدا دفع الكثيرين من جعل المقهى المكان المفضل لهم كل يوم، وتضيف القصة ان الحاكم فيليب دي اورليان ودوق دي شارتر كانا من بين رواد هذا المقهى، ولما كانت كلمة ريجانت بالفرنسية تعني الحاكم، ولما كان قصر الحاكم لا يبعد عن المقهى فقد أطلق الناس على هذا المقهى تسمية لاريجانس نسبة إلى ما سبق وأصبح يعرف بمقهى لاريجانس. وبهذا الاسم اشتهر هذا المقهى وأصبح ملتقى طلاب الجمال من الطبقة الأرستقراطية، وبقيت شهرته مدة طويلة من الزمن بعد ان أصبح ملتقى لاعبي الشطرنج. ولعل القصة التالية تلقي بعض الضوء على رواد هذا المقهى.

يقول لوفيه سنة ١٧٨٧: دخلت مقهى لاريجانس يوماً، فلم أر سوى اناس غارقين في تحضير المات للشاه، جلست قرب احدى الطاولات، ولكن انفعالاتي الداخلية، وكنت منفعلا ذلك اليوم من أمر خارجي، لم تسمح لي بالجلوس طويلا، فقمت أتمشى في المقهى بخطوات واسعة يقطع صوتها السكون العميق الذي يلف المقهى، وفجأة ارتفع صوت أحد اللاعبين وهو يفرك يديه بفخر: شاه مات، فما كان من خصمه إلا أن قال، فقدت الوزير وبالتالي جولة جميلة، أتفرك يديك ظناً منك أنك ربحتها بجدارة، ألا تعلم من هو صاحب الفضل في ذلك، ثم أدار رأسه نحوي قائلا: إنه صاحب الفضل في هذه النقلة، فتوقفت مدهوشاً ومتطلعاً إلى اللاعب الآخر بشكل يفهم منه من اني لا أفقه شيئاً مما يقوله خصمه، فتابع اللاعب المغلوب: ألا تفهم العلاقة، منذ ساعة والشاب يدور ويلف، حول عزيزتي صوفيا التي تجلس عن يميني وابنة عمي الجميلة التي تجلس عن يساري، عزيزي عندما يكون الانسان محباً لا يدخل مقهى لاريجانس، لقد شغلت بالي لدرجة لم أعد أرى اللعب فقمت بهذه النقلة الخطأ التي لا يقوم بمثلها إلا كل مبتدئ، هل من المعقول ان أخسر وزيراً بهذا الشكل (ألا تعلم مشيراً إلي، بان كل بنات العم لا تساوي هذا الوزير الذي خسرته اليوم).

وحباً في انقاذ الموقف، تراجعت من مكاني بسرعة فاذا بأزرار سترتي تعلق برقعة لاعب آخر فاوقعها أرضا، وهاأنذا أمام خصمين جديدين، قال لي احدهما، ألا تنتبه قليلا، بينما صرخ الآخر لقد افقدتني جولة رابحة، فيجيبه الأول، ولكن جولتك انت هي الخاسرة، كنت سأربح هذه الجولة ولو لعبتها ضد فيردوني، وأنا كنت ربحتها ولو كنت ضد فيليدور، فأجبتهم بخجل، أرجو ان لا يزعل احدكما، سأقوم بدفع ثمن هذه الجولة، تدفع ... أجاب الآخر بتهكم، لا يبدو عليك انك على سعة من المال لتدفع ثمن هذه الجولة، فقلت بحياء لم؟ ما هو الشرط؟ فقال: الشرف، لقد حضرت من بعيد خصيصاً لألتقي هذا السيد الذي يظن انه ليس له نظير، ولولاك للقنته اليوم درساً لن ينساه، درس؟! يقول الآخر، أحمد الله على ان هذا السيد قد انقذك من خسارة، فقد كنت سأربح الوزير بعد ١٨ نقلة، ولكنك لن تلعب أكثر من عشر نقلات فالمات كان بانتظارك.

ايها السيد، انت السبب بهذه الاهانة، حضرة السيد، يجب ان اعرف انه في مقهى لاريجانس لا يركض الناس. وهنا يهب لاعب آخر ليقول صه، في مقهى لاريجانس لا يصرخ الناس بل لا يتكلمون مطلقاً.

وكثر الكلام من كل جهة كل يوبخني بطريقته إلى ان حضر صديقي ليسحبني خارج المقهى.



بول مورفي البطل الأميركي (١٨٥٩) يلاعب اللاعب الهنغاري الشهير لوينثال

كان مقهى بروكوب أول مركز شطرنج في باريس، وفي سنة ١٧٤٠ ترك الهواة هذا المقهى ليلجأوا إلى مقهى لاريجانس، ولعل الروائي المعروف لوساج كان أول أشهر لاعبي هذا المقهى، وقد وصف ذلك قائلا: «كنت ترى في صالة كبيرة زينت بالقناديل والمرايا حوالي عشرين من كبار الشخصيات يلعبون الداما أو الشطرنج على طاولات من مرمر يحيط بهم متفرجون لا يرفعون نظرهم عن الرقع، الجميع يتحلى بالصمت، لا تسمع سوى صوت النقلات، انه المكان الذي تشعر فيه بالوحدة على الرغم من احاطتك بستين شخصاً.

في سنة ١٧٦٢ تخلى لوكليرك عن المقهى للسيد راي، ويذكر ديدرو المقهى فيقول: مهما كان الطقس ممطراً أم جميلا فقد كنت ارتاد هذا المقهى يومياً في الخامسة مساء، هناك كنت اتسلى برؤية لاعبي الشطرنج فكما كانت باريس محط انظار السائحين، فان مقهى لاريجانس كان محط انظار أشهر لاعبي الشطرنج في العالم، فعند راي، يلتقي ليغال، فيليدور، مايو، الخ..

في مقهى لاريجانس، ظهر لأول مرة الموسيقي فيليدور، جوزف الثاني امبراطور النمسا، ابن ماري تيريز الذي كان يسافر باسم مستعار، الكونت دي فالكنشتاين سنة ١٧٧٧، القيصر بول الأول ابن كاترين (روسيا) سنة ١٧٨٠. كما كان من رواد هذا المقهى في اواخر القرن الثامن عشر اشهر لاعبي الشطرنج في العالم، فبالاضافة إلى ديدرو ولوساج، كنا نرى جان جاك وجان باتيست روسو، فولتير، مارمونتيل، دالامير، برناردان دي سان بيير، مارشال دي ريشيليو، البانجامان فرانكلين، لافاييت، شامفور، بومارشيه، كميل دي موسلين، باراس الخ... ويروي كتاب «فرنسا خلال الثورة» الذي كتبه الأخوة كونكور، كان مقهى لاريجانس الذي عرف بالشطرنج وباسم لافاييت، يطرد الناس الذين يلبسون الثياب المهلهلة أو الرخيصة. ويروي لوريدان لاركي القصة التالية:

في مقهى الريجانس كان مارتان يحكم بين لاعبين عندما قام احدهما بعناية بفتح سترته ليظهر للحكم «الكوردون بلو» الذي يحمله، فتظاهر مارتان بعدم رؤيته، وتابع التحكيم إلى ان انتهت الجولة، ثم التفت إلى هذا اللاعب



صورة مورفي المهداة من قبله لمقهى لاريجانس مؤرخة بخط يده في ١٢/١٠/٨٥.

قائلا : والآن بعد ان رايت انك على خطـأ تستطيع سيدي الدوق ان تعيد تبكيل ازرار سترتك .

وبقيت النخبة الباريسيـة اثنـاء الثـورة الفرنسية تتابع زياراتها لهذا المقهى ومن بينهم كما اسلفنا روبسبيير، وقصته مع الفتاة التي لبست ثياب شاب ولعبت معه وربحته وافرجت بالتالي عن حبيبها الكونت معروفة لقرائنا فقد سبق ورويناها في عدد سابق . وكان نابليون من رواد مقهى الريجانس هذا ، وقد احتفظ المقهى بطاولة كتب عليها (طاولة نابليون التي لعب عليها سنة ١٧٩٨) وكان نابليون من محبي الشطرنج والجولات القليلة المحفوظة عن نابليون تشهد بعبقريته في الهجوم ، وقد قرأنا في أحد الكتب القديمة الشطرنجية ما يلي :

مقهى لاريجانس هو المكان الذي يجتمع فيه حالياً الشخصيات الباريسية التي تلعب الشطرنج . وقد كان المقهى في القرن الثامن عشر مكان الاجتماع المفضل لأشهر رجالات الفكر في فرنسا مثل فولتير، روسو، دوق دي ريشيليو،

مارشال دي ساكس، شامفور، سانت فوا، فرانكلين، مار مونتيل، فيليدور وغريم الذين امضيا اغلب اوقاتهما في هذا المقهى إما لاتمام اعمالهما الخاصة وإما في لعب الشطرنج، حتى ان الكراسي والطاولات التي استعملاها بقيت محتفظة باسميهما مدة طويلة، وكم مرة سمعت صاحب المقهى يقول بفخر للنادل، اخدم جان جاك، وانظر إذا كان فولتير بحاجة لشيء، فقد كان من عادة جان جاك روسو ان يلعب يومياً بعض الجولات في الشطرنج في هذا المقهى وكان يلبس دوماً قبعة من الفرو وثوبه الأرمني، وكانت الجماهير التي تعرف اوقـات دخولـه المقهى في كل يوم تتزاحم في الموعد هذا على باب المقهى لتشاهد الكاتب الكبير وتحييه، مما دعى الشرطة لأن تقف يومياً في ذلك الوقت لتبعد الناس عن باب المقهى..

وبين الرواد البارزين ايضاً، نذكر دوق دي كارامان، كونت دي مونتالو، المركيز دي جياك، البارون اندريه، فيكونت دي فوفرولاند، الفرد دي موسيه، وكان الأخير يلعب من وقت لآخر مع ارنوس دي ريفيير لغاية وفاته سنة ١٩٠٥.

ويروي شارل جوليبه القصة التالية: أحد المسنين من رواد المقهى القدامى (ثلاثين عاماً) الذين كانوا يقضون فيه حوالي ١٥ ساعة يومياً يتفرج على اللاعبين، لكن لم يره احد يوماً يلعب الشطرنج. وذات مساء وبعد ان فرغ المقهى من رواده إلا من لاعبين كانا يكملان جولة طالت ووقف صاحبنا يتابع الجولة عندما احتج احد اللاعبين على طريقة نقل احد الأحجار ولما كان هذا المسن هو الشاهد الوحيد في الصالة فقد التفت إليه احد اللاعبين ليكون حكماً في هذا الخلاف، فاجاب بحياء: عذراً سادة... — لا، يجب ان احكم.

— ولكن.. — غير مقبول، عليك ان تحكم ونحن نرضى بحكمك.

— ولكني لا افقه بهذه اللعبة... — — إذا ماذا تعمل هنا كل يوم في هذا المقهى

— سادتي. انا متزوج وعندي.. ويبدأ برواية مشاكله المنزلية وخلافاته الخ...

* * *

سنة ١٨٥٨ زار المقهى اللاعب الأميركي الشهير بول مورفي، حيث لعـب مع اشهـر اللاعبين وربح منهم وكان يبلغ من العمر ٢١ عاماً، كما اجريت في هذا المقهى أول دورة دولية في الشطرنج وكان ذلك خلال المعرض الدولي الذي جرى في باريس سنة ١٨٦٧، تمت هذه الدورة بناء على مبادرة من ترنوس دي ريفيير الذي نظم المباراة، فاز بها يومئذ البارون كوليش من رواد المقهى ايضاً، وقد نال الجائزة التي قدمها الامبراطور.

البير كلير، المستشار الأول في القصر ايضاً كان من رواد هذا المقهى وبقي لمدة تزيد عن ستين عاماً يحضر تقريباً كل يوم بعد الظهر ليلعب الشطرنج وكان صديقاً للرئيس غريفي الذي كان ايضاً من رواد المقهـى، يلعـب الشطرنج واحياناً ليلعب البلياردو، وبقي من رواده لغاية يوم انتخابه رئيساً. ويظهر ان طبخة انتخابه تمت في المقهى، لذا بث عيونه حتى لا تتم طبخة اخرى تطيح به، وقد اغلقه احترازاً لمدة بسيطة من الزمن.

* * *

خلال الجمهورية الثالثـة بقـي مقهـى لاريجانس لمدة ٢٨ سنة بيد صاحبه كيفير مركزاً للاعبي الشطرنج ومكاناً لاجتماعاتهم ومبارياتهم ومحجـاً لكبـار اللاعبـين مثـل روزانتـال، تشيغورين، رايس وسواهم مما اتينا على ذكرهم سابقاً. وفي سنة ١٩٠٣ باع كيفير مقهاه وقام صاحبه الجديد بادخال بعض التعديلات عليه ثم بيع مرات عديدة وكان كل واحد يدخل على المقهى بعض التعديلات والتوسعات حتى فقد طابعه القديم واصبح مطعماً اكثر منه مقهى، ولكنك كنت ترى في احد غرفه صورة الريجانس القديم سنة ١٨٤٣ تمثل سانت امان وستاوتن يلعبان، كما كنت ترى صورة مورفي وهو يلعب استدباراً.

وفي سنة ١٩١٦ اختفت تقريباً كافة معالم الريجانس القديمة بعد ان تالفت جمعية اصدقاء لاعبي الريجانس الذي نقل مركزه إلى مقهى (أونيفير) ومنذ ذلك الحـين انقلـب مقهـى لاريجانس إلى مطعم وبقي بعض اللاعبين الكبار يحجون اليه من وقت لآخر يذكرون فيه ايامهم الغابرة ويتذكرون اجمل مبارياتهم.

■

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية



تقع في افريقيا الشمالية، مساحتها ١٧٥٩٥٤٠ كلم مربع، وعدد سكانها نحو مليون وسبعمائة الف نسمة، عاصمتها طرابلس.

دخل الفينيقيون قديماً هذه البلاد، وأقاموا قواعد تجارية لهم على شواطئها. ثم جاء اليونان بعدهم فكانت كلمة ليبيا تطلق على مساحات شاسعة ليس لها حدود في شمالي افريقيا، أما الرومان فانهم اقاموا فيها امارتين: ليبيا العليا وسموها سرانيكا وليبيا السفلى وسموها مرمريكا. وأهمل اسم ليبيا الى ان اعاده اليوا الايطاليون في اوائل هذا القرن، كما ان حدودها كانت غير مستقرة تختلف باختلاف الفاتحين.

ودخلها العرب سنة ٦٤٢م بعد ان احتلوا الاسكندرية، فاصبحت البلاد بذلك جزءاً من الامبراطورية الاسلامية في شمال افريقيا.

وفي القرن الثاني عشر غزاها النورمانديون، ثم غزاها فرسان القديس يوحنا في القرن السادس عشر، الى ان دخلها العثمانيون سنة ١٥٥٦ وضموها الى الامبراطورية العثمانية. الا انها بقيت متمتعة باستقلالها الذاتي، وخصوصاً في عهد السلالة القرمنلية التي امتد حكمها من سنة ١٧١٤ الى سنة ١٨٥٣.

كانت مطامع الغرب موجهة دائماً نحو شواطئها، فقامت لهم هناك مراكز اعمال مكنت لهم مع الايام اسباب التغلغل شيئاً فشيئاً، وخصوصاً الدولة الايطالية التي احتلت عسكرياً بعض المناطق على شاطئ المتوسط في اعقاب الحرب الايطالية العثمانية سنة ١٩١٢، واطلقت عليها اسمها القديم ليبيا. ثم وسعت رقعة نفوذها خلال الحرب العالمية الاولى. إلا ان الشعب كان في ثورات متواصلة ضد الايطاليين، انتهى بضم البلاد نهائياً الى الممتلكات الايطالية سنة ١٩٣٩.

واثناء الحرب العظمى الثانية، في اعقاب انتصار الحلفاء في معارك افريقيا الشرقية سنة ١٩٤٠/١٩٤٣، احتلت فرنسا وبريطانيا البلاد، ووضعتا يديهما على الأحكام فيها حتى سنة ١٩٥٠ حين اجتمع المجلس الوطني واعلن محمد ادريس السنوسي امير سرانيكا ملكا على ليبيا. وفي ٢٤ تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٥١، اعلن استقلال البلاد ثم انضمت الى الجامعة العربية في آذار / مارس سنة ١٩٥٣.

ان الوضع الاقتصادي المتدهور يومذاك حمل السلطة على منح بعض الامتيازات لبريطانيا التي ابقت قسماً من جيشها هناك، وبعض الامتيازات للولايات المتحدة الاميركية التي انشأت قاعدة عسكرية هائلة لها واقامت عدة مناطق استراتيجية.

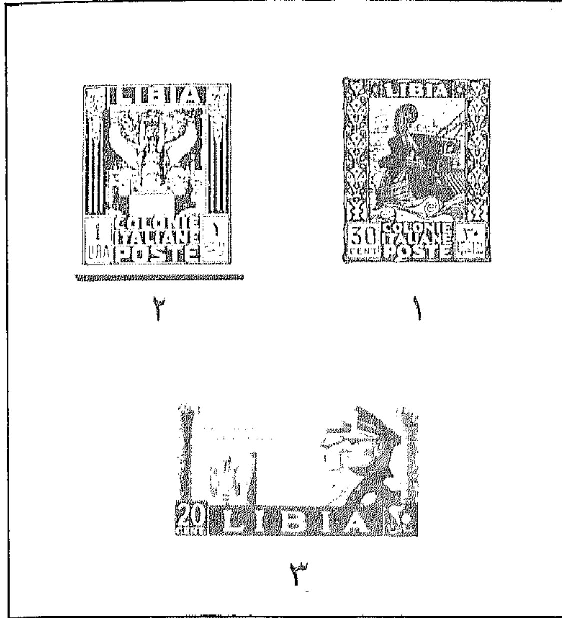
وفي سنة ١٩٦٤ ألغي النظام الاتحادي في البلاد ثم جاءت الثورة سنة ١٩٦٩ باسلوب جديد في الحكم سار في البلاد نحو التقدم والازدهار، محطماً معالم الحكم القديم وآثاره بانيا حياة ونظاماً ومستقبلا أفضل ولم يزل هذا التطور في سعي حثيث إلى اليوم.

تاريخ الطوابع

بدأ استعمال الطوابع في ليبيا بالمكاتب البريدية الاجنبية الايطالية، ففي سنة ١٨٦٩ افتتح مكتب قنصلي ايطالي للبريد في طرابلس واستعمل طوابع ايطالية مخصصة لجميع المكاتب الايطالية في الامبراطورية العثمانية.

وفي ١٥ آذار / مارس سنة ١٩٠١ افتتح مكتب بريد في بنغازي. وفي تموز / يوليو من السنة ذاتها صدر اول طابع ايطالي من فئة ٢٥ سنتيم، خصص لمكتب بريد بنغازي، موشحاً « BENGASI 1 PIASTRA 1 ». وفي كانون الأول / ديسمبر سنة ١٩١١ وشح طابع اخر من فئة ٢٥ سنتيم بالتوشيح والفئة ذاتها ليستعمل هناك، وكانت القوات الايطالية قد احتلت بنغازي في ٢٠ تشرين الاول / اكتوبر سنة ١٩١١ في حربها مع الأتراك. اما في ولاية طرابلس فقد استعملت المكاتب الايطالية في كانون الاول / ديسمبر سنة ١٩٠٩، الطوابع الايطالية لسنة ١٩٠١ موشحة « DI BERBERA TRIPOLI »، فصدرت مجموعة عادية من عشرة طوابع وطابعين للبريد المستعجل. وعلى اثر احتلال المدينة من قبل القوات الايطالية في الحرب المذكورة، الحقت بايطاليا في ١٨ تشرين الاول / اكتوبر سنة ١٩١٢ وعرفت بمستعمرة ليبيا. اما داخل البلاد فقد تم اقتحامها تدريجياً لغاية سنة ١٩٣٢. وفي كانون الاول / ديسمبر سنة ١٩١٢ صدرت اول مجموعة عادية مؤلفة من ١٦ طابعاً من الطوابع الايطالية موشحة «LIBIA» باحرف مختلفة، تلتها خمس مجموعات عادية وتذكارية وللطرود والاجور المستحقة اخرها صدرت في شهر آذار / مارس سنة ١٩١٦.

في تموز / يوليو ١٩٢١ صدرت اول مجموعة مصورة من ١٢ طابعاً (صورة بعض النماذج ٢،١)، ودرجت على هذا المنوال لغاية ١٦ ايار / مايو ١٩٤١ عندما صدرت اخر مجموعة تحمل رسم هتلر وموسوليني لمناسبة ذكرى محور برلين روما (صورة ٣)، واما مجموع ما صدر فهو ١٨٨ طابعاً، منها للمجموعات العادية والتذكارية والطرود والبريد المستعجل والاجور المستحقة، واثمنها اليوم هو طابع البريد المستعجل من فئة ١½ لير اصدار ١٩٢٧ قيمته ٨٠٠٠ جنيه استرليني وطابع للطرود فئة ٥ سنتيم اصدار سنة ٩٢٧ أصبحت



١ ٢ ٣

قيمته اليوم ٤٥٠٠ جنيه استرليني.

اما في مقاطعة سرينايكا فقد صدرت في ٢٤ تشرين الاول / اكتوبر ١٩٢٣ اول مجموعة تذكارية ايطالية من اربعة طوابع، اصدار ١٩٢٢ بعد توشيحها «CIRENAICA» تلتها مجموعات عدة تذكارية وجوية موشحة باحرف مختلفة عن الاولى ومنها مصورة طبعت خصيصاً باسم المقاطعة، اخرها صدرت في ٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٤، وأثمنها الطابع الاخير من فئة ٢٥ لير الموشح بالتاج الملكي «SERVIZIO DI STATO» أصبحت قيمته اليوم ٩٠٠ جنيه استرليني، اما مجموع ما صدر فهو ١٣٧ طابعاً.

وفي مقاطعة تريبوليتانيا فقد صدرت ايضاً بتاريخ ٢٤ تشرين الاول / اكتوبر ١٩٢٣ اول مجموعة تذكارية من اربعة طوابع موشحة «TRIPOLITANIA»، ودرجت كذلك الاصدارات الموشحة باسم المنطقة لكن باحرف مختلفة، ثم صدرت المجموعات التي تحمل صوراً تذكارية وللبريد العادي والجوي والمستعجل، آخرها في ١٦ شباط / فبراير سنة ١٩٣٥، وكان مجموعها ٢٤١ طابعاً. ونذكر بالمناسبة ان الطابع الجوي لأول رحلة بين روما وموغاديشو اصبحت قيمته اليوم ٩٠٠ جنيه استرليني، على غرار آخر طابع صدر لسريناكيا.

وفي ١٠ حزيران / يونيو سنة ١٩٤٠ عندما اعلنت ايطاليا الحرب على بريطانيا، اصبحت ليبيا ما بين ١٩٤٠ و١٩٤٣ مسرحاً حربياً ما بين

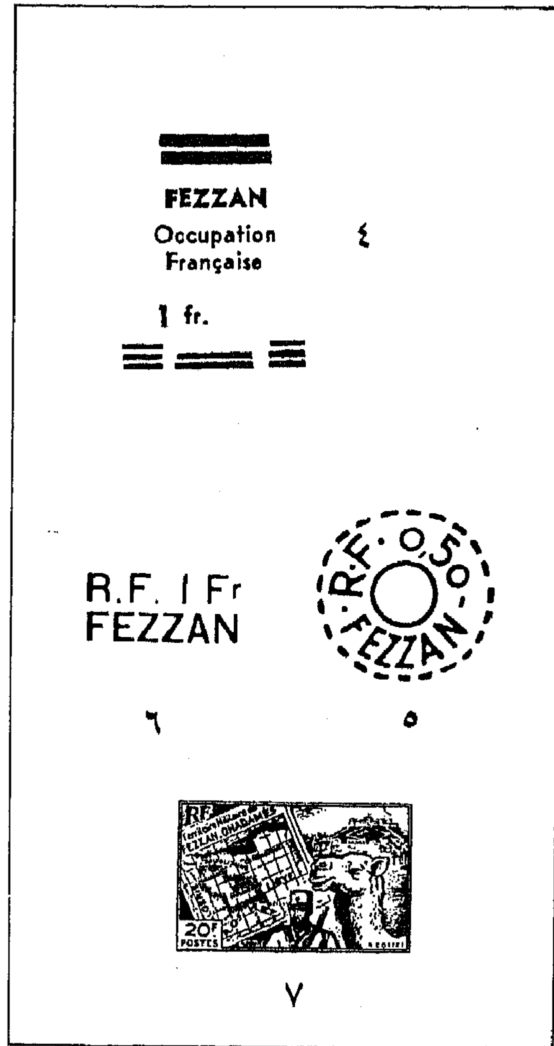
الجيش الايطالي معززة بفيلق افريقيا الالماني والجيش الثامن البريطاني الذي احتل ليبيا في ١٦ شباط / فبراير ١٩٤٣، فاصبحت ليبيا تحت الادارة العسكرية البريطانية من سنة ١٩٤٣ الى ١٩٥١. اما الطوابع التي استعملت في سرينايكا فكانت مجموعة من ١١ طابعا انكليزيا من فئة بنس واحد الى عشرة شلنات، موشحة «M.E.F.» اي قوات الشرق الاوسط، وكانت تستعمل في المناطق المحتلة في افريقيا من قبل القوات البريطانية، في اريتريا والصومال الايطالي وسرينايكا، وتريبوليتانيا وجزر الدوديكانيز، وكانت قد صدرت في اول كانون الثاني / يناير ١٩٤٣.

اما منطقة تريبوليتانيا فكانت تستعمل الطوابع ذاتها الموشحة «M.E.F.»، لكن صدرت في اول تموز / يوليو ١٩٤٨ مجموعة اخرى خاصة بالمنطقة من ١٣ طابعا من الطوابع الانكليزية ايضا، موشحة بسطرين «B.M.A/TRIPOLITANIA»، اي ادارة عسكرية بريطانية وبالليرالايطالي من لير واحد الى ٢٤٠ لير، ومجموعة للأجور المستحقة من خمسة طوابع من لير واحد الى ٢٤ لير. اما في ٦ شباط / فبراير ١٩٥٠، وكانت قد اصبحت المنطقة تحت الادارة المدنية البريطانية، فقد صدرت مجموعة من ١٣ طابعا ومجموعة من خمسة طوابع للأجور المستحقة، موشحة «B.A. TROPOLITANIA» اي ادارة بريطانية.

وفي سنة ١٩٥٠ الحقت سرينايكا بالمملكة الليبية، وفي ٢٤ كانون الاول / ديسمبر ١٩٥١ اصبحت جميع مناطق ايبيا من ضمن المملكة.

اما منطقة فزان الواقعة في جنوب ليبيا، فكانت قوات فرنسا الحرة قد دخلتها من تشاد بقيادة الجنرال لوكليرك، واحتلت مرزوق، اكبر بلد في فزان، بتاريخ ١٦ كانون الثاني / يناير ١٩٤٣، وبقيت فزان تحت الادارة العسكرية الفرنسية لغاية ١٩٥١، بما فيها منطقة قدامس الواقعة في الزاوية ما بين تونس والجزائر. وفي هذه الأثناء اصدرت في ١٦ ايار / مايو ١٩٤٣ مجموعة عادية من ١٢ طابعا، واخرى للأجور المستحقة من خمسة طوابع موشحة فزان (صورة ٤)، قيمتها اليوم نحواً من ٨٠٠٠ جنيه استرليني.

وفي ١٠ حزيران / يونيو ١٩٤٣ وشحت ثلاثة طوابع باليد في صبحا على طابعين ايطاليين ٠,٥٠ فرنك على ٥٠ سنتيم للبريد. و٠,٥٠



فرنك على ٥٠ سنتيم للبريد الجوي بالتوشيح المستدير (صورة ٥)، وطابع ليبي من فئة ٢٥ س توشح بفئة فرنك واحد (صورة ٦)، اصبح قيمة هذه الطوابع الثلاثة اليوم، مستعملة نحواً من ٦٠٠ جنيه استرليني.

وفي ١٦ تموز / يوليو ١٩٤٣، وشحت باليد سبعة طوابع ايطالية المخصصة للطرود، بالتوشيح رقم ٥ . والمعروف ان هذه الطوابع صغيرة الحجم ومستطيلة افقيا ومقسومة بتخريم عمودي، فجاء التوشيح مقسوماً الى نصفين، ويقتضي جمع طابعين للحصول على توشيح كامل. اما قيمة هذه المجموعة مستعملة اليوم والمقسومة، فيزيد عن ٤٠٠٠ جنيه استرليني.

وفي ٢٩ تشرين الاول / اكتوبر ١٩٤٦، أصدرت مجموعة مصورة لتستعمل في فزان وقدامس، مؤلفة من ١٥ طابعا (صورة نموذج واحد ٧).

وفي سنة ١٩٤٨ و١٩٤٩ ، اصدرت مجموعة من طابعين للبريد الجوي ومجموعة من ١١ طابعاً للبريد العادي، لتستعمل في منطقة فزان وحدها .

وفي سنة ١٩٥٠ و١٩٥١ ، اصبحت المنطقة تحت الادارة المدنية، واصدرت مجموعة من طابعين، رصد ريعها للمؤسسات الخيرية، ومجموعة من ستة طوابع للاجور المستحقة ومجموعة عادية من ١٢ طابعا وطابعين للبريد الجوي كلها مصورة .

وفي ٢٤ كانون الاول / ديسمبر ١٩٥١ ، اصبحت المنطقة جزءاً من المملكة الليبية .

منطقة قدامس، الواقعة في الزاوية المحادة لتونس والجزائر، والتي كانت منذ ١٩٤٣ تعتبر كجزء من فزان ، اصبحت تحت الادارة العسكرية الفرنسية واصدرت بتاريخ ١٢ نيسان / ابريل ١٩٤٩، مجموعة عادية خاصة بها من ثمانية طوابع، وطابعين للبريد الجوي، عليها رسم صليب (صورة ٨)، قيمتها اليوم نحو من ٢٠ جنيهاً استرلينيا.

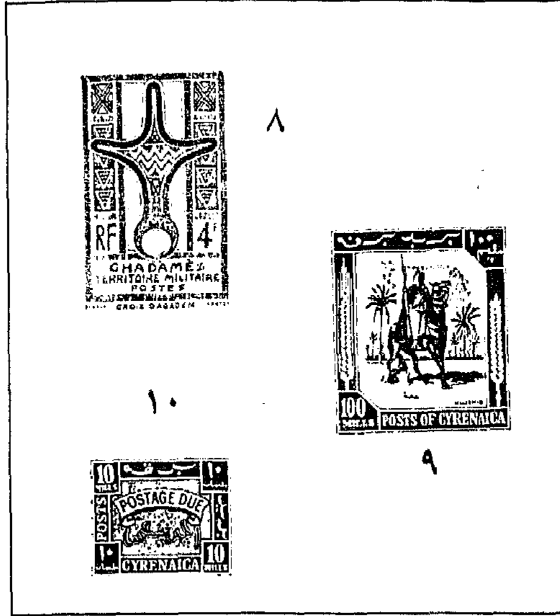
وفي ٢٤ كانون الاول / ديسمبر ١٩٥١ ، اصبحت المنطقة جزءاً من المملكة الليبية .

وفي سنة ١٩٥٠ ، فان سرينايكا التي كانت تحت الادارة العسكرية البريطانية منذ ١٩٤٣ ، اعطيت استقلالا ذاتياً فاصدرت في ١٦ كانون الثاني / يناير ١٩٥٠ ، مجموعة عادية من ١٣ طابعاً عليها صورة فارس محارب (صورة ٩)، قيمتها اليوم تزيد عن ٤٠ جنيها استرلينيا، ومجموعة للاجور المستحقة من سبعة طوابع (صورة ١٠)، قيمتها اليوم تزيد عن ١٠٠ جنيه استرليني .

وفي ٢٤ كانون الاول / ديسمبر ١٩٥١ ، اصبحت المنطقة جزءاً من المملكة الليبية .

اصدارات المملكة الليبية

في ٢٤ كانون الاول / ديسمبر ١٩٥١ ، وقد اصبحت جميع مناطق ليبيا المستعمرة من ايطاليا مملكة واصبح الملك ادريس السنوسي ملكا على البلاد ، لم يكن هناك مجال من الوقت لاصدار طوابع خاصة، فاضطرت ادارة البريد لتوشيح الطوابع الموجودة في الاستعمال وقتئذ ، وهي مجموعة الفارس (صورة ٩)، ومجموعة الاجور المستحقة (صورة ١٠). وهكذا اصدرت المجموعة العادية المؤلفة من ١٣ طابعا ومجموعة الاجور المستحقة المؤلفة من سبعة طوابع،



٨

٩

١٠

لتستعمل في سرنايكا بعد ان وشحتها باللغتين «ليبيا LIBYA» قيمتها اليوم تزيد على ٢٥٠ جنيها استرلينيا، واصدرت لمنطقة تريبوليتانيا عشرة طوابع عادية وخمسة طوابع للاجور المستحقة من المجموعتين ذاتهما بعد ان وشحتهما باللغتين ايضا بكلمة ليبيا وباضافة العملة المستعملة في المنطقة وهي ليرة الادارة العسكرية ، وبالافرنجي «MAL» اي «LIRE MILITARY AUTHORITY»، قيمتها اليوم تزيد على ١٢٠ جنيها استرلينيا .

اما لمنطقة فزان، فقد وشحت عشرة طوابع للبريد العادي فقط، باللغتين ايضا وبالعملة الفرنسية اي الفرنك، قيمتها اليوم تزيد على ٢٠٠ جنيه استرليني .

وفي ١٥ نيسان / ابريل ١٩٥٢ اصدرت اول مجموعة تحمل رسم الملك ادريس السنوسي مؤلفة من ١٢ طابعاً للبريد العادي (صورة ١١)، ومجموعة للأجور المستحقة من اربعة طوابع (صورة ١٢)، ومجموعة من ثمانية طوابع للبريد الحكومي موشحة باللغتين « رسمي OFFICIAL »، على طوابع الملك من ٢ مليم إلى ٢٥ مليم. ثم تتابعت الاصدارات العادية والتذكارية للمناسبات الوطنية والعربية المقررة من الجامعة العربية، لغاية تنحي الملك عن عرشه في أول أيلول / سبتمبر ١٩٦٩ أما مجموع ما صدر في عهد الملك بما فيه المجموعة التي تحمل رسمه، فهو ٢٥٦ طابعا تشكل ثمانين مجموعة مع ١٢ بطاقة تذكارية .



اما الطوابع التي استعملت مباشرة بعد قيام الجمهورية العربية الليبية فهي ما تبقى من الطوابع الملكية وقتئذ، ولكن جرى عليها توشيح بختم كبير باسم الجمهورية باللغتين، ليغطي اسم المملكة الليبية، وهناك مكاتب بريد عدة الغت اسم المملكة بتشطيبه بقلم عريض.

وفي ٧ كانون الاول / ديسمبر ١٩٦٩، اصدرت اول مجموعة تذكارية لمناسبة ذكرى ثورة اول سبتمبر، مؤلفة من ستة طوابع (صورة ١٣)، تبعتها المجموعات المختلفة العادية والتذكارية والبطاقات، للمناسبات المحلية والعالمية والاجتماعية والعلمية؛ اسوة بباقي البلاد المتحضرة.

اما العملة المحلية التي كانت ١٠٠٠ مليم يساوي جنيها ليبيا، فقد تغيرت سنة ١٩٧٢ الى ١٠٠٠ درهم يساوي دينارا ليبيا.

وفي ٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٦، اعلن رئيس البلاد العقيد معمر القذافي الاسم الجديد للجمهورية وهو الجماهيرية العربية الليبية، واعلن عن مسودة دستور يعطي حق الحكم الديموقراطي للجان شعبية، اما الطوابع، فلم يجر عليها تغير الا سنة ١٩٧٧، وعلى مجموعة ذكرى الثورة، فقد اصبحت تحمل اسم « الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية » ومن الممتع أن نذكر عن اصدارات عدة صدرت بحجم صغير وظريف مقاس ٢٠ × ٢٦ مليمتر، يلفت الانتباه وأعطت ميزة خاصة للبلد المصدر، وراقت في نظر هواة جمع الطوابع المتقدمين. ■

أسئلة القراء

السيد المقيس حسن بن محمد – فاس المغرب.

نشكر لكم ثناءكم وتقديركم لهذه المجلة ولمجهوداتنا فيها. اما بشأن الطوابع التي ترغبون في بيعها، فيقتضي موافاتنا ببيان تفصيلي لها، وهل هي جديدة او مختومة وما هي حالتها، فنوافيكم بالجواب. كما ان كتلوج الطوابع الذي تطلبون، يمكنكم الحصول عليه من المكتبات عندكم.

السيد زياد حمزة – السويداء سوريا.

نشكر لكم كتابكم اللطيف، اما بشأن الطوابع التي لديكم، فلا قيمة تجارية لها، وليست الصور التي ننشرها الا نماذج عنها فقط تعين للاسترشاد بها، ففيها الثمين وغير الثمين، ولمعرفة الأسعار يمكنكم الحصول على احد الكتالوجات المعروفة للطوابع.



● قد يجد الجبان عشرات الحلول لمشاكله، ولكنه لا يختار من بينها الا حلا واحدا هو الهرب.
مثل صيني

لقاء جبابرة الملاكمة الذي عاد الحديث عنه في أميركا بعد ٥٣ سنة !!

وفيق علم الدين


جاك ديمبسي

من كان أحق بالفوز: جاك ديمبسي أم جين تاني ؟

شائعات عن محاولة آلكابوني ملك الجريمة التدخل في المباراة:



منذ ٥٣ عاماً وبالتحديد في ٢٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٧، شهدت مدينة شيكاغو حدثاً رياضياً ضخماً ولم تستطع تلك الحقبة الطويلة من الزمن، أن تمحو ذكراه عن أذهان الجماهير في الولايات المتحدة، بل ان مناسبة مرور نصف قرن على تلك الواقعة، جددت ذكرى لقاء جبابرة الملاكمة جاك ديمبسي وجين تاني على بطولة العالم للوزن الثقيل، وقد ساهمت عدة عوامل في بقاء هذه المناسبة حية في الأذهان حتى الآن، منها ان ديمبسي [٨٣ سنة] وتاني [٨٠] ما زالا على قيد الحياة، كما ان هناك أكثر من جانب غامض ومثير لتلك المباراة التي شاهدها عدد من المشاهير وقتذاك بداية من قمم الفن كتشارلي تشابلن والمجتمع حتى آل كابوني ملك الجريمة

في عام ١٩٢٦ فقد الملاكم الأسطوري ومعبود الجماهير جاك ديمبسي لقبه كبطل العالم إثر هزيمته أمام جين تاني الذي كان يلقب بالبحار المقاتل والذي اشتهر بثقافته العالية بل وصداقته المقربة للأديب الشهير جورج برناردشو، وقد انتهى لقاء البطلين والذي أقيم بمدينة فيلادلفيا بفوز تاني بالنقط بعد مباراة من ١٠ جولات، وابتعد ديمبسي عن الملاكمة، ولكنه تحت الحاح منظم مبارياته عاد للأخذ بالثأر، وتحدد يوم ٢٢ أيلول (سبتمبر) للقاء الثأري، على ان يحصل تاني على مليون دولار، أما ديمبسي فينال ٤٥٠ الف دولار!

وما أن اعلن النبأ حتى قامت الدنيا

استعداداً لهذا اللقاء الذي أطلق عليه اسم «معركة القرن العشرين». وتحولت مدينة شيكاغو إلى ما يشبه خلية نحل زحاماً وضجيجاً حتى من قبل موعد المباراة بشهرين، وتوالى حضور الصحفيين من أنحاء أوروبا منذ بداية الصيف، وبدأت الاشاعات والأنباء تتناثر ما بين دعوى قضائية لقسيس يطلب إلغاء المباراة لأنها غير أخلاقية. إلى اشاعة تقول أن آل كابوني سيتدخل لصالح ديمبسي، إلى نبأ عن مرض ديمبسي كذبته زوجته الممثلة الجميلة ايستل تايلور. أما نسبة المراهنات فكانت ٩ إلى ٥ لصالح تاني ثم تغيرت تدريجياً حتى أصبح الرهان متعادلا، وبلغ حد الهوس إلى درجة أن رجلا من مدينة لوس انجلوس راهن على فوز ديمبسي بعشرة آلاف دولار!

وخصصت قطارات ركاب خاصة لنقل المشاهدين وعشاق الملاكمة من مدن هوليوود وتولسا وأوكلاهوما وبيتسبرغ وناشفيل وفلوريدا ونيو أورليانز وسان لويس وميلووكي، بالاضافة إلى طائرة خاصة أقلت نخبة من نجوم الفن مثل زيغفيلد وهارولد لويد وارنفنغ برلين، وازدحمت الصالة بلفيف من قمم نجوم هوليوود وكان دوغلاس فيربانكس الصديق الشخصي لديمبسي أول الحاضرين وتلاه تشارلي تشابلن ثم غلوريا سوانسون وويل روجرز وجون باريمور والمغني آل جولسون وبستركيتون وراعي البقر الشهير توم ميكي. كما حضر المباراة ملك الجريمة آل كابوني الملقب بذي الوجه المجروح، وكان يرتدي قبعة كبيرة بيضاء ويدخن سيجاراً ضخماً وكانت قد سرت اشاعة قوية تقول ان آل كابوني سيحاول التدخل في نتيجة المباراة لصالح ديمبسي الذي أسرع فأرسل اليه خطاباً خاصاً يقول فيه «لا تتدخل واترك المباراة تمضي في روح رياضية.» وفي اليوم التالي تسلمت زوجة ديمبسي باقة من الورد وبطاقة مكتوباً بها «إلى عائلة ديمبسي ولتمض المباراة في روح رياضية»!

أما عن أثمان التذاكر فقد تراوحت ما بين ٥ و ٤٠ دولاراً.

وتجمع ٥٠ مليون أمريكي، يمثلون نصف سكان الولايات المتحدة وقتذاك، حول أجهزة الراديو لتتبع المباراة، بينما ازدحمت مقاعد الملعب بمائة وخمسين ألف مشاهد، واكتمل العدد في السابعة مساء اي قبل بدء المباراة بثلاث ساعات، واتخذت الترتيبات لاتمام



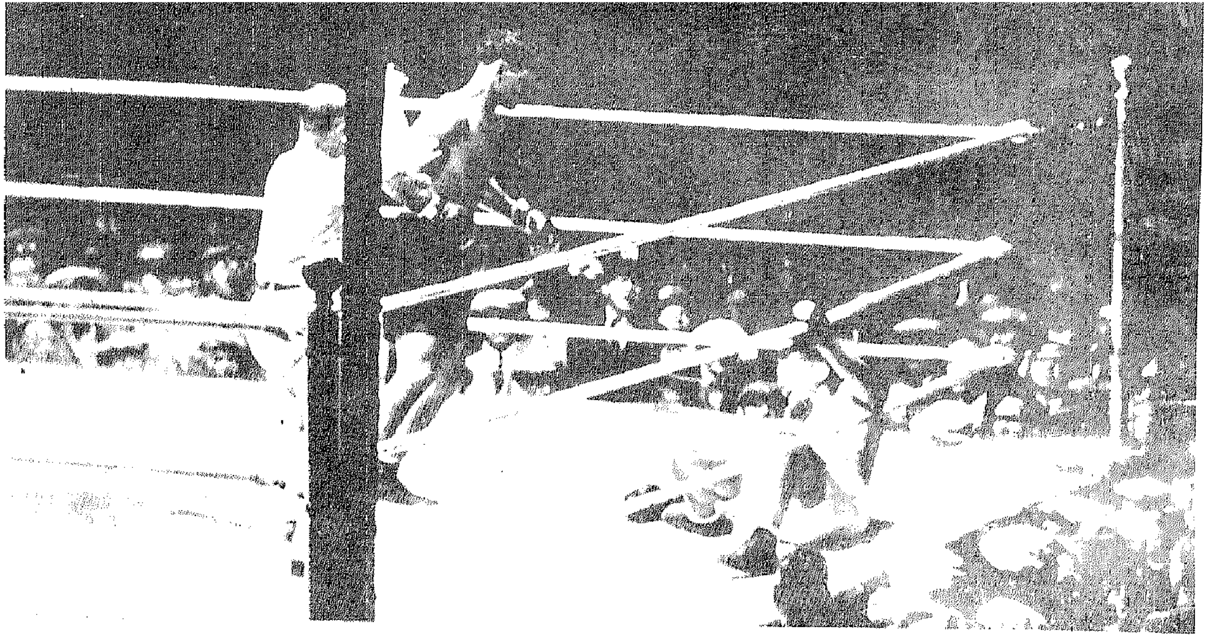
آل كابوني

إرسال تلغرافي مع فرنسا وانجلترا والبرازيل وكندا والمكسيك واستراليا، ومن الطريف انه سمح لنزلاء السجون الأميريكية بسماع الوصف الاذاعي.

وفي تمام العاشرة دخل ديمبسي الحلقة يرتدي «شورت» أسود وتلاه جين تاني بخمس دقائق وكان يرتدي زياً أبيض.

وكان من المقرر ان يحكم المباراة ويف ميلر ثم تغير في الدقيقة الأخيرة ليحل محله الحكم ديف باري بعد ان ثارت أقاويل حول اتصالات مشبوهة للحكم المستبعد مع بعض المقامرين، وقبيل بدء المباراة ووسط ضجة هائلة من الجمهور، جمع الحكم الملاكمين ومساعديهما، وقال لهم انه في حالة الضربة القاضية على الملاكم الضارب ان يبتعد إلى ركن الحلقة، وانه لن يبدأ العد على المضروب قبل ان يتم ذلك.

وعلى مدى الجولات الست الأولى كان تاني متفوقاً، ومن الطريف ان ايستل زوجة ديمبسي التي تكره الملاكمة أغلقت على نفسها باب الحمام في سكنها بالفندق حتى لا تسمع المباراة، وفجأة وبلا تفسير مفهوم خرجت قبل بداية الجولة السابعة بالذات بعد ان عدلت عن الحبس الاختياري. وحدث انه بعد دقيقة واحدة من بداية الجولة السابعة شوهد ديمبسي يفاجئ الكل بتوجيه ضربة ساحقة إلى تاني الذي سقط ممدداً على الأرض، وقوبلت الضربة



الجولة الحاسمة ... جين تاني على الأرض والحكم يحاول إبعاد جاك ديمبسي.

القاضية برد فعل جنوني من جانب المشاهدين، الذين وقفوا رجالا ونساء، فوق المقاعد يلوحون بايديهم ويقذفون بقبعاتهم في الهواء ويصرخون باعلى أصواتهم وتبين بعد ذلك ان خمسة أفراد من الذين كانوا يتابعون المباراة في الاذاعة ماتوا بالسكتة القلبية، كما أصيب اثنان من مدينة ديترويت بأزمة قلبية عنيفة.

ووقف ديمبسي بجانب جسد تاني الممدد، لمعاودة ضربه إذا تمكن من النهوض، ولم يتبع ديمبسي بذلك تعليمات الحكم بضرورة الابتعاد إلى ركن الحلقة، ولم يبدأ الحكم العد على تاني كما تجري العادة، وطلب من ديمبسي التوجه إلى ركن الحلقة، وقد استغرق الأمر منذ سقوط تاني وكلام الحكم وعـودة ديمبسي إلى ركن الحلقة ٥ ثوان غالية، بدأ بعدها الحكم العد على تاني ولكن بداية من العدد ١ وليس ٦، ولما وصل إلى العدد ٩ نهض تاني، الذي استفاد من الوقت الضائع الذي وصل إلى ١٤ ثانية فقد أطلق بعد ذلك على المباراة اسم مباراة «العد الطويل».

وسرعان ما استعاد تاني قوته وتفوق على مدى الجولات المتبقية وفاز بالنهاية بالنقط، وقد عرف بعدها ان زوجة ديمبسي اغمي عليها بغرفتها فور اعلان النتيجة.

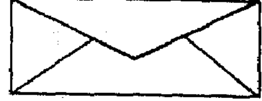
وما إن وصل نبأ النتيجة تلغرافيا إلى لندن حتى صدرت نشرة صحفية خاصة تتضمـن وصف المباراة.

وقد بذلت عدة محاولات لاقناع ديمبسي بالاشتراك في لقاء ثالث مع تاني ولكنه رفض واعلن الاعتزال، وتبلغ المأساة أقصاها عندما يتعرض ديمبسي لضربتين أخريين قاصمتين، الأولى عندما فقد ثلاثة ملايين دولار خلال الأزمة الاقتصادية التي اجتاحـت أمريـكا، والثانية إثر انفصاله عن زوجته لنزاع بينهما.

ويعيش البطلان الآن في مدينة نيويورك، وتأثرت صحتهما بحكم الزمن، ديمبسي (٨٣ سنة) مع زوجته الرابعة ديانا التي تزوجها عام ١٩٥٨، وقد شفي منذ زمن قريب من آثار أزمة قلبية، أما تاني (٨٠ سنة) الذي كان يجري في شبابه عدة أميال يوميا، وأصبح يمشي حاليا متكئا على عصا غليظة، أما اليد الأخـرى فتستند إلى مرافق دائم.

وأحيانا ما يتقابل البطلان حاليا في حفلات خاصـة، ومـا ان يتـم ذلك حتـى يلتف كل الحضور حولهما، ويتردد السؤال الدائم «ترى ماذا حدث منذ ٥٠ عاما في الليلة المثيرة للعد الطويل» ■





بريد القراء

● صلاح زين الدين – بعقلين – الشوف. لبنان

■ شكراً لعواطفك الطيبة تجاه المجلة والقائمين عليها. المواد التي ارسلتها حولت الى سكرتير التحرير لتقرير صلاحيتها للنشر.

بالنسبة للتجليد فاننا ننصحك بالاتصال باحدى دور التجليد المختصة.

أما بالنسبة للصورة الملونة التي اقترحتها فانها احدى مشاريعنا للمستقبل ان شاء الله.

● طانيوس وديع موسى – صغبين – البقاع الغربي – لبنان

السيد سكر: تحية شطرنجيه من متابع لاخبارك وتحليلاتك ومسائلك «الشطرنجية» الجذابة. وبعد ارجو ان ترسل لي او تنشر عناوين بعض المجلات العالمية الشهيرة التي تهتم بالشطرنج وتصدر باللغة الانكليزية.

■ شكرا لرسالتك اللطيفة وفيما يلي عنوان المجلة:

BRITISH CHESS MAGAZINE
9 MARKET STREET, ST
LEONARDS ON SEA.
EAST SUSSEX TN 380 D Q
ENGLAND

● سيد خليل شكر – محافظة نينوى – العراق.

■ شكرا لعواطفك الطيبة تجاه المجلة وننصحك بالاتصال بالسفارة اللبنانية في بغداد لتزويدكم ببعض النشرات السياحية.

● محمد السعدي – قصاع شارع بغداد – دمشق – الجمهورية العربية السورية

■ استلمنا رسالتك اللطيفة ونشكرك على مشاعرك النبيلة تجاه المجلة وجميع العاملين بها. احلنا اسئلتك الى سكرتير التحرير وسيجيب عليها في اقرب فرصة.

● شهاب مهنا – ذوق مكايل – لبنان

■ شكراً للصورة الملونة الرائعة لمدينة صيدا التي ارسلتها لنا. ونعدك بنشرها في اقرب فرصة ممكنة.

● مازن حلباوي – دمشق – الجمهورية العربيةالسورية

لقد استأثرت مجلة «تاريخ العرب والعالم» باهتمامي منذ العدد الأول الذي ظهر في اواخر عام ١٩٧٨. ولم استطع منذ ذلك الوقت وحتى الآن ان اوجه اليكم اي انتقاد او شكوى سواء أكان ذلك من ناحية رونقها الجميل او من ناحية معلوماتها التاريخية والتراثية والفنية الرائعة.

ارسل تحياتي الى جميع العاملين في هذه المجلة الذين يحاربون هم ايضا بالقلم والكلمة لاخراج هذه الموسوعة التاريخية الشهرية العظيمة التي تنير للناشئة حقيقة تاريخهم وتزيدهم معرفة به من خلال هذه الموسوعة التي لم يشهد لها الوطن العربي والعالم كله مثيلا!..

■ نشكر الأخ مازن على عواطفه النبيلة ونؤكد له بأننا مستمرون في تأدية رسالتنا القومية مادام لنا اصدقاء ومشجعون مثله.

المســــابقـــة

تاريخ وأسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي

إلى القراء الأعزاء:



ترغب مجلة «تاريخ العرب والعالم» ان تفتح باباً خاصاً للقراء، لا سيما للطلاب في الثانويات والجامعات، تدعو فيه إلى الكتابة المختصرة في موضوع: «تاريخ واسماء ومعالم القرى والأحياء في الوطن العربي». والمجلة اذ تفتح باب هذا الموضوع تخصص مكافأة قدرها ١٠٠ ليرة لبنانية، أو ما يعادلها للفائز الأول، واشتراكاً سنوياً في المجلة للفائز الثاني، على أن تتضمن المساهمة المقدمة معلومات جديدة وشيقة عن القرية او الحي او الأثر وعن تاريخه واسمه وظروفه، أو ما يحتوي من آثار عمرانية قديمة أو مظاهر حضارية، وإذا امكن صورة فوتوغرافية مأخوذة للحي او القرية او لأي مظهر عمراني أو أثري فيها، كذلك على ان لا تتجاوز الـ ٢٠٠ كلمة.

هذا، وإذ تشدد المجلة على جدة المعلومات الواردة، تطلب من الكتاب الأعزاء ان يتقيدوا بأصول الكتابة العلمية وأن يشيروا الى مصدر الاقتباس، وتترك لهيئة التحرير حقها في اختيار المساهمات الصالحة للنشر، وكذلك اختيار المساهمات الفائزة، إذ من حصيلة ما يصل الينا ستختار هيئة التحرير ثلاث مساهمات للنشر في كل عدد بينها المساهمتان الأولى والثانية الفائزتان.

* * *

نرجو من المشترك ان يكتب اسمه وعنوانه بخط واضح في نهاية مقاله وأن يرسله الينا بالبريد على عنوان المجلة

هيئة تحرير المجلة استلمت عشرات الرسائل ولكن معظمها، بكل اسف، عالج مواضيع خارجية ليست مطلوبة. فنص المسابقة صريح وواضح والمطلوب كما ورد في النص مرات.

فالبعض كتب عن تاريخ دولة كالأخ محمد كشاد وكثيرون جداً كتبوا عن احداث شهيرة والمطلوب الكتابة عن القرى والأحياء في الوطن العربي فتاريخ المدن العربية والعواصم متوفر في معظم الكتب التاريخية والموسوعات الجغرافية. ولكن الهدف كان ولا يزال تشجيع الطالب او الباحث على تعريف القارىء العربي بقرى او احياء عربية مجهولة او آثار حضارية او عمرانية قديمة..

والبعض استرسل في الكتابة، فكتب اكثر من عشر صفحات والمطلوب فقط ما بين ٢٠٠ - ٢٥٠ كلمة!

فادارة التحرير تشكر جميع المشتركين على مساهماتهم وتنوه بصورة خاصة بجهود البعض وتأسف لعدم استطاعتها اعطاء الجائزة الاولى لأي مشترك ولكنها تعلن فوز السيد خليل محمد عبدوني بالجائزة الثانية وهي عبارة عن اشتراك سنوي مجاني في «تاريخ العرب والعالم».

تنويه خاص:

○ عماد محمد خشان - من لبنان - كتب عن «مدينة بعلبك».
○ حيدر مجيد ياسين - من العراق - كتب عن «مدينة الموصل»
○ شهاب مهنا من لبنان - كتب عن «مدينة صيدا»
○ عبد الحكيم محمد كشاد - من ليبيا - كتب عن «مرحلة ليبيا القديمة».
○ خليل محمد عبدوني من لبنان - كتب عن قرية «السلطان يعقوب الفوقا».
○ الآنسة لواحظ عبد القادر عدرة من لبنان - كتبت عن «مدينة طرابلس».

وستنشر ادارة التحرير بعضاً من هذه المساهمات في باب «القراء يكتبون».

حضارة البداري

حضارة البداري حضارة مصرية من عصر ما قبل التاريخ وهي احدى حضارات العصر الحجري الحديث، كشفت بواسطة برنتويد في قرة الهمامية بالقرب من مدينة البداري بمحافظة اسيوط حيث وجدت مقابر القوم ومساكنهم وبذلك كانت المعلومات عنهم كاملة، وقد امتاز البداريون على اسلافهم التاسيين بمعرفة النحاس ولذلك اعتبروا في مرحلة حضارية ارقى واحدث، فهم يرجعون الى منتصف الألف الخامسة قبل الميلاد. ولقد استخدم البداريون الفاس النحاسية في قطع الأشجار اذ انه حينما استقروا في منطقة البداري كان المطر يسقط على القطر المصري من ساحل البحر المتوسط حتى اسيوط.

وقد نبغ البداريون في صناعة الأواني الفخارية، وبلغت هذه الصناعة في عهدهم درجة عالية من الاتقان والرقة، وتسود بالبداري مجموعتان من الآنية الفخارية: المجموعة الحمراء ذات الحافة السوداء، والمجموعة السوداء المزينة برسوم بيضاء.

وقد صنع البداريون اسلحتهم الحجرية من الصوان المحلي واتبعت في هذه الصناعة طريقة تشظية مشهورة في عصر ما قبل التاريخ يقال لها الشظية بواسطة الضغط، والعالم الأثري فلندرز بتري يربط بين هذه الصناعة المصرية وبين الصناعة السولترية في اوروبا (نسبة الى كهف سولتري في فرنسا) ويقيم عليها نظرية انثروبولوجية غريبة مؤداها ان سلالة قوقازية هاجرت من بلاد القوقاز في طريقين الى غرب اوروبا والى مصر. ولكن اغلب الاثريين لا يرون هذا التشابه في الصناعتين المصرية والفرنسية مبرراً للقول بان جنسا واحدا هو الذي أنشأها.

وقد صنع البداريون بهذه الطريقة المكاشط والسهام المتعددة الاشكال والأسلحة التي على شكل ورق الصفصاف والاسلحة المسننة كالمنجل والمنشار فاما السهام فهي من ادوات الصياد واما المكاشط فهي من ادوات دباغ الجلود، اما المنجل فهو من ادوات الزارع واما المنشار فهو من ادوات النجار وهذا يعطينا فكرة عن الحرف المعروفة عند البداريين في ذلك الوقت. وفيما عدا الادوات الحجرية كان عند البداريين الات عظيمة مدببة الطرفين ربما كانت تستخدم كسهام، كما كان عندهم من ادوات القتال - بخلاف القوس والسهم - العصي القاذفة المصنوعة من الخشب ثم القرص المصنوع من الحجر الصلب.

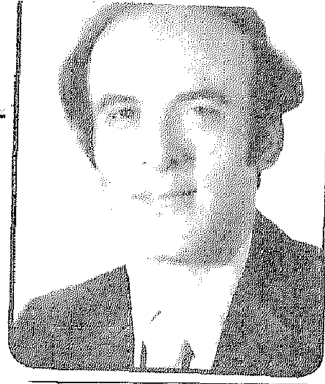
ولقد تفوق البداريون في صنع اللوحات الارتوازية التي كانت تستخدم لطحن الملاشيت (التراب النحاسي الأزرق) والمغرة (التراب الحديدي الأحمر) كما عرف البداريون صناعة التماثيل، فقد وجد بمقابرهم تماثيل نسائية صغيرة واشياء فنية من العاج كالقوارير والملاعق والامشاط والدبابيس، كما كانوا يشكلون حبات الخرز من الكوارتز والفلسبار، وكانوا يشكلون الاقراص من قشر بيض النعام ويصنعون من اصداف البحر منظومة في شكل عقود واحزمة واساور.

وقد كان البداريون يدفنون الميت في وضع مقرفص في حفرة غير عميقة مكسوة بالحصير او جلد الماعز، واحيانا يغطى الميت باغصان الأشجار. ومن الناحية السلالية كان البداريون حاميين عليهم مسحة زنجية فهم من اصول الشعب المصري في العصر التاريخي غير ان المسحة الزنجية فيهم واضحة، ويقترب شكلهم من الدرافيديين الحاليين بالهند.

ودلت محتويات مقابرهم على انهم كانوا يؤمنون بحياة اخرى، وكانت لهم طقوس جنائزية معينة فقد وجدت عندهم مدافن خاصة بالحيوان فضلا عن الحيوان المدفون مع الميت، وهي طقوس افريقية ما زالت متبعة عند بعض القبائل الحالية في وسط افريقيا وجنوبها.

وكانوا يعيشون في قرى ويزرعون الحبوب ويرعون الحيوان ويلبسون ملابس منسوجة من الياف النبات، وكانوا مهرة في صقل الحجارة وفي الغزل والنسيج وصناعة الاسبتة والاواني وفي نحت الخشب والعظم والعاج هذا فضلا عن ممارستهم للفن كتشكيل التماثيل ومعرفتهم للطقوس الجنائزية وايمانهم بالحياة الاخرى.

دائرة المعارف



رأي حر

د. محمد مخزوم



لما كان الفكر الانساني على امتداد العصور التاريخية، سلسلة مترابطة الحلقات يمثل فيها كل مجتمع مرحلة معينة من مراحل التطور التقدمي للحضارة الانسانية، فان العرب ساهموا في انطلاقة هذه الحضارة عبر المرحلة التي شهدت فترة الركود الحضاري وهي المرحلة التي تقع بين بداية اضمحلال الامبراطورية الرومانية وقيام عصر النهضة في أوروبا.

والعرب في ماضيهم عندما تصدروا غيرهم لملء هذا الفراغ عمدوا إلى الاطلاع على تراث اليونان والرومان كما فعل الأوروبيون في بداية خلق حضارتهم الحديثة عندما أقبلوا على ترجمة الحضارة العربية إلى اللاتينية في العصر المعروف بعصر الترجمة من العربية إلى اللاتينية.

وديناميكية الحضارة تفرض الاتصال بالماضي لأن إحياء التراث القديم يقوم عليه بناء المستقبل على أساس كشف المعايب واستقصاء الحقائق وفهم العبر والاطلاع على النشاط الانساني عبر التاريخ إلى جانب كونه قضية متعلقة تماما بتحديد هوية الانسان وانتماءاته. ومحاكاة الماضي لا تعتبر وقفه على الأطلال كما أنها لا تفرض التقليد لأن تطور المجتمع لا يتم إلا بالنضال المستمر ضد القوى المحافظة إلى حد بعيد والمتعلقة تزمتا بالتراث القديم.

ونحن اليوم بينما نعيش قضية التجديد هذه لا بد لنا من استيعاب تراثنا الحضاري وصيانته واغنائه ونقله عبر تاريخنا لئلا نكون أمة في التاريخ تناست ماضيها ورفضت استيعابه. والتراث العربي المتناثر اليوم في خزائن المكتبات العالمية على شكل مخطوطات تربو على المليون إنما هو موسوعة حقبة تاريخية طويلة تناولت جميع العلوم وحقول الثقافة: من العلوم الطبيعية والرياضيات والطب والصيدلة وعلم الفلك إلى مجال الفلسفة والتاريخ والجغرافية واللغة والآداب.

ولما كان العمل في هذا النوع يستدعي قيام مؤسسات ضخمة مجهزة بشريا وفنيابجهاز كامل، فاننا ندعو جميع المعنيين بهذا الأمر لأنشاء هذا الصرح الذي يسمح لنا بكتابة تاريخنا على أسس مخبرية (مع أن التاريخ أشد الدراسات إنسانية). نتخطى فيه التخمينات من جهة وتبعية المستشرقين ودوافعهم من جهة ثانية، فنكون لنا مدرسة رائدة تعتمد النقد والتحقيق والاستنتاج في صناعتها لتاريخنا.

لهذا يجب أن تكون وأن تبقى وتستمر مجلة تاريخ العرب (بخط عريض) والعالم (بخط رفيع) لترفع مدماكا في هذا الصرح العظيم بهمة قرائها ومحرريها ومستشاريها وكتابها. فتبرز لنا قضايانا الاجتماعية لتقدم لها الحلول عبر مقالات تستمد جذورها من تاريخنا المفعم بملاحم البطولة فتقدم لنا بذلك ماضينا كما كان «لا كما نتوهم أن يكون» حسب تعبير الدكتور قسطنطين زريق.

إن التقدير المتزايد لمجلة تاريخ العرب والعالم اعتمادا على عملية التسويق وعلى رسائل القراء بأن تنشر المجلة بعض عيناتها تباعا، لا شك أنه يسير جنبا إلى جنب مع تحقيق الطموحات الموضوعة سلفا: مجلة يلجأ إليها (المهموم) في أوقات فراغه و (المتخصص) في أوقات بحثه و (المثقف) في جميع أوقاته.

■



مونيه :
الفنان الذي
أنار الظلال



فرنسا :
حوادث أيار ١٩٦٨
وكيف أطاحت
بديغول ؟

